جمال الدين الأفغاني

بَيْنَ حَقَائِقِ ٱلتَّارِيخ

وَأَكَاذِيبِ لِويس عَوَض

أ. د. محمَّد عِمَارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

مع تصاعد مد اليقظة الإسلامية المعاصرة تتزايد الحاجة إلى معالم المشروع الحضاري الذي صاغته مدرسة الإحياء والتي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني، فهو موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام الذي سعى لتحرير العقل من « التخلف الموروث » لتنهض الأمة فتقهر الاستعمار وترفض التغريب؛ ولهذا فقد اتخذته الصحوة الإسلامية رائدًا بينما ناصبه العداء أنصار « الجمود والتخلف » ودعاة « التبعية والتغريب »، فكان لا بد من إنصاف الأفغاني أمام « الأصدقاء الجهلة » وكذلك « الأعداء الكذبة ».

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com


ISBN: 977-342-762-5
9 789773 427627



بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

لدار السلام

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد .
جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض / تأليف محمد عمارة . - ط ١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٩م .
٢٨٠ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٥ ٧٦٢ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - جمال الدين الأفغاني ، محمد ابن صفدر الحسيني ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧ .
٢ - المصلحون الاجتماعيون .
أ - العنوان .

٩٢٣,٦

جمهورية مصر العربية ، القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية - مدينة نصر . هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٠٠٢٠٢) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

المكتبة (١) : القاهرة - ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي . هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٠٠٢٠٢)

المكتبة (٢) : القاهرة - ٦ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر . هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٠٠٢٠٢)

المكتبة (٣) : الإسكندرية - ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي - بجوار جمعية الشبان المسلمين . هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ (٠٠٢٠٣) - فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)

بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية . الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م في عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثلث مضى في صناعة النشر

بسم الله الرحمن الرحيم



***

مقدمة الطبعة الثانية

منذ ثلث قرن بدأتُ العمل في الجمع والتحقيق والدراسة للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)؛ إيمانًا مني وتقديرًا لريادته تيار اليقظة الإسلامية الحديث، الذي جاهد لإنهاض الأمة بالإسلام، في مواجهة تيار الجمود والتقليد الذي انكفأ على فكرية عصر التراجع الحضاري... وتيار التغريب والتبعية للنموذج الغربي، الذي عمل ويعمل على الذوبان في الآخر الحضاري، والمسخ والنسخ والتشويه لهويتنا الحضارية العربية الإسلامية.

ومنذ ذلك التاريخ غدت سلسلة الأعمال الكاملة التي توفرتُ على تحقيقها ودراستها ونشرها - للأفغاني ومحمد عبده.. والطهطاوي.. والكواكبي.. وعلي مبارك.. وقاسم أمين - طاقات فكرية فاعلة في ترشيد يقظتنا الحضارية المعاصرة، تزكي وسطية الإسلام، والتنوير الإسلامي في مواجهة غلوي الإفراط والتفريط - الجمود النصوصي.. والانفلات التغريبي من هوية العروبة والإسلام..

ومع تصاعد مد اليقظة الإسلامية المعاصرة يتزايد

الاستقطاب الفكري بين الغلاة - من أهل الجمود والتقليد.. وأهل التبعية والتغريب - وتتزايد الحاجة إلى معالم المشروع الحضاري الذي صاغته مدرسة الإحياء والتجديد التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني..

وإذا كان الهجوم الذي شنَّه الدكتور لويس عوض على الأفغاني - منذ خمسة عشر عامًا - قد مثَّل - في حقيقته - الجزء العلماني التغريبي من رائد اليقظة الإسلامية الحديثة.. فإن هذه الطبعة الجديدة - لهذا الكتاب الذي فندنا به أكاذيبه - تأتي في مناخ فكري تتصاعد فيه جرأة المتغربين على ثوابت الاعتقاد الإسلامي.. ومحاولات نفر منهم تزييف وعي الأمة بخلط أوراق التجديد الإسلامي - الذي ارتاد الأفغاني ميدانه في عصرنا الحديث - خلط هذا التجديد - الذي هو تطور من داخل النسق، يستصحب ثوابته ويجدد في متغيراته ليواكب مستجدات الحياة - خلطه بالتنوير الغربي - الوضعي.. والمادي.. والعلماني - الذي يقيم قطيعة معرفية مع ثوابت الاعتقاد الديني وجماع الموروث والمأثور.. حتى لقد ذهبوا، في هذا التزييف والالتفاف حول الحقائق الفكرية والتاريخية والحضارية، إلى الحد الذي يضعون فيه أعلام التجديد الإسلامي في « سلة التغريب »!!..

الأمر الذي استدعى إعادة طبع هذا الكتاب.. بعد نفاذ طبعته الأولى قبل عشر سنوات.. واللَّـهَ نسأل أن ينفع بهذه

الطبعة، كما نفع بسابقتها، تلك التي استقبلها القراء أطيب الاستقبال..

جمادى الثانية (١٤١٧ هـ) القاهرة نوفمبر (١٩٩٦ م).

أ. د. محمد عمارة

* * *

تمهيد



بيني وبين الدكتور لويس عوض ما يمكن أن نسميه « التعايش السلمي »، المتسم « بالود »، والمرتكز إلى « حسن الجوار »!..

فالرجل قد تخصص - أكاديميًا - في « الأدب الإنجليزي ».. وأنا في نطاق هذا التخصص مجرد قارئ متذوق لا أكثر.. ومن ثمَّ فلم أدخل - يومًا من الأيام - في زمرة الذين يشككون في قدراته بهذا الميدان.. ولقد دعم من « حسن الجوار » هذا أن الصحافة المصرية - التي احترف الدكتور لويس العمل بها بعد إبعاده عن الجامعة، وكذلك الحركة الفكرية بمصر - قد وقفت بالرجل عند حدود تخصصه الأكاديمي تقريبًا، فهو في نظرها « عين مصرية » على الأدب الأوربي، يرحل إلى بلاد الفرنجة ليتابع المسرح، والسينما، والمعارض الفنية، ثم يعود ليمتع قراءه بما رأى هناك.. وفي أحسن الأحوال كانت الحياة الصحفية والأدبية تقبل الرجل كناقد للأدب العربي المعاصر، مع قليل أو كثير من الامتعاض!..

تلك هي قدرات الدكتور لويس وحدوده واختصاصاته...

ولما كان تخصصي هو « العلوم الإسلامية » وميدانها بعيد عن ميدان اختصاص الدكتور لويس، فلقد نشأ بيننا ما أسميه « التعايش السلمي »، المرتكز إلى « حسن الجوار ».. نلتقي قليلًا، ولكن في ودٍّ واحترام.. أقرأ له ما يعرض علينا من نقد وتقويم للآداب الأوربية، قراءة متذوق غير متخصص.. وأبدي إعجابي في كثيرٍ من الأحيان.. ويقرأ الرجل بعض أعمالي، ويثني عليها ثناءً أشكره عليه..

لكن « الظاهرة » التي أقلقتني - وربما أقلقت غيري - هي خروج الدكتور لويس عن إطار تخصصه واختصاصه، لا إلى دائرة فنية أو فكرية أوسع - فهذا حقه المشروع شريطة أن يتأهل له - وإنما إلى دائرة فكرية ليست بينه وبينها أية علاقة على الإطلاق!.. ثم إصداره العديد من الأحكام الخطيرة والخطرة في قضايا فكرية لها حساسيات شديدة، بحكم صلتها العضوية بالمعتقدات المقدسة لجمهور الأمة.. ومجيء نشاطه الجديد هذا وأحكامه تلك في إطار الجهود التي تنظمها وتوجهها دوائر استشراقية غربية - أوربية وأمريكية - تصديًا لتيارات فكرية محلية، بعضها قومي وأغلبها إسلامي..ثم - وهذا هو المصدر الأساسي للقلق من هذه « الظاهرة » - إن تصدي الدكتور لويس لهذه القضايا قد جاء دون « مؤهلات »، ليس بالمعنى الأكاديمي،

ولا لأنه مسيحي يقتحم ميدان الكتابة في التأريخ لحركات الإصلاح الإسلامية، وإنما بالمعنى « الفني » الذي يتطلب من أي إنسان أن يتأهل ولو بالحد الأدنى من أسلحة الميدان الذي يريد أن يحارب فيه!..

لقد أقلقتني هذه « الظاهرة » لأحكامها الخطيرة، واستنتاجاتها الغريبة، ولما مثلته وتمثله من استفزاز للضمير القومي والإسلامي، وفوق ذلك لمجيئها في إطار مخطط لا نحسب أن معالمه ومراميه قد غابت عن فطنة الدكتور لويس!.. وعلى سبيل المثال:

ففيما بين حرب السويس سنة (١٩٥٦م) وعدوان سنة (١٩٦٧م) استقطب المشروع القومي العربي - الذي قاده جمال عبد الناصر - جمهور الأمة العربية، وبرزت لهذه الأمة ذاتيتها الخاصة تجاه الغرب الاستعماري وحضارته الغازية، وأخذ عقل الأمة يبحث عن ذاتها وقسماتها التي تميزها عن أعدائها وغزاتها التاريخيين، فإذا الإسلام السياسي والحضاري يبرز كالمصدر الأعظم والصبغة الأفعل في تكوين الملامح القومية لهذه الأمة، الأمر الذي دفع إلى المقدمة ظاهرة « الإحياء الإسلامي » و« الصحوة الإسلامية » الحالية.. حتى لنستطيع أن نقول: إن التيار الإسلامي المعاصر قد انطلق مواصلًا ومطورًا المشروع القومي العربي الناصري، رغم ما حدث بين القوميين والإسلاميين من صراع سلمي أو عنيف؟!..

وفي خلال تلك الحقبة - حقبة بزوغ شمس المشروع الحضاري الخاص للأمة العربية - تعلقت آمال شعوب الشرق الإسلامية، بل وغير الإسلامية، بالأمة العربية، آملةً أن تقود نضالها في سبيل الاستقلال السياسي، والاقتصادي، والحضاري، كما صنعت ذلك من قبل بالفتوحات التي أعقبت ظهور الإسلام!..

وهكذا تلاحمت الدائرة العربية بالدائرة الإسلامية، وبرز للعقل الواعي: إفضاء « المشروع القومي العربي » إلى « الدائرة الإسلامية »، وارتباط « الدائرة الإسلامية » بالمشروع « القومي العربي »، والعلاقة الوثيقة بين « العروبة » و « الإسلام »!..

ولقد كان طبيعيًا أن يتصدى الغرب الاستعماري، وحضارته العدوانية الاستعلائية للمشروع الحضاري « العربي - الإسلامي » الذي يريد أن يفسد مقولة الغرب الاستفزازية التي تزعم أن حضارته هي الحضارة « الإنسانية »، وأن على كل الأمم أن تتخلى عن مواريثها الحضارية وخصائصها القومية، وتتحول إلى كياناتٍ حضاريـةٍ تابعةٍ للغرب، وإلى « هوامش » للحضارة الغربية.. لقد نهضت دوائر الفكر الاستعماري في الغرب؛ لتشن حملتها الضارية ضد بوادر مشروعنا الحضاري الخاص، مدافعةً عمّا يمكن أن نسميه « الاستعمار الاستيطاني الحضاري » كما تدافع جيوش الغرب وشركاته عن « الاستعمار الاستيطاني » المتمثل في الكيانات العنصرية، والقواعد العسكرية، والنهب الاقتصادي لثروات البلاد التابعة للمركز الغربي!..

وفي خضم هذا الصراع الحضاري.. بدأت وبرزت « الظاهرة المقلقة » للدكتور لويس عوض!.. ففي تلك الحقبة – على وجه التحديد – بدأ الرجل يتخطى نطاق اختصاصه وتخصصه – النقد الأدبي –، ويتقدم إلى قرائه « مفكرًا » يوجه سهامه إلى لب المشروع الحضاري الخاص للأمة.. إلى « العروبة » و « الإسلام »!!..

فبينما الأمة تسعى إلى بلورة ملامح مشروعها الحضاري « المتميز » – ولا نقول المعادي ولا المنغلق – عن الحضارة الغربية – وخاصةً في جوانبها الاستعلائية وروحها المادية –، بينما الأمة تسعى على هذا الدرب برزت أهمية تجديد الصلات بين « الحاضر » وبين « التراث »، وضرورة تأسيس المشروع الحضاري الجديد على « الثوابت »، و« القيم »، و « القسمات الحضارية » التي هي بمثابة « البصمة » المميزة لأمتنا عبر تاريخها الطويل، والتي لا تزال صالحةً للعطاء الذي يمثل طاقةً خلّاقةً في التقدم والنهوض..

وهنا.. تقدم الدكتور لويس – في صورة « مؤرخ الفكر » – ليقول في كتابه (تاريخ الفكر المصري الحديث): إنه لا علاقة بين مصر الحديثة وبين التراث العربي الإسلامي، فكل ما في مصر الحديثة من إيجابياتٍ، وجميع ما عرفته من مظاهر الحرية والديمقراطية – إنْ في « الفكر » أو في « التنظيم » – إنما هو أثر من آثار الحملة الفرنسية عليها سنة (١٧٩٨م)..

حتى ليمكن تلخيص كتابه هذا في كلمات تقول: « إن مصر الحديثة هي هبة بونابرت »؟!..

وبالطبع، فليس المقام الآن خاصًّا بتفنيد دعوى الدكتور لويس التي ترمي إلى عزل حاضر الأمة عن تراثها « العربي - الإسلامي »، فقط نريد أن نسأله - وهو الذي قرأ « الجبرتي » -: ألم تقرأ ذلك الحوار الذي دار بين عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٥ - ١٨٢٢م) وبين الضابط الأرنئودي « عمر بك » أثناء حصار الشعب المصري - بزعامة عمر مكرم - للوالي العثماني خورشيد باشا - في القلعة - في سنة (١٨٠٥م)؟..

لقد دار هذا الحوار الذي بدأه الضابط الأرنئودي على النحو التالي:

« عمر بك: كيف تعزلون من ولّاه السلطان عليكم، وقد قال اللّـه تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

السيد عمر مكرم: أولو الأمر: العلماء، وحملة الشريعة، والسلطان العادل، وهذا - (خورشيد باشا) - رجل ظالم، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شيء من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيها بالجور، فإنهم يعزلونه ويخلعونه!.

عمر بك: وكيف تحصروننا، وتمنعون عنّا الماء والأكل، وتقاتلوننا؟!.. نحن كفرة، حتى تفعلوا معنا ذلك؟!..

السيد عمر مكرم: نعم!.. لقد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة »[1]!..

نسأل الدكتور لويس عن دلالة هذا الحوار الذي هو جزء من فكرية أولى الثورات الدستورية في حياة مصر الحديثة.. أكانت حملة بونابرت هي مصدره؟.. أم أن تراث الأمة وشريعتها الإسلامية كانت الخلفية الفكرية التي تعلَّم منها عمر مكرم حق الأمة - « أهل البلد » - في عزل الولاة، بل والخليفة والسلطان؛ لأن الأمة هي مصدر السلطات، والظالمون الجائرون من هؤلاء هم « عصاة » للأمة، عليها أن تقاتلهم؛ لأنهم كفروا بشريعة العدل والإنصاف!..

هل كانت مصر الحديثة هنا منبتة الصلة بتراثها الإسلامي؟.. تبدأ من حيث انتهت الثورة الفرنسية، ورسولها نابليون؟!..

وفي ذات كتاب الدكتور لويس - (تاريخ الفكر المصري الحديث) - يريد أن يعلم قُرَّاءَه أن « استقلال مصر » ليس هو « استقلالها عن الغرب الاستعماري »، بل هو « استقلالها عن ماضيها وتراثها، وفك الارتباط بينها وبين المحيط الإسلامي الأوسع »، حتى ولو كان في ذلك « تبعيتها للغرب الاستعماري » في السياسة، والحضارة، والاقتصاد!!..

فعنده أن أول مشروع لاستقلال مصر هو ذلك الذي وضعه « المعلم يعقوب » (١٧٤٥ - ١٨٠١م)..، والمعلم

---

(١) الجبرتي، عجائب الآثار (٦ / ٢٢٣)، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٨م).

يعـقوب هذا أفَّاق، خرج على إجماع الأمة إبان الحملة الفرنسية على مصر، وخان الشعب - أقباطًا ومسلمين - وكوَّن فرقة من أراذل الأقباط، الذين نبذتهم حتى طائفتهم وأصبحوا سوط القمع الفرنسي والنهب البونابرتي لمصر الثائرة على الاحتلال، حتى لقد منح الفرنسيون ليعقوب هذا لقب « جنرال »، وعينوه « قائمقام ساري عسكر الفرنسيس »!.. وهو الذي يسميه « الجبرتي » في كتابه (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس): « يعقوب اللعين »!

« يعقوب اللعين » هذا، هو - عند الدكتور لويس - صاحب المشروع الاستقلالي الأول لمصر، فإذا بحثنا عن ملامح هذا المشروع - كما أوردها الدكتور لويس - من خلال « هذيان » يعقوب اللعين، أثناء احتضاره على ظهر السفينة الإنجليزية - « الفرقاطة بالاس » - التي أقلته مع الخونة الذين جلوا عن مصر في ركاب جنود الحملة الفرنسية سنة (١٨٠١م).. وهو « الهذيان » الذي ترجمه رجل « مصاب - (باعتراف الدكتور لويس) - بنوع من الهوس » يُدعى « لاسكاريس ».. ودوَّنه قبطان السفينة « جوزيف أدموندز ».. إذا بحثنا عن ملامح « مشروع الاستقلال الأول » هذا، من خلال هذا « الهذيان » - الذي وصفه الدكتور لويس بـ « الوثائق »!! - فسنجد هذا « الاستقلال »:

١ - استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية، التي كانت تتمثل - يومئذ - في الدولة العثمانية.

٢- وخضوع مصر « المستقلة » هذه « لتأثير إنجلترا، التي تملك ناصية البحار المحيطة بمصر »، إذ « من المستحيل على إنجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها لمستعمرة ».

٣- حماية استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية، وتأمين إخضاعها « لتأثير إنجلترا » « بوجود قوةٍ أجنبيةٍ مرتزقةٍ في مصر قوامها بين ١٢ ألفًا و١٥ ألف جندي.. »، تتحمل مصر نفقاتها!.. فمصر في حاجة إلى « قوة قاهرة تحكم حياة قوم وادعين جهلاء »؟!..

ثم يمضي « يعقوب اللعين » في مشروعه ممعنًا في إغراء إنجلترا بالسيطرة على مصر، فيقول: « إن الإمبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب؛ ولذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزيقها التاريخي بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلة.. إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة؛ لأنها ستستأثر دائمًا بالتجارة معها، نتيجة طبيعية لتفوقها البحري، فهي ستؤثر إذن في مصر باختيارها »؟!..

إنه « استقلال » عن الدائرة الإسلامية.. وخضوع « اختياري » - (ومع ذلك فهو بقوةٍ أجنبيةٍ، مرتزقةٍ، قاهرةٍ) - للغرب الاستعماري المتمثل يومئذٍ في بريطانيا العظمى؟!..

ذلك هو مشروع « الاستقلال الأول » لمصر الذي وضعه « المعلم يعقوب »، والذي لأجله وضع الدكتور لويس « معلمه »

يعقوب هذا في مصاف الأبطال، أبطال الاستقلال الوطني، فكتب يقول[١]: « إن الحكم التاريخي الموضوعي يقول: إن الجنرال يعقوب، ومحمد علي، وكل قائدٍ أو زعيمٍ شارك بجهد في الكفاح من أجل استقلال البلاد - من علي بك الكبير إلى جمال عبد الناصر - كانوا مجرد أدوات في يد هذا الشعب العظيم، وتعبيرًا عن إرادته لتحقيق استقلال مصر، ولتثبيت هذا الاستقلال »؟!!..

هنا يريد الدكتور لويس خلط الأمور والأوراق على القرَّاء.. فعلي بك الكبير ومحمد علي كانوا قادة - كلٌّ في وقته وملابساته - لمشروع استقلال المنطقة بأسرها - وليس « استقلال » مصر، الذي يعني عزلتها عن المحيط الأوسع من إقليمها - والعدو الرئيسي كان الغرب الاستعماري، وما التناقض بينهم وبين السلطان العثماني إلا لما رأوه من ضعفه الذي أفضى ويفضي إلى ازدياد خطر الاستعمار الغربي، فصراعهم مع العثمانيين يأتي في إطار محاولات إصلاح وتجديد الرباط الذي ينظم أقاليم العروبة والإسلام في الشكل الذي يحقق فاعليتها تجاه التحدي الاستعماري.. إنه « صراع » في إطار « الوحدة »؛ لمواجهة الخطر الرئيسي، وهو الغرب الاستعماري.

كذلك لم يكن عبد الناصر داعية للاستقلال الذي يعزل

---

(١) د/ لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث (١ / ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٩)، طبعة دار الهلال - القاهرة (١٩٦٩م).

مصر عن محيطها العربي وعالمها الإسلامي، فمشروعه القومي غني عن تفصيل الحديث!.. فكيف - إذن - يتسنى للدكتور لويس عوض أن يصنف الدعوة لعزل مصر عن محيطها الإسلامي، وإخضاعها لإنجلترا، بين مشاريع « الاستقلال ».. بل ويقول عنه: إنه « مشروع الاستقلال الأول » ؟!.

وكيف يتسنى للرجل أن يضع الخائن « يعقوب اللعين » في زمرة القادة والزعماء، الذين كانوا « أداة هذا الشعب العظيم المعبرين عن إرادته » من مثل: علي بك الكبير، ومحمد علي، وجمال عبد الناصر ؟!!..

كيف يتسنى للدكتور لويس « تبييض » الصفحة « السوداء » للمعلم يعقوب؟!.. اللهم إلا إذا كان يريد أن يوهم قراءه أنه - مع دعوته لعزل مصر عن محيطها العربي، من الناحية القومية، وما تطرحه من خيارات وحدوية - .. ومع دعوته لفك الارتباط بين مستقبل مصر وبين تراثها الإسلامي.. وشعوب أمتها الإسلامية، واستبدال الحضارة الغربية بالتمدن الإسلامي.. أي عزل مصر عن محيطها وعن تراثها، مع إخضاعها للغرب - خضوعًا حضاريًا اختياريًا - ... يريد الدكتور لويس أن يوهم قراءه أنه - كمعلمه يعقوب - رغم هذه الدعوة -- بل وبسببها -- واحد من دعاة « الاستقلال »؟!.. وليس كما يقول خصومه: واحدًا من رموز « التبعية الحضارية »، كما كان المعلم يعقوب رائدًا « للتبعية السياسية والاقتصادية »

للغرب المتمثل في إنجلترا في ذلك التاريخ؟!!.. إنها محاولة « لتأصيل » دعوة الدكتور لويس، فيها الكثير من الإسقاط على الذات!..

وفي إطار السعي لعزل الأمة عن تراثها الحضاري تأتي الجهود التي بذلتها وتبذلها حركة الاستشراق - وخاصةً قطاعاتها التي تشكك في « إبداع » العرب الحضاري -؛ لأن الهدف هنا هو تجريد « الفريسة » من « المجد التاريخي »، كي تستسلم « للتغريب »، إذ يصبح التغريب - بالنسبة للحاضر والمستقبل - هو « الخيار الوحيد » طالما أن تراثنا لا يشير علينا بخيارٍ بديل!..

وعلى هذا الدرب كانت دراسة الدكتور لويس عوض (على هامش الغفران).. تلك التي كتبها سنة (١٩٦٤م)؛ لتكون حلقةً في سلسلة التشكيك بأصالة التراث العربي من خلال التشكيك بأصالة فكر أبي العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ/ ٩٧٣ - ١٠٥٧م) وفلسفته، وذلك عن طريق إيهام القراء أنَّ المعري - وهو الصفحة البارزة في تراثنا الأدبي والفكري - لم يكن إلا صدىً لرهبان بيزنطة، وتلميذاً لأديرتهم، وطبعةً لتراث الغرب الحضاري الذي أبدعه اليونان!!..

فهي - إذن - جهد موظف « لنزع سلاح الأمة » إبان سعيها - في ستينات هذا القرن - خلف قيادة عبد الناصر؛ لبلورة مشروعها الحضاري الخاص والمستقل عن التبعية الحضارية للغرب الاستعماري؟!..

ولقد كان الدكتور لويس عوض في مطلع حياته الفكرية أكثر « جرأة » وأقل « دبلوماسية » مما هو عليه الآن!..

ففي الغرب تعلم - مع الأدب الإنجليزي - الكراهية والعداء للغة العربية، تلك التي تربط مصر بمحيطها العربي وتراثها الإسلامي، والتي تمثل رابطة قومية أضفى عليها القرآن طابع القداسة والخلود، فقرر الدكتور لويس أن يسير على الدرب الذي ارتاده - في القرن التاسع عشر - المستشرق الإنجليزي الاستعماري السير « وليم ويلكوكس » ذلك الذي تزعم الدعوة للتخلي عن العربية.. وكتب: « إن دراسة العربية الفصحى مضيعة للوقت، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية »!..

لكن الدكتور لويس تعلم - أيضًا - أن استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي - على النحو الذي دعا إليه عبد العزيز فهمي باشا (١٢٨٧ - ١٣٧٠هـ/ ١٨٧٠ - ١٩٤٨م) - لم يكن أكثر من صيحة تبدد صداها في المحيط العربي والانتماء الإسلامي لمصر، بل ربما كانت هذه الصيحة عاملًا من العوامل التي استفزت الحس العربي، واستنفرت الضمير الإسلامي في مصر؛ كي يعي هول ما يدبره له الأعداء!!... فلم يدع الدكتور لويس إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني، وإنما دعا إلى تحطيمها كليةً، ولكن عن طريقٍ مألوفٍ للناس أكثر من اللاتينية.. عن طريق استخدام

« العامية » بدلًا من « الفصحى »، ولما كان لكل إقليم عربي « عاميته » فإن « العامية » ستصبح الطريق لعزل مصر عن محيطها العربي، وعزلها كذلك عن تراثها وانتمائها الإسلامي!.. فكتب الدكتور لويس في مقدمة كتابه « بلوتولاند » - الذي ضمنه ما أسماه شعرًا نظمه بين سنة (١٩٣٨م) وسنة (١٩٤٠م) - كتب يقول:

« إنه قد عاهد الثلوج الغزيرة، في خلوةٍ مشهودة، بين أشجار الدردار، عند الشلال، بكامبريدج، ألا يخط كلمةً واحدةً إلا باللغة المصرية » (العامية)!

ورغم أن الدكتور لويس قد عجز عن الوفاء بعهده هذا، ولم يستطع النهوض بتبعات « المهمة » التي عاد بها من الغرب، فاضطر - في المحيط العربي الإسلامي الذي حكم عليه القدر بالنشأة والحياة فيه - إلى الكتابة بالعربية الفصحى، إلا أنه لم يتخل عن عدائه للعربية، فكتب في كتابه (مذكرات طالب بعثة) سنة (١٩٤٢م)، يصف العربية بأنها « أغلال » يجب تحطيمها!!.. كتب يقول: « إنه ما من بلد حي إلا وشبَّت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغة السادة المقدسة، وإقرار لغة الشعب العامية، أو الدارجة، أو المنحطة.. أما في مصر فقد ثار كثيرون على اللغة المقدسة، بعضهم داخل النطاق النظري كلطفي السيد، وبعضهم بصورةٍ عمليةٍ، كبيرم التونسي، شاعر مصر الأول!!.. ولكن

ثورتهم لم تكن بالثورة الفعالة؛ لأن العبيد لم ينضجوا بعد لتحطيم أغلالهم.. ورغم ذلك فنحن ننحني لهم، ولسوف ينجبون العمالقة في مستقبل الأيام »!!..

فلما جاءت الستينات - حقبة المد القومي العربي الذي فتح الطريق أمام الخيار الإسلامي - أدرك الدكتور لويس - ومن يتفق معهم في التوجه الفكري - أن جدية المخاطر على « الخيار التغريبي » تحتاج إلى « الثورة الفعالة » التي يقوم بها « العمالقة »؛ لتحطيم اللغة العربية، فإذا بالرجل -رغم قلة بضاعته في العربية وعلومها - يكتب في حقبة الستينات كتابه: « مقدمة في فقه اللغة العربية »، الذي لم ير النور إلا في سنة (١٩٨٠م)!..

وكما أراد بدراسته (على هامش الغفران) أن ينزع من الأمة « سلاح الثقة بالتراث »، فلقد أراد بكتابه « مقدمة في فقه اللغة العربية » أن ينزع من الأمة « سلاح الثقة في اللغة التي كتب بها هذا التراث »!.. فتراثها غير أصيل.. وكذلك لغتها.. ففيم - إذن - الحديث عن المشروع الحضاري الخاص إذا كان ما لديكم - إنْ في الشكل أو المضمون - هو أثر من آثار الغرب؟!، ولماذا - إذن - مقاومة « الخيار التغريبي »، وهو - كما ترون - « الخيار الوحيد »، فليس لديكم - في الحقيقة - بديل؟!..

فلما انتقل عبد الناصر - قائد المشروع القومي العربي، ورمزه -

إلى رحاب ربه سنة (١٩٧٠م) ظن أعداء هذا المشروع أن الفرصة قد سنحت - خصوصًا في ظلال آثار هزيمة سنة (١٩٦٧م) - للإجهاز على « بقايا » هذا المشروع... وهنا كان للدكتور لويس عوض دور يؤديه!!..

فالرجل قد أسهم في إهالة التراب على « الناصرية » بكتابه « أقنعة الناصرية »، الذي استهل به نشاطه الموصول - على هذا الدرب - في حقبة السبعينات...

فلما كانت زيارة الرئيس السادات للقدس سنة (١٩٧٧م) وخرجت من جحورها تلك الأصوات التي دعت إلى عزلة مصر عن محيطها العربي وعالمها الإسلامي، وإلى استبدال « التطبيع » مع الكيان الصهيوني - « المتحضر »؛ لأنه غربي!! - استبدال « التطبيع » معه بالرباط الذي يشد مصر إلى العروبة والإسلام؛ لأنه - كما كتب أحدهم يومئذ -: « عدو عاقل خير من صديق جاهل »!!.. لما كان ذلك « المنعطف » الذي دفع المنطقة بأسرها إلى « منحدرٍ » نشهد اليوم مخاطره وآثاره، تقدم الدكتور لويس عوض لينهض بنصيبه في الإجهاز على « بقايا » المشروع القومي العربي.. فكان إسهامه في الهجوم على « عروبة مصر » بمقالاته في (الأهرام) - (٧/ ٤، ٢٠/ ٤، ١١/ ٥) سنة (١٩٧٨م) - وفي (السياسة الدولية) - أكتوبر سنة (١٩٧٨م) - تلك المقالات التي رمى فيها العروبة والقومية العربي بكل نقيصة.. من مثل:

أنها « عرقية »، و« عنصرية »، و« فاشية »، ولا تعدو أن تكون « أسطورة من الأساطير »!!..

لكن بال الدكتور لويس عوض لم يهنأ بما لاح يومئذ من هزيمة للمشروع القومي العربي.. ذلك أن مظاهر هذه الهزيمة - والاستفزاز الذي جسدته دعوات الدكتور لويس ومن يتفق معهم في التوجه - قد استنفرت الحس الإسلامي إلى درجة « الغضب »!، فانتشرت مظاهر « الصحوة الإسلامية » - رغم شوائب تشوب بعض فصائلها - وغدت الدعوة إلى الإحياء الإسلامي - وتأسيس المشروع الحضاري الخاص على أسس « التمدن الإسلامي » - غدت هذه الدعوة أبرز ظواهر العصر وأخطرها، فهي - موضوعيًّا، وعند الذين يعون حقيقتها - تحتضن كل إيجابيات المشروع القومي العربي، ثم تمد نطاقه إلى كل بلاد الإسلام وشعوبه، فتشمل الشرق المستضعف بأسره، وتسعى جاهدةً للتمايز الحضاري عن حضارة الغرب المادية العدوانية..

لم يهنأ بال أعداء هذه الأمة - بما حسبوه تراجعًا « للخطر الناصري » -؛ لأن عدوهم الأول والأساسي - وهو « الخطر الإسلامي » - قد استقطب الشارع الإسلامي، ثم بدت نذره الأولى في ثورة إيران سنة (١٩٧٩م).

وبينما كانت دوائر الاستشراق ومراكز البحث التي « تشير » على صانع القرار في بلاد الحضارة الغربية تسعى -

محمومةً - لجمع المعلومات عن المد الإسلامي وفصائله، وعن موقفه من الغرب ومصالحه، وعن الآفاق المستقبلية التي يمد إليها البصر والبصيرة... انطلقت من هذه الدوائر حملة منظمة، ومدروسة، ومتواصلة الجهود، ومتعددة الصور؛ لتشويه هذا المد الإسلامي - من الخارج ومن الداخل - بواسطة السهام التي توجه إليه، وعن طريق الشراك التي تصيد بعض رموزه!!..

لقد عقدت لهذه « المهمة التاريخية » ندوات، ومؤتمرات، وحلقات بحث.. وكتبت الكثير من التقارير، ونشرت كتب عديدة، ولا زال العمل قائمًا على قدمٍ وساق في هذا المضمار، ولقد كان للدكتور لويس عوض نصيبه الذي أُعِدَّ له في هذا النشاط!.. فقصة « الإحياء الإسلامي »، و« الجامعة الإسلامية »، و« المشروع الحضاري الخاص المؤسس على التمدن الإسلامي »، هذه القصة التي تقض أحداثها الراهنة مضاجع الغرب الاستعماري هذه الأيام قد بدأها منذ قرابة القرن والنصف رجل اسمه جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، فليكن نصيب الدكتور لويس عوض في الحرب ضد هذه « الظاهرة » تشويه سيرة الرجل الذي بدأ هذه المسيرة التي تهدد حلم الغرب بالسيادة الأبدية - عن طريق الفكر - على وطن العروبة وعالم الإسلام!!..

أما كيف تم ذلك؟.. فلقد جمعت جامعة « لوس أنجليس »

الأمريكية للدكتور لويس عوض أوراقًا - سماها « وثائق » - أغلبها « تقارير » جواسيس ومخبرين رسميين، كانوا يعملون لحساب الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي!، وبعضها « ملفات » أنشأتها أجهزة المباحث في إنجلترا وفرنسا لتجمع فيها المعلومات عن عدو الاستعمار جمال الدين الأفغاني!، وبعضها كتب - استندت إلى هذه « التقارير » و« الملفات » - كتبها صهاينة، ومستشرقون من أشباه الصهاينة - ممن تجمعهم مشاعر ومصالح العداء للمد الإسلامي و« الخيار الإسلامي » - ثم نشروها ما بين لندن، وباريس، وتل أبيب...، لقد لملمت جامعة « لوس أنجليس » هذه « التقارير » و« الملفات » المباحثية، وكذلك الكتب التي استندت إليها - لكتَّاب من أمثال: « جاكوب - (يعقوب) - لاندو »، و« إيلي كدوري»، و« هوما باكدامان »، و« نيكي كيدي »، و« ألبرت قدسي زاده ».. إلخ، ثم دعت هذه الجامعة الدكتور لويس عوض، ووضعت بين يديه هذه الأوراق، فلما فتح الرجل هذه « الملفات » خيل إليه أنه « فاتح » حقًّا!! فكتب لنا عن جمال الدين الأفغاني « دراسةً » بلغت صفحاتها - على الآلة الكاتبة - مائتين وثلاثين صفحة، فرغ منها - كما أخبرنا في ختامها - « بلوس أنجليس » في ٦ يناير سنة (١٩٧٥م)..!

وعندما تعذر نشر هذه « الدراسة » بمصر نشرها الدكتور لويس في لندن!!.. وجعل عنوانها: « الإيراني الغامض في مصر »!!.. - نشرتها مجلة (التضامن) في سبعة عشر عددًا -.

لقد قال الدكتور لويس عوض في « دراسته » هذه: إنه – ومعه الجواسيس وكتّاب الاستشراق الصهاينة الذين استند إلى أوراقهم – إنما يفتحون « ملف » جمال الدين الأفغاني من جديد!...

ولم يدر الرجل أن « فتحه » و« فتوحات » الذين عمل معهم ولهم، لم يكن إلا « فتحًا » لملفات « المباحث »، و« دوائر الأمن والاستخبارات » في أجهزة الحكومات الاستعمارية!!..

أما كيف كان ذلك؟.. ولماذا كان؟.. فهو موضوع الحديث بعد هذا « التمهيد »!.. نعم إنه مجرد « تمهيد » عن (قصة المخطط.. وأبعاده.. ومراميه)!.

***



الدوافع.. والمنطلقات

لكن... لماذا اختار الدكتور لويس عوض معسكر المناوئين للعروبة القومية والسياسية، وللإحياء الإسلامي، وصبغ المشروع الحضاري المأمول بالصبغة الإسلامية، وتأسيسه على قواعد التمدن الإسلامي؟

إن البعض يقطع بأن مرجع ذلك هو « تعصبه للمسيحية » ضد « الإسلام »! لكني لست مع هذا البعض في هذا التفسير؟!

إنه تفسير سهل ميسور، وقد تكون عليه بعض الشواهد والقرائن – بل والحيثيات – ثم إنه نهائي وقاطع، يريح الذين يختارونه من عناء الحوار مع الأفكار التي يطرحها الدكتور لويس، وليس هذا في رأيي هو المطلوب!

إن المطلوب ليس هو « إدانة » من نختلف معهم في الرأي، ولا تصنيفهم بوضعهم في « الخانات » الجاهزة التقليدية، وإنما المطلوب هو إقامة أوسع دائرة من الحوار مع الأفكار التي يطرحونها، حتى ولو كان إقناعهم أمرًا بعيد الحدوث، أو مستحيله – كما يرى البعض في « حالة » الدكتور لويس! –..

فالحوار مطلوب - أساسًا - من أجل القراء الذين يقتنع فريق منهم بما يطرح الدكتور لويس من آراء!

ثم إن الدكتور لويس ليس أول من شهر حربًا ظالمة ضد جمال الدين الأفغاني، فلقد تعرض الأفغاني لسهام الخصوم منذ بدأ الدعوة إلى إيقاظ الشرق وتجديد « دنياه » بواسطة تجديد « الدين »، ولقد ضم موكب الخصوم هذا أغلبية من المسلمين وقليلًا من غير المسلمين!! بل لقد يدهش البعض إذا علم أن التيار « السلفي - النصوصي » وجميع أسرى الشعوذة والخرافة، وخصوم « العقلانية » - في صفوف الإسلاميين - يناصبون جمال الدين ودعوته عداءً لا يقل عن عداء الدكتور لويس - رغم اختلاف المنطلقات، وتباين الغايات! - وفي حدود علمي فإن هناك رسالة جامعية أجيزت في الستينات من هذا القرن تدين الأفغاني بالعمالة للاستعمار، ليس « الاستعمار العثماني » كما هو اتهام الدكتور لويس للأفغاني، وإنما الاستعمار الغربي - الذي يتهم صاحب الرسالة الأفغاني بالعمالة له؛ لأنه - في رأيه - هو الذي قوَّض دعائم الدولة العثمانية بدعوته إلى التجديد!!

ثم إن كلَّ « العلمانيين » - ومنهم مسلمون يؤدون شعائر الإسلام بإخلاصٍ وفي خشوع - يقفون من دعوة الأفغاني إلى تأسيس التمدن الحديث على أسسٍ إسلامية موقف الرفض أو العداء! وكذلك يفعل « الإقليميون » الذين يريدون

لمصر أن تقف بهمومها واهتماماتها عند حدودها الجغرافية الوطنية كإقليم!

فليس الدكتور لويس عوض بدعًا في عدائه لما دعا إليه الأفغاني من آراء، ومن ثمَّ فالحوار ضروري ومطلوب، حتى ولو كان إقناع الدكتور لويس هو ضرب من ضروب المستحيل!

وحتى نتبين ونحدد القضايا التي يجب أن يدور حولها الحوار لا بد من الوعي بحقيقة الدوافع والمنطلقات التي حركت الآخرين إلى تبني الآراء والأفكار التي نرفضها ونتناولها بالتوضيح، والنقد، والتفنيد... ومن هنا تأتي أهمية استكشاف دوافع الدكتور لويس للهجوم على استقلالية الأمة العربية بمشروع حضاري متميز عن الحضارة الغربية، وعدائه لصبغ هذا المشروع الحضاري المستقل بصبغة الإسلام.

وكما سبقت الإشارة فأنا لست مع الذين يجعلون تدين الدكتور لويس بالمسيحية السبب الأول في خياره الفكري هذا.. فالرجل - كما يعرف القريبون منه، والمتابعون لأحاديثه وكتاباته - ليس - من الناحية الروحية - الابن البار للمسيحية ولا للكنيسة القبطية، بل إن آراءه في المسيح والمسيحية تجعله موضع غضب المسيحيين المتدينين!.. وفي صحيفة (الأخبار) - بتاريخ (٢١/ ٩/ ١٩٨٣م) - كتب كاتب فاضل من الأصدقاء المسيحيين - بل وممن يتعاطفون مع كثير من آراء الدكتور لويس - كتب عن رأي الدكتور

لويس في المسيح ﷺ فإذا هو رأي أُدخل في نطاق الهرطقة والسباب، وأبعد ما يكون عن التدين بالمسيحية كما يعرفها المسيحيون المتدينون!

ثم.. مَنْ مِنَ المسيحيين يطمئن قلبه لما كتبه الدكتور لويس في « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني – عن المسيحية – وقوله: « إن الشيوعية هي أقرب التخريجات إلى روح المسيحية »[1]؟!

بل كيف يكون « التدين » بالمسيحية هو دافع الدكتور لويس ومنطلقه؟ ونحن نراه يفضل « الإسلام » على « المسيحية » فيقول – عند حديثه عن أن « أديان التوحيد الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام – تنتمي – في كل تحليل نهائي – إلى ينبوع ميتافيزيقي واحد ينبثق من مبدأ ازدواج الفكر والمادة، وأسبقية الفكر على المادة في الزمان والمكان، وكلية الفكر وجزئية المادة في سائر الصفات والأسماء والأفعال...».

يقول الدكتور لويس – مفضلًا « الإسلام » على « المسيحية »–: « ولا شك أن روح الإسلام أقرب إلى الهيومانزم – (الإنسانية) – والعقلانية من روح المسيحية ذات الازدواج التام والأسرار الكثيرة؛ لأن اللّـه في الإسلام لا يجور تمامًا على مكان الإنسان، ولأن الروح في الإسلام لا تسحق المادة

---

(١) (ص ١٨٣) من أصل « الدراسة » وقد رجعنا إلى أصل الدراسة، كما رجعنا إلى حلقاتها المنشورة في مجلة (التضامن).

سحقًا ذريعًا، ولأن الآخرة في الإسلام - رغم أنها خير من الأولى - لا تلغيها تمامًا من الوجود، كما هو الحال في المسيحية.. »[١]!

والأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا النص الهام يرضي المتدينين بالإسلام بالقدر الذي يغضب المتدينين بالمسيحية؟!.. الأمر الذي يؤكد أن الدكتور لويس - من الناحية الروحية - ليس الابن البار للمسيحية وكنيستها!!

كذلك ليس التعصب « للقبطية » المسيحية - بالمعنى الروحي - هو دافع الدكتور لويس إلى العداء لأسلمة المشروع الحضاري للأمة.. فالقبطية - عند الرجل - « عنصر » أكثر منها « دينًا »، وهي عنده تساوي « المصرية » إذا جردت من العروبة القومية والسياسية، بل والثقافية - إذا أمكن ذلك!! - وإذا هي جردت كذلك من الإسلام السياسي والحضاري، إن الدكتور لويس ليس ضد أن تتدين أغلبية الشعب في مصر بديانة الإسلام، ولكنه ضد صبغ الحضارة في مصر بصبغة الإسلام، ومن هنا فإن عداءه ليس موجهًا إلى « الدين التقليدي » القابع في المساجد والزوايا والتكايا، ولكنه موجه ضد « التجديد الديني »، الذي يجعل الإسلام دينًا وحضارةً، عقيدةً وقانونًا.. ومن هنا كانت سهامه موجهةً إلى رائد التجديد الديني في عصرنا الحديث: جمال الدين

---

(١) (ص ١٨٣) من أصل « الدراسة ».

الأفغاني، وليست موجهة إلى رموز الجمود في الدولة العثمانية، بل لقد اتفق الرجل مع مشيخة الإسلام العثمانية - وهي القمة في الجمود والتخلف - وتبنى دعاواها واتهاماتها لجمال الدين الأفغاني!!

وإلى الذين يتطلعون إلى مزيد من « الوقائع » الشاهدة على صدق هذه الحقيقة أقول:

● لقد تحدث إليَّ الدكتور لويس - منذ سنوات - بمكتبه بـ (الأهرام)، في معرض التقويم لما قدمته للمكتبة العربية والإسلامية من أعمالٍ فكريةٍ في إطار: « تجديد دنيا المسلمين بتجديد فكرهم الديني »، تحدث إليَّ حديثًا فيه الكثير من الثناء والتقدير.. لكن عباراتٍ من حديثه أثارت فيَّ من الانتباه ما لم تثره عبارات الثناء والتقدير، لقد قال لي:

« إن جهودك عظيمة.. لكنها خطرة، وضارة »!!

فلما أبديت تعجبي ودهشتي، وطلبت المزيد من الإيضاح.. قال الرجل: « إن تجديد الدين يحييه، ويطيل عمره، أما تركه في صورته التقليدية التي هو عليها عند المؤسسات المحافظة فهو الذي سيعجل بموته، وهذا هو المطلوب.. »!!!

فعداء الرجل هو « للتجديد الديني » - (وليت أهل الجمود يفقهون ويعون!) - ومن هنا كان تعاطفه - في « دراسته » عن الأفغاني - مع رموز الرجعية العثمانية ضد جمال الدين: رائد التجديد!

● وإذا كان الأزهر قد غلبت على بعض من قياداته « الفكرية المحافظة »، وإذا كانت « السلطة العلمانية » قد استأنست بعضًا من قياداته بالترغيب أو الترهيب، فنهض بمهمة الحفاظ على الشريعة والعربية وعلومهما دون أن يقود الحركة التجديدية التي تمتد بالإسلام إلى صبغ الدولة والتمدن بالصبغة الإسلامية، إذا كان الأزهر في مجمله « محافِظًا » فإنه - لذلك - ليس موضع سخط الدكتور لويس، أما موضع سخطه فهو « دار العلوم » تلك التي علق عليها محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) آمالًا في لحظات يأسه من تجديد الأزهر.. فهي - بما استهدف منشئوها من ورائها - الجامعة بين « الأصالة الإسلامية » وبين « المعاصرة »، والمؤسسة « للمعاصرة » على قواعد الإسلام.. أو هكذا كان الهدف من وراء إنشائها، وفي ذهن كوكبةٍ من الأعلام الذين خرجوا منها يقودون حركة تجديد دنيا المسلمين بتجديد دينهم!

- وعن « دار العلوم » هذه يعد الدكتور لويس دراسة يوجه فيها إليها السهام، كما صنع مع جمال الدين الأفغاني!

● ورغم ما كتبه الدكتور لويس عن الإمام محمد عبده من إشاراتٍ تحمل له التقدير، من مثل قوله في إحدى دراساته بـ (الأهرام) منذ سنوات: « إنه أعظم من تكونت من حوله مدرسة في الفكر المصري الحديث » - (لاحظ كلمة

المصري.. وليس العربي، ولا الإسلامي!!) -، رغم هذا التقدير المعلن من الدكتور لويس لمحمد عبده - وهو من أبرز رموز التجديد الديني الحديث - إلا أن عداء الدكتور لويس لتجديد محمد عبده هو أمر كامن ومكنون!.. ففي لحظةٍ من اللحظات التي تفك فيها « عقد الألسنة » دفعت « النشوة » الدكتور لويس ليصف محمد عبده بأنه « راسبوتين »!.. سمعت ذلك منه، وسمعه معي إخوة وأصدقاء - كان منهم الأستاذ سيد ياسين - في فلورنسا بإيطاليا، وكنا نشارك في ندوةٍ فكريةٍ في السنوات الأولى من عقد السبعينات!.. وفي ذات الجلسة وصف الدكتور لويس الأفغاني بأنه « جاسوس »، وتساءل: ما الذي جاء به إلى « بلادنا »؟!

فعداء الرجل ليس للإسلام كدين.. وسهامه ليست موجهة إلى الدوائر أو المؤسسات الإسلامية المحافظة؛ لأن وجود الإسلام الشعائري والمؤسسات الإسلامية التي تدع ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه، لا يقض مضاجع الدكتور لويس، أما تيار التجديد الديني الذي يحيي فعاليات الإسلام، والذي يمتد بصبغته إلى شؤون الدنيا وقضايا العمران والحضارة، فهو العدو اللدود للدكتور لويس!

ذلك أن الدكتور لويس عوض وإن لم يكن الابن البار روحيًّا للمسيحية وكنيستها القبطية، إلا أنه الابن البار

للحضارة الغربية وعلمانيتها، والإسلام السياسي والحضاري هو النقيض الذي يسعى - بالتجديد - ليكون البديل - في بلاد الإسلام - للحضارة الغربية التي جاءت إلى هذه البلاد في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. والرجل الذي بدأ التصدي لحركة التغريب، ودافع عن الهوية الحضارية المتميزة للأمة، ودعا إلى تأسيس التمدن الحديث على أسسٍ إسلاميةٍ، وقاد تيار اليقظة الإسلامية في مواجهة الغزوة الاستعمارية وفكريتها، هذا الرجل هو جمال الدين الأفغاني، ومن هنا كانت سهام التغريب موجهةً إليه وإلى ما بشر به من آراءٍ وأفكار..

فالتناقض ليس بين « لويس - المسيحي »، وبين « الإسلام - التقليدي »، وإنما هو بين « لويس - الإقليمي - العلماني »، وبين « المشروع الحضاري الخاص » لهذه الأمة، ذلك المشروع الذي ينهض فيه الإسلام السياسي والحضاري بدور المحور.. والذي تمتد آفاقه - عبر العروبة - إلى كل عالم الإسلام، والدكتور لويس لم يكتب « دراسته » الظالمة لجمال الدين الأفغاني ليواجه بها ويجرح الثورة الإيرانية - كما حسب بعض الفضلاء الذين انتقدوا « دراسته » -؛ لأن هذه « الدراسة » قد كتبت لمواجهة « الصحوة الإسلامية » بتشويه رائدها وأبرز رموزها في عصرنا الحديث، وهي قد كتبت قبل قيام الثورة الإيرانية بخمس سنوات.. أما توقيت

النشر لها، وتوظيفه في الإساءة إلى الثورة الإيرانية فذلك أمر آخر!

عندما زحف الاستعمار الغربي على وطن العروبة وعالم الإسلام - في القرن التاسع عشر - كانت غزوته الحديثة هذه أكثر من جيوش تحتل الأرض، وشركات تنهب الثروة، ذلك أن « فكرية التغريب » قد جاءت إلى بلادنا في ركاب هذه الغزوة الاستعمارية.

وكان التخلف المملوكي - العثماني - الذي ساد بلادنا لعدة قرون - قد حجب فعالية الإسلام الحضاري وتألق الحضارة الإسلامية عن الأنظار، فكان الطافي على السطح من مواريثنا مثقلًا بالشعوذة، والخرافة، والجمود.. وهذا هو الذي أفقد هذا « الموروث المتخلف » جدارة المقارنة، والمقارعة، والمنافسة، لفكرية « التغريب » التي مثلت زهوة الانتصار للحضارة الأوربية الحديثة، فكان ذلك هو المناخ والسبب في انحياز « الصفوة والنخبة » إلى فكرية « التغريب »، واختيارها « الخيار الغربي الحضاري » سبيلًا لنهضة الأمة، بل وسلاحًا تتصدى به للاستعمار الغربي.

أما مؤسسات التعليم التقليدية فلقد جمد جمهورها عند هذا « الموروث المتخلف »، وزاد من جمودهم الإحساس بالمخاطر التي يمثلها « الوافد الغربي » على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية.

- هكذا حدث الاستقطاب بين الذين سلكوا للتقدم سبيل

الغرب، وبين الذين جمدوا عند فكرية موروث عصر المماليك والعثمانيين.

- ولقد تمثلت عبقرية جمال الدين الأفغاني - أول ما تمثلت - في رفضه لكلا الخيارين اللذين استقطبا مثقفي الأمة وجمهورها، وفي ارتياده واختياره الطريق الثالث والموقف الثالث الممثل لوسطية الإسلام، والساعي لبلورة البديل الحضاري الإسلامي القادر على منافسة فكرية « التغريب »، والمتجاوز - في ذات الوقت - للتخلف الموروث.

لقد كان الجمود عقبة في طريق « التغريب »، وكانت تلك إيجابيته العظمى!!، لكن عجز الجمود وأهله عن تقديم البديل الحضاري الذي يستجيب لروح العصر، وينهض بمواجهة تحدياته، كان بمثابة الثغرة التي تفتح السبيل - بل السبل - في جدار الأمة؛ لينفذ منها « التغريب » في بطء، ولكن باستمرار!!.. فلما جاء تيار التجديد الديني الذي تبلور من حول جمال الدين الأفغاني شعرت الدوائر الاستشراقية و« المتغربون » بخطره الأكبر؛ لأنه ينزع عن « التغريب » الجدوى والمشروعية، ويقدم البديل الإسلامي الضامن لتقدم الأمة دون أن تنفصل عن مواريثها الحضارية ودون أن تفقد ذاتيتها وهويتها، جاء الأفغاني - وتياره - ليرفض الجمود، والعلمانية، وأن نكون أوربيين في الحضارة، وأن نقف في فهمنا للقومية عند الفهم العلماني الغربي لها، ودعا إلى

« الجامعة الإسلامية »، وإلى تأسيس النهضة الحديثة على قواعد « التمدن الإسلامي »، وإلى تجديد الدين كسبيل لتجديد الدنيا.

- وكان هذا المشروع هو التحدي الحقيقي لفكرية « التغريب » التي رامت عزل أمتنا عن تراثها الحضاري لتبدأ من حيث انتهى الأوربيون، كما رامت - بالعلمانية - نزع الصبغة الإسلامية عن مؤسسات الدولة وشؤون الإنسان في حياته الدنيا.

وهذا هو جذر الخلاف وسبب العداء بين دعوة جمال الدين الأفغاني، وبين دعاة الإقليمية والعزلة والتشرذم، وأنصار العلمانية الذين يريدون لبلادنا أن تصبح - في الحضارة - قطعةً من أوربا، أو - إن شئت الدقة - هامشًا حضاريًا لأوربا.. والدكتور لويس عوض واحد من هؤلاء!!

إنه - باختصارٍ شديدٍ، وبدقةٍ - الخلاف الجذري بين الدعوة إلى « الاستقلال الحضاري »، والدعوة إلى « التبعية الحضارية »!!

ونحن إذا شئنا الأدلة على أن هذا هو جوهر الخلاف وجدنا الكثير منها في كلام الدكتور لويس، وفي فكر جمال الدين.

• ففي رأي الدكتور لويس أن « نقطة الضعف » عند الأفغاني متمثلة في رفضه « فكر » الحضارة الأوربية و« قيمها »،

على حين يقبل « علمها » وتطبيقات هذا العلم « التكنولوجيا »، على حين يدعو الدكتور لويس إلى تبني الحضارة الأوربية ككل، إنه رافض للاختيار وللتمييز بين ما يلائم أمتنا وما لا يلائمها؛ لأن الشرق - عنده - ليس مقولةً حضاريةً متميزةً، وإنما هو فراغ حضاري يجب أن يمتلئ بحضارة الأوربيين.. يقول: « إن نقطة الضعف في دعوة الأفغاني قيامها على تفتيت وحدة الحضارة، والفصل بين العلم والفكر، وبين التكنولوجيا والقيم، واعتبار الشرق مقولة حضارية مكتفية بذاتها »[1]، وفي مكانٍ آخر يقول: « إن الأفغاني قد ناصر العلم والعقل، وبيَّن في كل مكان أن الدين الإسلامي لا يتعارض مع العلم، بل على العكس من ذلك يحض عليه حضًّا، ولكن الأفغاني يفتت الحضارة الحديثة إلى شطرين؛ هما: وجهها المادي - أي العلم والتكنولوجيا -، ووجهها الروحي - أي الفكر والقيم - وهما عنده غير مترابطين، وبالتالي فالفكر والقيم من عندنا، والعلم والتكنولوجيا من عندهم »[2].

ونحن نقول: إذا كانت هذه « تهمة » فإن الأفغاني يشرف بها، وهي ليست « نقطة الضعف » في دعوته، بل هي « الجوهر العبقري » في هذه الدعوة الإسلامية!.. فقط نسأل:

---

(١) مجلة « التضامن » العدد ١٦ (ص ٦٧).

(٢) أصل « الدراسة » (ص ١٨٢).

١- هل هناك - حقًا - وحدة في الحضارة على نطاق العالم؟ ومن الذي ينكر التمايز الحضاري لدى أمم عريقة كالهند، والصين، واليابان، ومثل ذلك الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية؟.. إن « التمايز » الحضاري هو نوع من « المغايرة »، وهو مختلف عن « العداء » وعن « الانغلاق » الحضاري، فالتمايز الحضاري - على النطاق العالمي - وفي عصرنا الراهن حقيقة موضوعية، لا ينكرها إلا غلاة المتعصبين للحضارة الأوربية - من أهلها - الذين أرادوا لها أن تمارس مع الحضارات الأخرى - في عصر المد الاستعماري الأوربي - ما مارسه المستوطنون والمهاجرون الأوربيون مع الهنود الحمر.. المسخ، والتشويه، والاقتلاع، والنسخ، والإجلاء! وما الزاعمون - في صفوفنا - أن الحضارة الأوربية هي حضارة العصر الوحيدة، والحضارة العالمية المفردة إلا « أتباع » لهؤلاء الغلاة!

٢ - وأليست دعوة الأفغاني إلى الاستفادة من « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » مع الحفاظ على ما تتميز به حضارتنا وشخصيتنا القومية من « فكرٍ » و« قيم ».. أليست هذه الدعوة هي « القانون » الذي حكم « التفاعل والتلاقح » بين الحضارات الكبرى عبر التاريخ الحضاري للإنسان؟!

ماذا صنعت اليابان إبان نهضتها؟ لقد أخذت « علوم » الغرب و« تطبيقاتها »، واحتفظت « بفكرها » و« قيمها »، ولا زالت تصنع ذلك حتى الآن!

وماذا صنع العرب والمسلمون عندما انفتحوا على حضارات اليونان والفرس والهنود؟ لقد ميزوا بين ما يمكن « تمثله » دون أن يطمس « الثوابت » الحضارية التي تتميز بها الأمة، وبين ما تختص به تلك الأمم من « قيمٍ » و« مُثلٍ » غير مقبولة في المناخ العربي الإسلامي.. لقد أخذوا « العلوم » و« تطبيقاتها »، ورفضوا « الميثولوجيا »، و« القيم »، و« العقائد ».. وحتى الفلسفة التي ترجموها نراهم قد « قرأوها قراءةً إسلاميةً »، وأضافوا إليها نقدًا وخلقًا وإبداعًا، جعلها « فلسفةً إسلاميةً » إلى حدٍّ كبيرٍ، على حين ظل « علم الكلام » هو الفلسفة الحقة لحضارة الإسلام!

بل ماذا صنعت أوربا - وهي تسعى للنهضة - حين تعاملت مع حضارتنا العربية الإسلامية؟ لقد أخذت من حضارتنا « العلوم » و« تطبيقاتها »، وأخذت « المنهج التجريبي »، ثم رفضت « الفكر »، و« القيم » فلم نجد « للتوحيد » ولا « للوسطية »، ولا « للروح المؤمنة » أثرًا في حضارتها الحديثة التي ظلت ذات طابع مادي كما كانت منذ جاهلية اليونان!

- إن الأوربيين عندما تعاملوا مع ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ - ١١٩٨م) أخذوا منه بضاعتهم - أرسطو - فقط، أما ابن رشد « المتكلم »، و« الفقيه »، وصاحب « التوحيد الإسلامي » و« القيم الإسلامية » فهو

الذي صدرت ضده قرارات التجريم والتحريم، لقد أخذوا منه « عقلانية أرسطو اليونانية » التي لا تقيم وزنًا للوحي والنقل والمأثورات، على حين رفضوا « عقلانيته الإسلامية » التي آخت ما بين « الحكمة » و« الشريعة »، ووفقت ما بين « العقل » و« النقل »، حتى تدينت بها فلسفتنا، وتفلسف بها الدين في حضارتنا العربية الإسلامية!

- فالتمييز بين ما يؤخذ وما يترك، بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم، بين ما « تتمثله » الشخصية الحضارية فتقوى به وتتدعم ذاتيتها وبين ما هو خطر على هذه الذاتية؛ لأنه قوة طامسة لمعالمها، مشوهة لإيجابياتها... إن هذا التمييز هو « القانون » الذي حكم « تفاعل » الحضارات العظمى و« تلاقحها » عبر التاريخ... والأفغاني عندما دعا إلى إعمال هذا « القانون » إنما كان يتخذ الموقف الواعي والناضج بين موقفين كلاهما خاطئ.. موقف أهل الجمود الذين عكفوا على « التخلف الموروث » رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق.. وموقف دعاة « التغريب » الذين أسلموا عقلهم كله للحضارة الأوربية، وكأنما هم « لقطاء »، بلا ميراث حضاري، ولا سمات حضارية تستوجب أن يكون التفاعل والأخذ والعطاء من موقف الراشد وموقع الاستقلال!

٣ - وأخيرًا.. فهل قال الأفغاني - كما زعم الدكتور لويس -: إن « الشرق مقولة حضارية مكتفية بذاتها »؟!

إن الرجل لم يقل بذلك.. وعبارات الدكتور لويس تشهد على ما نقول... فالذين يقولون: إن حضارتنا « مكتفية بذاتها » هم أهل الجمود الذين يرفضون التفاعل والاستفادة من الحضارات الأخرى بإطلاق، والدكتور لويس يقول عن الأفغاني: إنه دعا إلى أخذ « علوم » الغرب و« تطبيقاتها »، فكيف إذن يكون من القائلين: إن « حضارة الشرق مكتفية بذاتها »؟!

لقد أجاد الدكتور لويس تلخيص موقف الأفغاني في هذه القضية عندما قال: « إن الحل عند الأفغاني هو الحل الوسط، أن يرتبط الإنسان بتراثه القومي وبثقافته القومية، وأن ينفتح - في الوقت نفسه - لما هو نافع في تراث الغير وثقافته..»[١].

- لكن هذا الموقف الوسط لا يعجب الدكتور لويس.. فهو لا يدري كيف نميز - في تراثنا القومي وثقافتنا القومية - النافع من الضار؟ ومن الذي يحدد لنا - في مواريث الآخرين - ما نأخذ؟ وما ندع؟!

ونحن نقول له: إن الأمم الساعية إلى النهضة - بعد ضعفٍ وركودٍ - تحتفظ من مواريثها « بالثوابت » التي هي بمثابة « البصمة » المميزة لها - حضاريًا - بين الأمم ذات الحضارات، وتحتفظ بالمناهج والقيم والعقائد التي جربت

---

(١) التضامن، العدد ١٦ (ص ٦٩).

في تاريخها الحضاري، فكانت عوامل نهضة وقوة وازدهارٍ، ثم.. هل هناك صعوبة حقًّا في التمييز، وفي الاختيار - مثلًا - بين: « العقلانية الإسلامية »، و« الشعوذة والخرافة »، أو « الجمود عند ظواهر النصوص »؟!

أو أن نميز ونختار بين « الوسطية » و« التطرف » يمينًا كان أو يسارًا؟! أو أن نميز ونختار بين « موازنة الدين والدنيا »، و« الشره واللذة والنفعية »، أو« الزهد المفرط » الذي يجعلنا ندير الظهر للدنيا فنهمل عمرانها؟!

وكذلك الحال في التمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو ضار وغير ملائم في حضارات الآخرين.. فأية صعوبة من أن نميز بين مصادر القوة ومصادر الضعف في الحضارات الأخرى؟! لا أعتقد أن الصعوبة قائمة على النحو الذي يصورها الدكتور لويس، طالما كان هناك « ولاء » حقيقي للتراث القومي والثقافة القومية.. أما إذا انعدم هذا « الولاء » أو ضعف فإن إغراء « التبعية الحضارية » - بالبدء من حيث انتهى الآخرون - سيكون له سلطان شديد.. إذ ما الذي يغري « اللقيط » بمعاناة البحث والتنقيب في « غابة الأنساب »؟!!

ثم.. لنسأل الدكتور لويس: إنك تعترف بأن الغرب قد طوع المسيحية لطابع حضارته المتميز، ولواقعه الاجتماعي الخاص، حتى لقد « ابتعد عن عبادة اللّـه وتوغل في عبادة

الإنسان، ولم يبق له من المسيحية إلا دمن وأطلال »[١]!..

فإذا كانت الحضارة الغربية ذات الطابع المادي والروح الإلحادي- منذ اليونان - قد أخذت ما يلائم طابعها وقيمها، وطوعت ما أخذت، حتى ولو كان دينًا، وحتى لو بلغ هذا « التطويع » حد التشويه للدين وإفقاده المضمون الجوهري والمحتوى الحقيقي، فكيف تنكر على حضارتنا العربية الإسلامية الحق في الاختيار والانتقاء والتمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو غير ذلك من حضارات الآخرين؟! إن ما رأيته « نقطة ضعف » في موقف الأفغاني من الحضارة الغربية هو بذاته « نقطة القوة » في موقفه ودعوته، فهي الفيصل بين الدعوة « للاستقلال الحضاري » والدعوة إلى « التبعية الحضارية ».

وليتك قد قرأت أعمال الأفغاني قراءة باحث عن الحقيقة!! إذن لوقفت طويلًا عند كلماته التي تقول عن ضرورة « تميزنا واستقلالنا » الحضاري:

« إن الظهور في مظهر القوة - لدفع الكوارث - إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، ولا ضرورة - في إيجاد المنعة - إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف

---

(١) أصل « الدراسة » (ص ١٨٣).

الغربي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرًا - (أي أذلها وصدعها) - وأعجزها وأعوزها، إن التمدن الغربي هو في الحقيقة: تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني، وتقليده جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين - من كل أمة - المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم؟!.

وإنَّا - معشر المسلمين - إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط؛ لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا، وبذلك تتحول صبغة الإسلام - التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب - إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي.. »؟![1].

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ١٩٥- ١٩٧، ٣٢٧، ٣٢٨، ٥٣٣) طبعة القاهرة سنة (١٩٦٧م).

- لو قرأ الدكتور لويس كلمات الأفغاني هذه بروح الباحث عن الحقيقة وتأملها في ضوء ما جرَّه علينا « التحديث على النمط الغربي » من « تبعية » في كل شيء « للمركز الغربي » لاختلف تقويمه لجمال الدين.

- لكن الغرض وسوء القصد والنية قد صرف الدكتور لويس عن رؤية الحقيقة، وعندما كان يرى طرفًا منها كان يجتهد للتشكيك فيه! فجاء « عمله » على هذا النحو الغريب، وصدق رسول اللَّـه ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... »!.

***



طريق الجواسيس..
لا طريق العلماء!!..

لقد ترددت - لبعض الوقت - في أن أكتب هذا « النقد » لـ « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغاني، وذلك على الرغم من طلب العديد من الصحف والمجلات إليَّ - بل وإلحاحها عليَّ إلى درجة « الاستنفار » - أن أكتب هذا « النقد ».. وعلى الرغم من إلحاح العديد من الأصدقاء، بل واستغراب بعضهم، وشك البعض في أن يكون ما بيني وبين الدكتور لويس من ودٍّ متبادلٍ مبعث حرج لي في أن أرد عن الأفغاني ما وجه إليه من افتراءات!

أما أسباب التردد فعديدة، أهمها:

١ - أنني - بالطبع والعادة - عزوف عن الجدل، ولست سبّاقًا إلى الخصومة واللجاج..

٢ - وفيما يتعلق بجمال الدين الأفغاني فلقد قدمت إلى المكتبة العربية والإسلامية عنه عدة أعمالٍ فكرية، غدت - والحمد للّه - مراجع للباحثين والقراء، منها: تحقيق أعماله، ودراسات عن حياته وفكره، الأمر الذي يجعل « الضمير »

مستريحًا حتى ولو لم أسهم في هذه « المعركة » التي أقامتها « دراسة » الدكتور لويس.

٣- ثم - وهذا هو السبب الأهم في التردد - إن « دراسة » الدكتور لويس قد بلغت في « الافتراء » إلى حد « الشذوذ »، الأمر الذي يجعلها « ساقطةً » بذاتها، فتهافتها ولا معقولية ما جاء بها من افتراء على جمال الدين الأفغاني يفقدها « التأثير السيئ » الذي قصد إليه الدكتور لويس؟!.

لكنني.. رغم وجاهة أسباب التردد هذه راجعت نفسي فبدت لي حقيقتان رجحتا كفة الكتابة على كفة التردد..

● فالدكتور لويس له جمهور من القراء نحترمه، ونحرص كلَّ الحرص على ألّا ندعه والأفكار المغلوطة التي تُلقى إليه.. ومن الأهمية بمكان إدارة الحوار الموضوعي والمنطقي حول القضايا الفكرية التي عرض لها الدكتور لويس؛ لأن جمهورًا ذا وزنٍ وتأثيرٍ في حركتنا الفكرية قد يتبنى - لثقته في الدكتور لويس - النتائج والمقولات التي انتهى إليها في « دراسته »، فالحرص على وصول الحقيقة إلى هذا الجمهور الذي أحترمه يجعل كتابة هذا « النقد » من أوجب الواجبات.

● ثم إن الدكتور لويس قد سلك في « دراسته » هذه طريقًا ملتويًا - ولا أريد أن أقول: « خبيثًا »! - في التعامل مع حقائق الموضوع.. لقد أهمل الحقائق التي لا تشهد « للغرض »

الذي سعى إليه، وعندما كانت تضطره طبيعة الأمور للإشارة إلى بعض الحقائق سرعان ما كان يعود لذكر نقيضها!! حتى لقد أكثر - إلى حدٍّ مثير - من وضع الحقيقة بين العوامل التي تشكك فيها؛ حتى يبلبل فكر القارئ! - وليس كل قارئ بمتخصص أو ناقد -، ومما ساعد « دراسته » هذه على أن تفعل هذا الفعل السيئ نشرها على « حلقات »، فهو ينقض في « حلقةٍ » ما أثبته في « حلقةٍ » أخرى، الأمر الذي يعطي الانطباع لا بتناقض الدكتور لويس، وإنما بتناقض أفكار الأفغاني ومواقفه إلى حد الغموض والريبة واللامعقول!

وعندما « تنجح » « دراسة » - بهذا الأسلوب - في أن تترك هذا الكم من « التشكيك » الذي بلغ ذروة « الافتراء » على « الفكر » و« النضال » الذي جسده جمال الدين الأفغاني بالنسبة للإحياء الإسلامي والاستقلال الحضاري - الذي هو طوق نجاة هذه الأمة مما يريد لها أعداؤها الكثيرون - فإن التصدي لهذه « الدراسة »، بالنقد وبالحوار الموضوعي يصبح واجبًا، بل من أوجب الواجبات!

● إن جمال الدين الأفغاني ليس مجرد « مفكر » ولا هو بـ« المناضل » العادي، لقد أصبح جزءًا كبيرًا وعزيزًا من ضمير هذه الأمة الإسلامية في عصرنا الحديث... تعيشه - ولا أقول « تذكره » - عندما تبحث عن ذاتيتها الحضارية المتميزة، وعندما تتصدى لأعدائها - مستعمرين كانوا

أو مستبدين - وتستلهمه عندما تبرز للعيان الضرورة والمصداقية للمقولة التي بشر بها: « إن تجديد دنيا المسلمين رهن بتجديد دينهم، ولن يكون لهم تمدن حقيقي إلا إذا تأسس على روح الشريعة وقواعد الإسلام ».

ولذلك فلم يكن غريبًا أن « يجمع » الأئمة، والمناضلون، والعلماء، والأعلام، في الشرق - بل وفي الغرب - على أن جمال الدين هو: « حكيم الشرق.. وموقظه .. وفيلسوف الإسلام »!، ومن ثَمَّ فلا بد من النظر إلى السهام التي توجهها « دراسة » الدكتور لويس على أنها موجهة إلى « ضمير أمة ». لتطعن « خيارها القومي - الإسلامي » هادفة إلى عزل مصر عن محيطها العربي وانتمائها الإسلامي، وحصرها في قفص الإقليمية الذي جاهد الأعداء لفرضه عليها بمعاهدة لندن سنة (١٨٤٠م)، وبفَصْمِ عرى الوحدة مع سوريا سنة (١٩٦١م)، وبعدوان يونيو سنة (١٩٦٧م)، وبفكرية « التغريب - العلمانية » التي اجتهدت - بالفكر - حتى تجعل مصر قطعة من أوربا؛ كي لا تكون: العقل، والقلب، والقاعدة والقيادة لوطن العروبة وعالم الإسلام!

إنهم يريدون نزع سلاح العرب والمسلمين المتمثل في مصر! ونزع سلاح مصر المتمثل في محيطها العربي وانتمائها الإسلامي.. وما الهجوم على جمال الدين الأفغاني إلا سهم موجه إلى هذا الانتماء!!

تلك هي الحقيقة التي غدا الأفغاني رمزًا وتجسيدًا لها، والتي كاد أن « يجمع » عليها الأئمة والعلماء والأعلام – إن في الشرق أو في الغرب –.

● فالأفغاني – في نظر قادة الصحوة الإسلامية المعاصرة – هو الرائد الذي ارتاد هذا الطريق في عصرنا الحديث.. وواحد من أبرز رموز هذه « الصحوة » – وهو المناضل أحمد ابن بلا – يقول: « إن جمال الدين الأفغاني هو (فكر) تجسد (فعلًا) لقد مثل – (بالنسبة للإسلام وعالمه) –بزوغ حركة الإصلاح الديني والثقافة والنهضة الحديثة.. لقد كان حقنة من الكظرين – الأدرينالين – أنعشت جسد الإسلام.. »[1]!

● وفي ندوة « بالقيروان » – تونس – عقدتها « جامعة الأمم المتحدة » – مارس سنة (١٩٨٣م) – لدراسة ظاهرة (الصحوة الإسلامية): « تبين أن هذه الصحوة ترتبط بمدرسة جمال الدين الأفغاني، وأنها برزت في عصرنا كرد فعلٍ على العلمانية والتحديات الحضارية المعاصرة، وهي منجاة في وجه الاستلاب المسلط على المجتمع العربي[2]! ».

وهو بنظر المفكر المسلم – الدرزي – الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ – ١٣٦٦هـ/ ١٨٦٩ – ١٩٤٦م):

---

(١) من خطابه في المؤتمر الإسلامي بباريس، سبتمبر سنة (١٩٨٢م). انظر مجلة « المنتقى » – العدد الأول – باريس سنة (١٩٨٣م)، (ص ١٢).

(٢) ملف المستقبلات العربية البديلة، العدد ١٠، أكتوبر سنة (١٩٨٣م)، (ص ١٧).

« فيلسوف الإسلام، وعلم الأعلام، وكوكب الإصلاح الذي أطلعه اللّـه في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام، حجة الشرق الناهضة، وآية الحق الباهرة.. »![1].

وهو في رأي الإمام المسلم - الشيعي - السيد محسن الأمين (١٢٨٤ - ١٣٧١هـ/ ١٨٦٧ - ١٩٥٢م): « ..متوقد الذكاء، فصيح الكلام بليغه، عالي الهمة، حسن الأخلاق.. جريء، ميَّال بطبعه إلى معارضة الحكام والدعوة إلى الإصلاح.. »![2].

وهو - كما يقول عنه عالم تونس الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور (١٣٢٧ - ١٣٩٠هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٧٠م) -: « حكيم، صوفي، زاهد، متواضع.. كانت سنوات إقامته بمصر هي طور بروز حكمته ومعرفته، والإصداع بدعوته في الإصلاح الديني، حتى لقد بعث ما كان مهجورًا من مواد الثقافة الإسلامية وطرائقها، بتدريس (الكلام)، و(الحكمة)، و (الرياضيات)، وتحريك مثارات المباحث، وفتح مسالك النظر، وتهيئة فرصة التقرير والتحرير، وصقل ملكاتها بالنقد والمران.. »![3].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، (مجلد ١ ج٢/ ٢٨٩)، طبعة بيروت، سنة (١٩٧١م).

(٢) محسن الأمين، جمال الدين الأفغاني (ص ٩)، طبعة بدون تاريخ، وبدون تحديد مكان الطبع.

(٣) محمد الفاضل ابن عاشور، التفسير ورجاله (ص ١٥٦، ١٥٧)، طبعة القاهرة سنة (١٩٧٠م).

فإذا ما جئنا إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) الذي شارك الأفغاني الفكر والنضال اثني عشر عامًا، فتفرد وانفرد بما جعله - عندما يكتب عن الأفغاني يصدر كما قال - عن «كمال الخبرة، وطول العشرة»، والذي قال عنه الإمام محمد رشيد رضا: «إنه أعلم الناس بمقاصد الأفغاني وأعماله..»، والذي وصفه سليم العنحوري - وهو من عارفي الأفغاني ومعاصريه - بأنه: «أعز أخلّاء الحكيم جمال الدين».

إذا جئنا إلى محمد عبده لنرى وصفه لمكانة جمال الدين، وتقويمه لدوره في النهضة الإسلامية - مع التنبه والتنبيه إلى أن محمد عبده عندما يكتب فإنه يتخير ألفاظه بدقة من يؤدي شهادة سيحاسب عليها أمام اللّـه، أعانته على ذلك قدرات لغوية وحكمة فلسفية جعلته إمامًا في البيان كما هو إمام في الحكمة وتجديد الدين! - إذا جئنا إلى تقويمه للأفغاني وجدناه يقول - ضمن ما قال -: «... فكأنه حقيقة كلية تجلّت في كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله...

● فهو في السياسة: يسعى لتلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية؛ ليعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفي مجده.

● وهو في الدين: حنيفي حنفي، لم يكن مقلدًا في عقيدته،

لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميلٍ إلى مذهب الصوفية، وهو أشد مَنْ رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه، له حمية دينية لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرةً على الدين وأهله.

● وهو في الفلسفة: له سلطان على دقائق المعاني، وقوة في حل ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش! وله لَسَنٌ في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحدٌ، إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه!

● وهو في الآداب: له في الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع.

● وهو في المعارف: إذا تكلم في الفنون حَكَمَ فيها حُكْمَ الواضعين لها.

● وهو في الأخلاق: وَلُوع بعظائم الأمور، عَزُوف عن صغارها.. سلامة القلب سائدة في صفاته، كريم يبذل ما في يده، قوي الاعتماد على اللّـه، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر، له حلم عظيم يسع ما شاء اللّـه أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب!... شجاع مقدام، لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه!.. ».

ثم يختم محمد عبده وصفه لجمال الدين بهذه العبارة التي يقول فيها: « وبالجملة، فإني لو قلت: إن ما أتاه اللّـه من

قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ، ذلك فضل اللّـه يؤتيه من يشاء، واللّـه ذو فضل عظيم.. »[1]!.

ذلك هو جمال الدين الأفغاني كما وصفه وحدد مكانه ودوره الأئمة والعلماء المسلمون الذين أشرنا إلى رأيهم فيه، وعلى دربهم سار كل الذين كتبوا عنه الكتب أو الدراسات، أو عرضوا للحديث عن مكانته في إنهاض الأمة وإصلاح دينها ودنياها، من مثل: رشيد رضا، وحسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، وعبد القادر المغربي، ومحمد المخزومي، ومصطفى عبد الرازق، وعبد اللّـه النديم، وسعد زغلول، ومحمد إقبال، وعباس العقاد، وأحمد أمين، وعبد الرحمن الرافعي، ومالك بن نبي، والدكتور محمود قاسم، وأديب إسحق، وسليم نقاش وسليم العنحوري، والفيكونت فيليب دي طرازي..إلخ.. إلخ.. إلخ.

وإذا كنا قد أشرنا إلى « كلمات » لأئمة المسلمين وأعلام علمائهم في جمال الدين، فإن كلمات العلماء والمؤرخين من غير المسلمين شاهدة - هي الأخرى - على عظمة الأفغاني وريادته وتألقه في سماء « الفكر » و« النضال »...

● فالمؤرخ المسيحي العربي جرجي زيدان (١٢٧٨ -

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٤٩ - ٣٥٢)، طبعة بيروت سنة (١٩٧٢م).

١٣٣٢هـ/ ١٨٦١ - ١٩١٤م) يقول عنه: « لقد نشأ الأفغاني قطبًا من أقطاب الفلسفة، وعاش ركنًا من أركان السياسة، وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال.. »![١].

● والفيلسوف الفرنسي إرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) يقول عن جمال الدين: « كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه: ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحدًا من أساطين الحكمة الشرقيين.. »![٢].

● والسياسي والمستشرق الإنجليزي - (الأيرلندي) - ولفرد سكاون بلنت S.Blunt (١٨٤٠ - ١٩٢٢م)- وهو الذي عاشره، وتعامل معه، وخبره - يقول عنه: « إن جمال الدين كان رجلًا عبقريًا، أثرت تعاليمه تأثيرًا لا يمكن الغض من جسامته على حركة الإصلاح الإسلامي، وأنا أشعر بالشرف العظيم، لأنه عاش ثلاثة شهور تحت سقفي في إنجلترا، ولكنه كان رجلًا بريًّا، كل ما فيه آسيوي، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية!!.. »[٣].

● والمسيحي الأمريكي لوثروب ستودار Lothrop Stoddard - مؤلف كتاب (حاضر العالم الإسلامي) - يقول عنه: « كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء، وأمير الخطباء

---

(١) جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، طبعة القاهرة .

(٢) حاضر العالم الإسلامي (مجلد ١ ج ٢/ ٢٨٩).

(٣) أصل « دراسة » الدكتور لويس عوض، (ص ٢٣٠).

البلغاء، وداهيةً من أعظم الدهاة، دامغ الحجة قاطع البرهان، ثبت الجنان، متوقد العزم، شديد المهابة، كأن في ناسوته أسرار المغناطيسية.. وكان داعيًا مسلمًا كبيرًا، كأنما خلقه اللّـه في المسلمين لنشر الدعوة فحسب.. ضحى بنفسه في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي.. وليس هناك قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها، ولا يتبدد أوارها.. »![١].

● أما المستشرق اليهودي المجري جولد سيهر Goldziher (١٨٥٠ - ١٩٢١م) فإنه يقول: « كان جمال الدين من أبرز أعلام الإسلام في القرن التاسع عشر، أثر تأثيرًا كبيرًا في الحركات الحرة والدستورية، وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطني وتحرير الدول الإسلامية من النفوذ والاستغلال الأوربي.. »[٢].

وعلى منوال المستشرق جولد سيهر - في تقدير عظمة الأفغاني - سار المستشرقون الكبار الذين كتبوا عنه من أمثال: براون E.G.Browne (١٨٦٢ - ١٩٢٦م)، وتشارلز آدمز Ch.Adams .. إلخ.. إلخ.. إلخ..

ذلك هو رأي الأئمة والعلمـاء والأعـلام - مسلمين

---

(١) حاضر العالم الإسلامي (مجلد ١ ج ١ / ٣٠٥).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، الطبعة الثانية بالقاهرة - دار الشعب.

ومسيحيين ويهود، شرقيين وغربيين - في جمال الدين الأفغاني.

- لكن الدكتور لويس عوض له رأي مخالف، بل ومضاد - ومعذرةً لكلمة « رأي » إذا نحن أطلقناها على ما خطه قلمه في وصف جمال الدين الأفغاني!! - أتعرفون بماذا وصفه؟؟

لقد قال عن الأفغاني - وبالحرف - وبذات الألفاظ:

«إنه: زنديق... ملحد... مجدف... متفرنج في الفكر والسلوك... علماني... ثيوقراطي!... تقدمي... ثوري... جدلي رجعي!... تقليدي، محافظ!... وسطي... حالم... هنكار!... سلفي... شيعي!... بهائي، باطني... ماكر... إرهابي... فوضوي... عدمي... غامض... مريب... جاهل... متعصب... غيبي في الفكر، غيبي في السياسة... شغل نفسه بسفاسف الفكر وبسفاسف الفكر السياسي... مزدوج الشخصية، بل ومتعددها... متذبذب... متناقض... محامي روسيا في السياسة الأفغانية... صاحب نظرية « المستبد العادل »... صاحب عنجهية فارسية... شخصية مأساوية... لم يكن يعرف ما يريد... عدو للشعور القومي وللحركات الاستقلالية... على درجة من النقص في الإخلاص... باحث عن استدرار الأموال - وبالطرق الملتوية - لتصب في جيبه... ينصب على كل الأطراف... انتهازي من طراز

نادر... متوسل للغايات النبيلة بالوسائل الخسيسة... مغامر... مقامر... بل وأفَّاق دولي... »[1]؟؟؟!!!.

- تلك هي - عند لويس عوض - أوصاف الرجل الذي سقنا طرفًا من وصف الأئمة والعلماء والأعلام له منذ قليل... والذي قال عنه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: إنه لا يبالغ إذا قال: « إن ما آتاه اللّـه من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء... »!.

وذلك هو الذي جعلنا نقول: إن « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغاني قد بلغت في الشذوذ إلى الحد الذي جعلها « ساقطة » بالطبع والذات، ولولا أن الرجل قد سلك إلى غرضه هذا كل السبل « الملتوية » - ولا أريد أن أقول: « الخبيثة » - لما احتجنا إلى هذا « النقد » لنحمي به « الحقيقة » من « الافتراء »!.

فما هي هذه السبل الشاذة التي سلكها الدكتور لويس ليبلغ بواسطتها قمة الشذوذ التي بلغتها « دراسته » عن جمال الدين؟؟.

● من « التقاليد البحثية » التي غدت بديهة في دنيا الفكر تلك التي تتعلق بطبيعة ونوعية المصادر والمراجع في كل

---

(١) تتناثر هذه الأوصاف للأفغاني في صفحات « دراسة » للدكتور لويس عوض.. وانظر على وجه الخصوص عدد « التضامن » ١٤ (ص ٨٠)، وأصل « الدراسة » (ص ١٧٣، ١٩١).

بحث من الأبحاث، وعلاقة هذه المصادر والمراجع - من حيث الموضوع والمستوى - بالبحث الذي تستخدم فيه...

فإذا كان البحث في الاقتصاد فإن آثار الفكر الاقتصادي لا بد وأن تتصدر قائمة المصادر والمراجع... وإذا كان في التاريخ فهناك مصادره ووثائقه... وإذا كان في الدين فهناك مصادر الفكر الديني... وإذا كان في الأدب فهناك الآثار الأدبية وأعمال النقاد... تلك بديهة من البديهيات.

وفي حال جمال الدين الأفغاني فإن هناك أعمالًا فكريةً كتبت عن الرجل - ما بين رسالةٍ جامعيةٍ، أو كتابٍ متخصصٍ، أو دراسةٍ جادةٍ، أو فصلٍ أو فصولٍ من كتاب - كتبها أكثر من خمسين مفكرًا، فيهم ما يزيد على الثلاثين إمامًا وعالمًا ومفكرًا ومثقفًا، من الشرق والغرب، ومن كل الديانات والاتجاهات.. وبديهي أن تتصدر هذه الأعمال الفكرية قائمة المصادر والمراجع في أي بحثٍ جديدٍ عن جمال الدين - مع ما يصل إليه الباحث الجديد من مصادر جديدة جديرة بالاحترام.. وبديهي كذلك - في التأريخ لأي مفكر - أن تكون أعماله الفكرية وآراؤه الثابت نسبتها إليه موضع الاعتبار الأول في تقويم أفكاره واتجاهاته.. كما أن شهادات المعاصرين - وخاصةً القريبين من العلم الذي نكتب عنه - هي الأخرى مصادر لا بد وأن يكون لها وزن كبير، كل هذه بديهيات استقرت كتقاليد تعارف عليها المفكرون والباحثون في كل ميادين البحث ومجالات التفكير...

لكن الدكتور لويس عوض قد جاء في « دراسته » عن الأفغاني، فخرج عن كل هذه القواعد، ورفض كل هذه البديهيات، واستن للباحثين سنةً سيئةً لم يسبقه إليها أحد من الناس!:

● فهو يرفض أن يصدق الرجل الذي يكتب عنه!.. بحجة: « أن الأفغاني كان كثيرًا ما يلون الأحاديث عن نفسه لأسبابٍ متعددة.. »[1]!!، وبحجة: « أن الأفغاني عودنا أن يروي الأمور دائـمًا من وجهة نظره.. »[2]!!

● ثم هو يرفض آراء محمد عبده عن الأفغاني.. رغم عدالة الرجل، ودقته، وموضوعيته - التي جعلته لا يغفل نقد الأفغاني، رغم ما يكنه له من تقديرٍ منقطع النظير - ورغم أنه قد صحبه وشاركه لأكبر فترة - اثني عشر عامًا - حتى لقد صدق عندما قال: إنه يكتب عنه بناءً على « طول العشرة وكمال الخبرة »، ولم يشفع لمحمد عبده - كمصدر ثقة - عند الدكتور لويس - إجماع معاصري الأفغاني وكل الذين كتبوا عنه بأنه - أي محمد عبده-: « أعلم الناس بمقاصد الأفغاني وأعماله.. » - كما يقول رشيد رضا[3] -، و« أعز أخلّاء الحكيم الأفغاني » - كما قال سليم العنحوري -.

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٦٨).

(٢) التضامن، العدد ١٤ (ص ٧٨).

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٣٠٦)، طبعة القاهرة سنة (١٩٣١م).

● بل لقد رفض ما أجمع عليه أئمة العصر وأعلام علمائه الذين أرَّخوا لجمال الدين... وترددت في « دراسته » عبارات كثيرة من مثل: « هناك رواية محمد عبده، وهي بوجهٍ عام رواية جرجي زيدان، وآدمز، وبراون.. وهي الرواية المعتمدة من أكثر الناس... »[1] ثم يرفضها، ومن مثل عبارة: « ... وفي رواية محمد عبده، وجرجي زيدان، وبراون، وغيرهم من المصادر التقليدية »[2] ثم يرفضها، ومن مثل عبارة: « قد أجمع محمد عبده، وأديب إسحق، وسليم العنحوري، وجرجي زيدان، وعامة معاصري الأفغاني من المصريين وأبناء البلاد العربية... »[3] ثم يرفض هذا الإجماع!!.

وبالطبع فليس من حق أحدٍ أن ينكر على باحثٍ أن يرفض « الروايات المعتمدة » ويرفض « الإجماع »، إذا كان قد استند إلى مصادر أوثق مما استندت إليه « الروايات المعتمدة »، وإذا كانت لديه الحقائق الصلبة والواضحة التي تنقض « الإجماع ».

لكن.. أن يرفض لويس عوض « إجماع علماء العصر وأعلامه » مستندًا إلى « تقارير الجواسيس الإنجليز »، وإلى

---

(١) التضامن، عدد ٥ (ص ٦٩).

(٢) التضامن، عدد ٥ (ص ٦٨).

(٣) التضامن، عدد ٧ (ص ٦٢).

« ملفات المباحث » الخاصة بالأفغاني في دوائر الأمن والتجسس في إنجلترا وفرنسا - وهي الدوائر التي ناصبته العداء لعدائه لاستعمار حكوماتها بلاد الشرق واستغلالها شعوبه - وإلى عددٍ من الكتب التي ألّفها نفر من « طلاب الاستشراق » - وليسوا من علمائه - استنادًا إلى « تقارير الجواسيس » و« ملفات المباحث »، أما أن تكون هذه هي « مصادر » الدكتور لويس التي ينقض بها « إجماع الأئمة وأعلام علماء العصر »، فتلك هي الخطيئة الكبرى، والسنة السيئة التي استنها في « دراسته » هذه عن جمال الدين الأفغاني!.

إن الدكتور لويس يسمي « الأوراق » التي استند إليها « وثائق ».. وهو يتحدث عنها في معرض حديثه عن الكتب التي أخذ عنها، والتي استندت إلى هذه « الوثائق »، فيقول صراحةً: إنها لا تخرج عن « تقارير جواسيس » و« ملفات مباحث » ضمت « تقارير المخبرين »!! فأصحاب « المراجع الجديدة » التي استند إليها في « دراسته » اضطروا - (في سبيل نقض إجماع علماء العصر) - إلى نبش ملف جمال الدين الأفغاني وتحركاته في آسيا وأفريقيا في:

١- سجلات وزارة الخارجية البريطانية.

٢- وفي « يوميات كابول » عن عامي (١٨٦٨و١٨٦٩م) في « أعمال حكومة الهند » في مصلحة الشؤون الخارجية، (كلكتا سنة ١٨٦٩م) و (مكتب علاقات الكومنولث).

٣- وفي « موجز حوادث كابول » في الأعوام (١٨٦٣ - ١٨٧٤م) (مكتب علاقات الكومنولث) الصادر في سملا سنة (١٨٦٦) أو سنة (١٨٧٤م).

٤- وفي « أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية »، ملف فاس (١٨٨٨ - ١٨٩٦م).

٥- بل اضطروا إلى « نبش محفوظات البوليس الفرنسي والبوليس الإنجليزي... »[١].

- لكن .. هل ضمت هذه « الأرشيفات » و« الملفات » أوراقًا يمكن - بحق - أن تسمى « وثائق » يحق للباحث أن ينقض - استنادًا إليها - إجماع العلماء؟!

لننظر.. ولنتأمل...

- إن « للوثيقة » عند الدكتور لويس مفهومًا غريبًا.. فهو يمنح هذا الاسم لأوراقٍ ينكره عليها ليس علماء التاريخ وحدهم، بل والطلاب المبتدئون في هذا الفن!.. ولقد سبق أن أشرنا إلى قصة تلك « الأوراق » التي كتبها رجل اسمه « لاسكاريس » هو - باعتراف الدكتور لويس ونص كلماته -: « مصاب بنوعٍ من الهوس أو الخيال المسرف »، والتي ضمنها « هذيان » رجل مريض بالحمى ساعة الاحتضار هو « المعلم يعقوب اللعين »، عندما حضرته

---

(١) التضامن، عدد ١ (ص ٥٣).

الوفاة على ظهر السفينة التي أقلّته هو والخونة الذين تعاونوا مع الحملة الفرنسية على مصر، أقلّته مع جنود الحملة عند جلائهم عن مصر سنة (١٨٠١م)، لقد سمى الدكتور لويس هذا « الهذيان » الذي كتبه « مهووس »: « وثائق »، قال - ليضفي عليها المهابة-: إنها محفوظات وزارة الخارجية بلندن تحت رقم (F.O.78 VOL.38): وليتها كانت « وثيقةً » يوزع فيها « معلمه يعقوب اللعين » تركته الشخصية.. إذن لهان الأمر.. ولكنها - في رأي الدكتور لويس - « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر »[1]؟!

ذلك هو مبلغ « الاحترام » عنده لمصطلح « الوثيقة »، وهو يكتب هذا الكلام لقراء هم أبناء حضارةٍ لها في نقد النصوص والمأثورات والروايات جهود تبلورت في علم اسمه (علم الجرح والتعديل)!!، أمة تعلمت في سيرة نبيها - عليه الصلاة والسلام - أنه في لحظات احتضاره طلب صحيفةً ودواةً ليملي كتابًا، فأحجم عن الإجابة نفر من أجلَّة الصحابة - على رأسهم عمر بن الخطاب - قائلين: « إن رسول اللّـه ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب اللّـه! »[2].. فحتى النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يسجلوا ما أراد أن يملي عندما اشتد عليه

---

(١) تاريخ الفكر المصري الحديث (١ / ١٨٣، ١٨٤).

(٢) الطهطاوي، الأعمال الكاملة (٤ / ٣٨٨).

الوجع ساعة الاحتضار، احترامًا منهم « للمصادر » الجديرة بأن تكون طاقة التوجيه، وتكوين الأفكار والآراء في أمة هذا شأنها وشأن حضارتها مع « الوثائق » و« التوثيق »، يسمي الدكتور لويس « هذيان » « معلمه يعقوب » عندما اشتدت عليه الحمى، لحظة الاحتضار: « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر »!!.

ولقد سار على هذا الدرب في « دراسته » عن جمال الدين...

● إنه يتهم الأفغاني بالكذب... وبالتقية... وبالباطنية... وبالنصب؛ لأنه قد أخفى « إيرانيته » وزعم أنه « عثماني » عندما عاش في بلاط أمير الأفغان سنة (١٨٦٨م)، و« الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس هي تقرير جاسوس أفغاني كان يعمل لحساب الاستعمار الإنجليزي، وبعبارات الدكتور لويس: « هي تقرير كتبه موظف في حكومة كابول سنة (١٨٦٨م) كان يعمل جاسوسًا لحساب الإنجليز... والتقرير بعنوان (سجل بأوصاف السيد الرومي في كابول).. »، وفيه اتهام للأفغاني في عقيدته ووطنيته إذ يقول عنه: إنه « فيما يبدو لا يتبع دينًا معينًا، وأسلوب معيشته أقرب إلى أسلوب الأوربيين منه إلى أسلوب المسلمين.. وهو يلبس ملابس النوغاي (أتراك جنوب غرب التركستان)، ويشتبه أن يكون عميلًا روسيًا... »[1]!

---

(١) التضامن، عدد ١ (ص ٥٤).

تلك هي « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس في نقض « إجماع العلماء » على تدين الأفغاني وصدق إخلاصه في وطنيته.

ونحن إذا تجاوزنا - جدلًا - عن « التدني والهبوط » في إطلاق اسم « الوثيقة » على هذه الورقة التي كتبها جاسوس... نسأل الدكتور لويس: أما كان الأجدر بك أن تقف موقف الناقد أمام هذه النصوص؟...

إن « نقد النصوص » ليس خاصيةً من خصائص المؤرخ وحده، حتى يمكنك الاعتذار بأنك « مؤرخ هاوٍ »لم تتعلمه فيما تعلمت!... وإنما هو جزء من « صنعة » الناقد الأدبي، التي هي وظيفتك الأصلية!...فلماذا لم تقف الموقف النقدي من هذا النص؟... وأنت لو صنعت ذلك لألقيته في سلة المهملات!!... وذلك لأن:

١- هذا التقرير يتحدث عن « السيد الرومي »، وليس فيه أيَّة إشارة إلى أن هذا « السيد الرومي » هو جمال الدين الأفغاني!، فمن قال إن المقصود هو جمال الدين ؟!

٢- ثم إن وصف « السيد » يعني: « الشريف »، من « السادة » المنحدرين من نسل آل البيت، أبناء علي ابن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء... أي أنه: « عربي، قرشي، هاشمي »، أما « الرومي » فمعناها: « التركي العثماني »؛ لأن العرب - في صراعهم مع الترك العثمانيين - قد سموهم

« الأروام»[1]، فكيف يكون إنسان واحد « سيدًا » و« روميًا » في ذات الوقت؟ أي كيف يكون « عربيًا » و« تركيًا عثمانيًا » في وقتٍ واحد ؟!

٣- ثم.. هذا الجاسوس - وهو الأفغاني - كيف لم يكتشف « إيرانية » جمال الدين... والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة؟!.

٤- وأخيرًا.. فهل من حصافة العميل الذي يمارس نشاطه في بلاط دولةٍ محافظةٍ دينيًا أن يكون متفرنجًا في أسلوب معيشته إلى الحد الذي « يبدو فيه أنه لا يتبع دينًا معينًا »؟!... وألست أنت الذي أوردت عبارة « بلنت » عن أسلوب معيشة الأفغاني في لندن، والتي تقول: « إنه كان رجلًا بريًا، كل ما فيه آسيوي، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية »؟!، أكان « آسيويًا بريًا » في لندن، « متفرنجًا » في « كابول »؟!.

عزيزنا الدكتور لويس!: إن من الحِكَم الشعبية المأثورة تلك الحكمة التي تقول: « إذا كان المتحدث مجنونًا فليكن المستمع عاقلًا »؟!.. فَلِمَ لَمْ تصنع ذلك مع هذا « الهراء » الذي سميته « وثائق » نقضت بها « إجماع الأئمة والعلماء والأعلام »؟!.. هل هو الغرض السيئ، والغاية الرامية إلى

---

(١) انظر: عبد الرحمن الكواكبي الأعمال الكاملة (ص ٣٢٥)، طبعة بيروت سنة (١٩٧٥م).

ضرب الإحياء الإسلامي بتشويه رائده في عصرنا الحديث؟!..
أم ماذا يا عزيزنا الدكتور لويس؟!.

وغير هذا الجاسوس المجهول الاسم، وغير التقرير الذي كتبه عن « شخصٍ » مجهول الاسم كذلك.. ترد في « دراسة » الدكتور لويس الإشارات إلى تقارير الجواسيس- من أمثال: « حسين بلجرامي » سكرتير الحاكم الإنجليزي لحيدر آباد، و« عزيز الدين » الذي كلفته الحكومة البريطانية برصد تحركات الأفغاني - فهي « مصادره » في « دراسته » عن جمال الدين!.

لقد كان لا بد للدكتور لويس كي ينقض « إجماع الأئمة والعلماء » من أن يرفضهم كمصادر لـ« دراسته »، وبذلك فهو قد تنكب طريقهم، على حين رأيناه قد سار خلف الجواسيس، باعتماده على التقارير التي كتبوها عن الأفغاني، بل والتي لا دليل على أن المعني بها هو جمال الدين!.

● وغير هذه « الأوراق الساقطة » التي يسميها الدكتور لويس « وثائق »، نراه يعتمد على نوعيةٍ من « الكتب » ليست بأحسن حالًا من هذه « الأوراق »!:

فهو - يعتمد - في تشويه موقف الأفغاني من الثورة المهدية بالسودان، وتوجيه الاتهامات إلى موقفه أثناء المفاوضات بين الإنجليز وبينه بواسطة « بلنت » - حول الثورة المهدية - يعتمد على الترجمة الإنجليزية لكتاب

الصحفي الفرنسي « هنري دوشفور » (مغامرات حياتي)!!، ثم نراه - كما هي عادته - لا يتخذ أي موقف نقدي مما جاء في هذه (المغامرات)... فهو - استنادًا إلى هذه (المغامرات) - يوجه للأفغاني « تهمة » أنه « طرح نفسه وسيطًا في المفاوضات، مدعيًا أنه يعرف المهدي معرفةً شخصيةً »، وينسب إلى الأفغاني عبارة: « تلميذي السابق في جامعة الأزهر، وهو الآن المهدي »[1]!.

- ولو تأمل الدكتور لويس ما جاء في هذه (المغامرات) بحس نقدي لظهرت له هذه الحقائق:

١ - أن الأفغاني - وفق كتابات « بلنت » التي أوردها الدكتور لويس ذاته - ليس هو الذي طرح نفسه وسيطًا في المفاوضات، بل إن الإنجليز هم الذين سعوا إليه بواسطة « بلنت ».

٢ - أن الأزهر لم يكن يسمى « جامعة ».. وهو لم يتخذ هذا الاسم إلا في ستينات القرن العشرين، لقد كان اسمه « الجامع » - بالتذكير - وعندما عرض البعض على الشيخ سليم البشري (١٢٤٨ - ١٣٣٥هـ/ ١٨٦٧ - ١٩١٧م) تسميته « جامعة »، رفض قائلًا: « لماذا نؤنث ما ذكّره اللّـه؟! ».

٣- أن جمال الدين الأفغاني لم يدرس في الجامع الأزهر.

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٩٣).

٤ - والمهدي - محمد أحمد - لم يدرس في الأزهر؛ فلقد منعه فقره من مغادرة السودان!!.

لم ير الدكتور لويس شيئًا من هذه الحقائق البسيطة، والعنيدة التي تنقض (المغامرات) التي اعتمد عليها.. فقط رأى « تهمةً » موجهةً للأفغاني فحال « الغرض » بينه وبين التفكير في مدى تماسكها ومصداقيتها!.

● وكتاب آخر، هو « العمدة » في أغلب ما وجه إلى الأفغاني من اتهامات.. ففيه أنه « شيعي » كذب على العالم عندما ادعى أنه « سني »، وأنه « إيراني » كذب على العالم عندما زعم أنه « أفغاني »، وأنه « غير متدين » كذب على العالم عندما ظهر في صورة المتدينين!.. إلخ.. إلخ..

وعنوان هذا الكتاب هو (جمال الدين الأسد آبادي: المعروف بالأفغاني)، وهو منسوب إلى « مرزا لطف اللّه خان » - الذي زعم أنه ابن أخت جمال الدين -، ويضم ملاحق فيها « شهادات » على هذه الدعاوى المناقضة لما قاله الأفغاني عن نفسه، ولما أجمع عليه الأئمة والعلماء.

ومرة ثالثة، نقول: إن الدكتور لويس لو نظر نظرةً نقديةً إلى ما حواه هذا الكتاب لكشف تفاهته وزيفه، ولأراح واستراح، ففي هذا الكتاب من « اللامعقول » الشيء الكثير، وعلى سبيل المثال:

١ - يدلل هذا الكتاب على « إيرانية » جمال الدين بأن له

في « أسد آباد » الإيرانية أسرةً تسمى « الأسرة الجمالية »، نسبة إليه!.. ونحن نعلم أن الرجل لم يتزوج ولم ينجب.. فكيف تكون له أسرة « جمالية » تنتسب إليه هو، لا إلى أبيه وأجداده؟!.

٢- والكتاب يتحدث عن إخوة جمال الدين، فيقول: إن له أختين: طيبة، ومريم - وليس لنا ملاحظة على اسميهما، فهما اسمان مألوفان في الأوساط الإسلامية -.. لكنه يذكر أن اسم أخيه الوحيد هو « مسيح اللّـه »[1]!، فلم لم يقف الدكتور لويس أمام هذا الاسم، ويقول لقرائه: إن هذا الاسم محال أن يكون مألوفًا في أسرة إسلامية، ولا بد أن يكون القصد من هذا الكتاب هو تشويه الصورة الإسلامية لجمال الدين؟!.. أم أن هذا الاسم - « مسيح اللّـه » - قد أعجب الدكتور لويس فغض الطرف، ومضى يلملم الاتهامات؟!.

٣- وفي هذا الكتاب - (جمال الدين الأسد آبادي) - كمٌّ من المعلومات التي لا يكتبها إلا جاهل أو مخرف! ففيه: أن « الحزب الوطني - (الذي تزعمه الأفغاني بمصر) - كان دقيق التنظيم للغاية »، والمعروف أنه كان « تجمعًا للصفوة »، ولم يكن « حزبًا » بالمعنى المتعارف عليه - حديثًا - من مصطلح « الحزب »!

- وفيه: أن « التبرعات النقدية من أعضاء هذا الحزب،

---

(١) انظر: (ص ١٧٠، ١٧١) من هذا الكتاب، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٧م).

في تسعة أشهر فقط، بلغت ١٨,٠٠٠ جنيه، وهذا كلام يدخل في عالم الخيال المريض..!

- وفيه: « أن جميع من كانوا في الإدارات الإنجليزية - من المصريين - قد تركوا أعمالهم، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطني »!!..

والمعروف أن هذا « الحزب »، وزعيمه الأفغاني، لم يكن موجودًا بمصر عندما قامت بها « إدارات إنجليزية »، فلقد نفي الأفغاني من مصر سنة (١٨٧٩م)، وانتهى أمر هذا الحزب - تقريبًا - قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر الذي حدث سنة (١٨٨٢م)؟!.

- وفيه: أن « اللورد كرومر، المستشار المالي البريطاني » في مصر قد انزعج من نشاط الأفغاني وحزبه الوطني، فكتب إلى حكومته تقريرين حول خطورة هذا الحزب على التجارة الإنجليزية في مصر وأفريقية وآسيا.. « وأنه - أي الحزب الوطني - هو أوضح مظهر لنهضة العرب من ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، وهو يبرهن حقًّا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة في أقل من ربع قرن »!!.

- ونحن نعلم - وتلاميذ المدارس الابتدائية يعلمون - أن كرومر كان « المعتمد البريطاني » في مصر، وليس « المستشار المالي »، وأنه لم يأت إلى مصر إلا بعد الاحتلال بسنوات، أي بعد نفي الأفغاني منها، واختفاء الحزب الوطني بنحو الخمس

السنوات، ومن ثمَّ فلم يكتب كرومر إلى حكومته التقارير عن نشاط الأفغاني وحزبه في مصر أبدًا؟!.

- وفيه: أن الموظفين الإنجليز، وأعضاء المجمع الكنسي قد شاركوا « كرومر » فزعه من الأفغاني وحزبه الوطني.. وتعجبوا من « تقهقر سبعمائة مليون من المسيحيين المثقفين الأقوياء أمام أربعين شخصًا يقودهم درويش إيراني هو جمال الدين الأسد آبادي »!... وبعد سطورٍ يذكر أن أعضاء هذا الحزب - الذين قال عنهم مرة إنهم ثلثمائة، ومرة إنهم أربعون - يذكر أنهم قد بلغوا في تسعة أشهر ٢٠,١٨٠ عضوًا... وأصبح الحزب يملك رأسمال كبير في المصارف!.. مع العلم أن مصر - يومئذٍ - لم يكن بها أيَّة مصارف؟!.

- وفيه: أن الإنجليز - عندما انزعجوا من نشاط الحزب الوطني - « نفوا جمال الدين إلى أوربا »!.. والمعروف أنه قد نفي إلى الهند؟!.

- وفيه: أنهم قد « نفوا كذلك محمد عبده الذي كان مفتيًا ثلاث سنوات »!... ومعلوم أن محمد عبده لم ينف إلا بعد فشل الثورة العرابية، وبالتحديد في ٢٤ ديسمبر (١٨٨٢م)، كما أنه لم يكن مفتيًا قبل نفيه، وإنما شغل هذا المنصب بعد عودته من المنفى بعشر سنوات - في ٣ يونيو سنة (١٨٩٩م)-!.

- وفي هذا الكتاب - أيضًا - أن نفي جمال الدين من مصر

كان سنة (١٨٧٩م) « بعد قضاء الإنجليز على الثورة العرابية »!!.. والمعروف أن القضاء على الثورة العرابية كان في سنة (١٨٨٢م) وليس في سنة (١٨٧٩م)!!.

وبعد أن ذكر الكتاب أن نفي الأفغاني من مصر كان إلى أوربا، عاد وذكر أنه توجه من مصر للهند!!.. كما جعل استضافة « بلنت » للأفغاني « بمنزله بباريس »، على حين يعلم الجميع أنها في لندن[1]؟!.

إلى آخر هذا الكم من « المعلومات » التي ما كان يجوز لطالب مبتدئ أن يراها ثم يعتمد على هذا الكتاب في نقض إجماع الأئمة وأعلام العلماء، الذين كتبوا تاريخ جمال الدين؟!.

تلك هي « مصادر » « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغاني.. التي رجحها على كتابات: محمد عبده، ورشيد رضا، وحسن البنا، وابن باديس، ومحسن الأمين، وعبد القادر المغربي، ومحمد المخزومي، وشكيب أرسلان، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد الفاضل ابن عاشور، وعبد اللّه النديم، وأديب إسحق، وسليم نقاش، وسليم العنحوري، وجرجي زيدان، وسعد زغلول، ومحمد إقبال، وعباس العقاد، وأحمد أمين، وعبد الرحمن الرافعي، ومالك بن نبي، ومحمود قاسم، وفيليب دي طرازي، ورينان، وبراون، وآدمز،

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي (ص ٦٢ - ٧٥).

وبلنت، وجولد سيهر... وغيرهم من العلماء والمفكرين والكتاب!!.

● لقد شاءت الصدفة - وأنا أقرأ « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغاني - أن أقرأ في صحيفة (الأهرام) - بتاريخ (٢٨/ ٩/ ١٩٨٣م) - نقلًا عن الـ (ديلي تلجراف) البريطانية - أن باحثًا أمريكيًّا، هو الدكتور « ريتشارد شوارتز » قد طلب الاطلاع على « ملف » العالم الرياضي - صاحب النسبية - ألبرت أينشتين (١٨٧٩ - ١٩٥٥م) في « إدارة المباحث الفيدرالية الأمريكية »، فوجد أن تقارير المباحث تصور أينشتين في سنوات إقامته بأمريكا - من سنة (١٩٣٢م) حتى وفاته سنة (١٩٥٥م) - في صورة: « العقل المدبر وراء مؤامرةٍ شيوعيةٍ تستهدف السيطرة على هوليود... والمسؤول عن شبكة تجسس، تستخدم مكتبه في برلين لتلقي رسائل جواسيس الاتحاد السوفيتي على عنوانه ... »، إلى آخر ما في تقارير هذا « الملف »، البالغ عدد صفحاته ١٥٠٠ صفحة!!.

ولقد تساءلت:ترى، هل يسمح « الضمير العلمي » للذين جمعوا للدكتور لويس - في لوس أنجليس - تقارير الجواسيس وملفات المباحث، ليكتب - استنادًا إليها - « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني... هل يسمح « ضميرهم العلمي » بكتابة تاريخ « أينشتين » استنادًا إلى « ملفه » في « إدارة المباحث الفيدرالية الأمريكية »؟!... أم أن

« الضمير العلمي » مسموح له أن يأخذ « إجازة » إذا ما كانت « الدراسة » عن أعلام العروبة وقادة الإسلام؟!.

ثم تساءلت: إذا كان الدكتور لويس قد رفض السير على درب العلماء الذين كتبوا عن الأفغاني، وارتضى لنفسه السير على درب الجواسيس، عندما اعتمد تقاريرهم « مصادر » لـ « دراسته »... فلم لم يرجع إلى « تقارير جواسيس الدولة العثمانية » في « محفوظات الآستانة » أيضًا؟!.

لقد شملت « مخصصات » السلطان عبد الحميد للأفغاني في سنوات إقامته بالآستانة - إلى جانب المنزل، والراتب، والعربة التي تذهب به إلى « متنزه الكاغدخانة » - عددًا من الجواسيس... حتى لقد داعب جمال الدين السلطان يومًا، عندما طلب منه تخصيص عربة للجاسوس الذي يتبعه؛ لأن الجاسوس يلهث - في حالةٍ يرثى لها - خلف عربة جمال الدين!!.

- فلم لم نر في « دراسة » الدكتور لويس أثرًا لتقارير جواسيس السلطان؟!.. أم أن فرط إعجابه « بالغرب »، وازدرائه « بالشرق » قد انسحب أيضًا على الجواسيس؟!.

***



تشكيك.. وافتراء!.

● كثيرون - ممن يحسنون الظن بالدكتور لويس عوض - قد أقلقهم ذلك المستوى - البالغ السوء والبيِّن الشذوذ - الذي بلغته « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني.

ولقد كتب إليَّ فضلاء كثيرون - لثقة أعتز بها وتقدير أفخر به - يطلبون إليَّ جلاء وجه الحقيقة في الأمر، بل ويستنفرونني لتقويم « دراسة » الدكتور لويس، فالأستاذ الفاضل الدكتور الطاهر أحمد مكي - الناقد الأدبي، وأستاذ الجامعة، ورئيس تحرير مجلة (أدب ونقد) - يكتب إليَّ: « ..إن دراسة الدكتور لويس تثير كثيرًا من التساؤلات... ونود أن نعرف كلمة العلم..»، والكاتب الفاضل الأستاذ مصطفى نبيل - مدير تحرير مجلة (العربي) - يعبر عن الصدمة التي أصابت الأوساط السياسية والثقافية ذات التوجه القومي - (فما بالنا بالإسلامي؟!) - من هذه « الدراسة »، فيكتب إليَّ يقول: « أتصور أن مقالات الدكتور لويس قد أثارتك مثلما أثارتنا... إنه لا يمكن أن تمر

هذه المقالات بلا تعليق... إنه ليس من المناسب أن نلوث بالوحل أحد رموز النهضة العربية الحديثة.. فلذلك تأثيره على (المشروع العربي)... لقد سبق واطلعت على كتيبٍ صغير لمؤلفةٍ يهودية، صدر في لندن، يردد ذات الأفكار التي يعالجها الدكتور لويس.. »!!.

- بل إن (التضامن) - وهي المجلة التي قبلت أن تنشر « دراسة » الدكتور لويس، بعد أن رفضت وسائل النشر بمصر نشرها - قد أدركت ما بها من خروج عن « المألوف »، فكتب إليَّ رئيس تحريرها الأستاذ فؤاد مطر في مارس سنة (١٩٨٣م) - أي قبل صدور المجلة - يطلب إليَّ الكتابة لها حول « دراسة » الدكتور لويس!.. وعندما نشرت (التضامن) تلك « الدراسة » قدمت لها بما يشبه التنصل مما بها من أفكار، فكتبت في التقديم لها - ضمن ما كتبت-: إن الدكتور لويس « يتحمل اسمه تبعات رأيه، ومناقشته تبدو واجبًا فكريًّا..»!!.

- ولذلك.. فإن من « الحق » - بل ومن « الواجب » - أن نتساءل عن الأسباب التي بلغت « بدراسة » الدكتور لويس عن « جمال الدين » هذا الحد من « القبح المشين »؟!..

- وفي تقديري أن مرجع ذلك أسباب، في مقدمتها:

١ - أن الدكتور لويس قد اشترك بهذه « الدراسة » في الوصول إلى تحقيق « غرض ثأري مبيت »، ولم تكن « الحقيقة

الموضوعية » هي هدفه، ولا هدف الذين دعوه وهيأوا له « الأوراق » التي استند إليها في الأحكام التي أصدرها على جمال الدين.. لقد جاءت هذه « الدراسة » حلقة في المخطط الذي يتصدى لظاهرة « الإحياء الإسلامي » لتهيل التراب على الرمز الذي ارتاد - في عصرنا الحديث - ميدان هذا الإحياء.

٢- ولقد كان طبيعيًّا « لدراسةٍ » هذا هو « غرضها » أن تكون « مصادرها » هي « الأوراق والتقارير والملفات » التي كتبها الجواسيس والعملاء - من موظفي « المباحث » وتلامذة الاستشراق - صهاينة وأشباه صهاينة - فهؤلاء - وأمثالهم - هم « كتيبة التصدي الفكري » لظاهرة « الإحياء الإسلامي » التي قادها جمال الدين الأفغاني!.

فما كان « لغرض الدراسة » ولا لنوعية « مصادرها » إلا أن يثمرا هذا « الشذوذ » الذي خرج به علينا الدكتور لويس - ولقد سبق « نقدنا » لهذين العاملين، فيما تقدم من صفحات - أما القدر من « المعلومات » التي اطلع عليها الدكتور لويس، والخاصة بتاريخ جمال الدين الأفغاني وحركته الثورية التجديدية، فلقد أفسدها - حتى يطوعها لخدمة « الغرض الثأري المبيت »، أفسدها بما امتلأت به « دراسته » من « التشكيك ».. ومن « الافتراء »!!.

٣- ففيما يتعلق بـ « التشكيك »، وليّ عنق « الحقائق » و« المعلومات »، لتذهب فعاليتها، بل ولتعطي الأثر المعاكس

لأثرها الطبيعي، لا أعتقد أنني قد قرأت من قبل « دراسة » بلغت ما بلغته « دراسة » الدكتور لويس، وإذا شئنا الأمثلة على ذلك فلينظر معي القارئ العزيز في هذه المواطن والألوان التي سلكت أكثر الطرق « التواءً » لتفضي إلى « التشكيك » فيما استقر من « حقائق » و« معلومات » عن جمال الدين الأفغاني.

وكل الأئمة والعلماء والأعلام الذين كتبوا عن الأفغاني قد أجمعوا على وضوحه وحسمه، حتى كأنه السيف المسلول في وضح النهار... بل لقد تحدث الإمام محمد عبده عن افتقار الأفغاني إلى « المسايرة والملاينة والكياسة » مع مخالفيه وخصومه، وانتقد هذا الجانب في طبع أستاذه، فقال - بعد الحديث عن إيجابيات طبعه-: « .. إلا أنه كان حديد المزاج، وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة.. »[1]!!.

والأفغاني ذاته يحدثنا حديث الرافض « للتقية » - التي تجعل المرء يظهر غير ما يبطن لدواعٍ يراها - والداعي إلى الجهر بالرأي، مهما كانت المخاطر، ومهما تكن الظروف والملابسات.. يحدثنا الأفغاني عن رأيه في هذه القضية فيقول: « لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازمًا إلا ما كان في علانيته شينًا ومعرةً، ولا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلَّ كتمانهم،

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٥٢).

فدولة تكتم عن أمتها كلَّ أمورها لا خير فيها، ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها، ورجل يرى كل شيء يقال له، أو يجب أن يقوله سرًّا مكتومًا - لا يرجى إلا نفاقه، وما هو بالرجل الرجل، ولا بشبه رجل، (ومن أحب فليعلن)، والمحبة هنا على مطلق المعنى، لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوالٍ وأفعال وصفاتٍ وذاتٍ.. »[١].

لكن الدكتور لويس يأبى إلا أن « يشكك » في هذه الصفة من صفات الأفغاني.. فيتهمه « بالغموض »، و« التقية »، و« ازدواج الشخصية » بل وتعددها.. فيقول: « لقد انتشرت (التقية) بين الشيعة، ونشأ الأفغاني في هذه التقاليد التي جعلت منه مزدوج الشخصية بل ومتعددها، يفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه، وبحسب ظروف الزمان والمكان »[٢].

والدكتور لويس يستعين - هنا - بالخلط لكي يصل إلى « التشكيك » و« التشويه »!.. ذلك أن الفرق بيِّن، والبعد شاسع بين « التقية » وازدواج الشخصية وتعددها، وبين مراعاة حال المخاطب ووضع ظروف الزمان والمكان في الحسبان.. فرسولنا - عليه الصلاة والسلام - يقول: « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم »!، ولقد استقر واشتهر في

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٥٣٦).
(٢) التضامن، العدد ٢ (ص ٧٠).

تراثنا الفكري أن « وحدة الحقيقة » لا تمنع تعدد أساليب الوصول إليها، ولا تعدد أساليب إبلاغها إلى الآخرين، وأن تعدد المستويات الفكرية للناس قد اقتضت - وتقتضي - تعدد وتنوع سبل البلاغ.. فهناك - كما تحدث ابن رشد - السبل « الوعظية »، و« الجدلية »، و« البرهانية »، التي تختص كل واحدةٍ منها بنوعية من المخاطبين! فأين هذه من « التقية.. والباطنية.. وازدواج الشخصية »؟!.. وأين « تشكيك » الدكتور لويس من « الوضوح والحسم » الذي تميز به طبع جمال الدين؟!.

ولقد كانت حياة الأفغاني ودعوته وحركته التجسيد لمقاومة الشرق للعاصفة الاستعمارية التي هبت من الغرب، فزحفت على وطن العروبة ودول الشرق وعالم الإسلام.. والذين قرأوا ويقرأون كتاباته، وخاصةً في (العروة الوثقى) يرون وضوحًا في الهدف، وخبرةً ممتازةً بصراعات السياسة الدولية وتناقضات أقطابها، ومحاولة واعية ودائبة للاستفادة من هذه التناقضات لدفع الآثار المدمرة لعاصفة الاستعمار عن وطن العروبة وعالم الإسلام، ولتحقيق « الدولة النموذج »، التي تنهض بالثقافة الإسلامية، وبثمرات العلم الحديث، فتستقطب شعوب الشرق ودوله في مواجهة التحديات..

تلك كانت رسالة جمال الدين في الحياة.. تجلوها كتاباته.. وتؤكدها نضالاته.. ويجمع عليها أنصاره وأعداؤه دون استثناء!.

... لكن الدكتور لويس عوض يأتي « ليشكك » في هذه الحقيقة، فيجرد قلمه من كل آثار الدقة، بل والأمانة، ليحكم على الأفغاني - حينًا - بأنه كان: « محامي روسيا في السياسة الأفغانية »!.. وحينًا آخر بأنه: « أثناء وجوده في كلكتا - (بالهند) - عرض خدماته على الحكومة البريطانية، ولكنها اعتذرت عن قبولها، مع الشكر!.. ».

- ورغم أن الدكتور لويس - فيما يتعلق بالاتهام الأول - يستند إلى « قصاصة ورقٍ كتبها جاسوس أفغاني يعمل لحساب الإنجليز عمن يسميه « السيد الرومي » - الذي لا دليل على أنه جمال الدين الأفغاني! ».. ورغم دعوة الدكتور لويس إلى الحيطة والحذر فيما يتعلق بتقارير الجواسيس عن خصوم الاستعمار.. إلا أنه لا يتورع عن استخدام « أداة التوكيد »: « إن »، واستخدام كلمة: « بوضوح » ليؤكد نسبة الاتهام إلى الأفغاني، فتقول عبارته: « إن الأفغاني كان بوضوح محامي روسيا في السياسة الأفغانية ».

ثم يمضي ليدعم هذه التهمة بقوله: « إن بعض تصرفاته الغامضة المريبة تدعمها! »، وذلك دون أي ذكر لأي تصرف من هذه التصرفات « الغامضة والمريبة »!!.

بل إن الدكتور لويس يوغل في سبيل « التشكيك » حتى يبلبل قارئه فتضيع من ذهنه « الحقيقة » ضياعًا كاملًا، يوغل

في ذلك إلى الحد الذي يجعله « يشكك » في عمالة الأفغاني للروس، ولكن بالإيحاء بعمالته للعثمانيين!.. فيقول: « إننا قد ننتهي إلى أن جمال الدين كان في نهاية الأمر يخدم مصالح الخلافة العثمانية، منسقًا كفاح مسلمي آسيا الوسطى بما يُمَكِّن مستقبلًا من وحدة العالم الإسلامي تحت الخلافة العثمانية »!.

إن الهدف هو « التشكيك » في عداء الأفغاني للاستعمار، ولما كان إنكار حقيقة عدائه للاستعمار سيجد مقاومة لدى القارئ، فليكن « التشكيك » هو السبيل لإغراق « الحقيقة » في بحرٍ من « الاحتمالات »، من مثل تلك التي تحملها عبارات الدكتور لويس عن الأفغاني: « هل كان حقًا عميلًا للروس، كما توحي الوثائق البريطانية؟.. أم أنه كان مجرد سياسي فاشل، و« رفيق طريق » يرى أنه لا خلاص للمسلمين من براثن الإنجليز إلا بالتعاون مع روسيا؟.. أم أنه كان مثاليًا حالمًا يخطط لاستقلال الهند المسلمة وروسيا المسلمة ويحاول أن يمهد - بالعمل السياسي وبالفكر - لوحدةٍ إسلاميةٍ كبرى؟!.. ».

تشكيك.. واحتمالات.. وعلامات استفهام.. هدفها طمس حقيقة عداء الأفغاني للاستعمار!

أما فيما يتعلق « بالاتهام » الثاني - سعى الأفغاني ليعرض خدماته على الإنجليز -.. فرغم أن « مصدر » الدكتور

لويس هو « إشارة » في تقرير جاسوس إنجليزي كتب عن الأفغاني لحكومة الهند الإنجليزية سنة (١٨٩٦م).

ورغم أن هذه « الإشارة » لا تحدد طبيعة هذه « الخدمات »، فإن الدكتور لويس يتطوع « بالتكهن » - إي واللّه « بالتكهن » - فيقول: « .. ونستطيع أن نتكهن بأن الخدمة التي عرضها الأفغاني على الحكومة البريطانية في الهند، هي أن تعيده إلى مصر لإطفاء الثورة العرابية وتأييد الخديوي توفيق.. »[1]!!.

يتكهن الدكتور لويس هذا التكهن.. بالرغم من سيل الحقائق والمعلومات التي تواترت عن عداء الأفغاني للاستعمار الإنجليزي في كل مكان.. وبالرغم مما كتبه الكاتبون عن هذا العداء الذي بلغ حدًّا جعل البعض يظن أنه عداء « لجنس الإنجليز »، فسألوا الأفغاني عن ذلك، فحدد أنه موجه للاستعمار الإنجليزي، لا للأمة الإنجليزية[2]!.. بل ورغم النصوص التي أوردها الدكتور لويس نفسه في « دراسته » نقلًا عن « بلنت »، وعن الساسة الإنجليز، ومراسلي جريدة « التايمز » الإنجليزية، وكلها تؤكد عداء الأفغاني للاستعمار الإنجليزي ومحاربته له في كل البلاد وفي جميع الميادين!.

---

(١) التضامن، العدد ٤ (ص ٧٦، ٧٨)، والعدد ١٥ (ص ٦٦).

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٤٦٣، ٤٦٤).

إن الدكتور لويس يوغل في « درب التشكيك » إلى الحد الذي يجعله يذكر الشيء ونقيضه؛ ليبلبل القارئ في « الحقيقة » حقيقة عداء الأفغاني للاستعمار.

ففيما يتعلق بخلع الخديوي إسماعيل (١٢٤٥ - ١٣١٢هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٩٥م) عن عرش مصر سنة (١٨٧٩م).. ينقل الدكتور لويس عن أديب إسحق أن هذا « الخلع » كان قد تقرر من قِبَل إنجلترا، وفرنسا، والدولة العثمانية، وأن سعي جمال الدين الأفغاني على رأس (الحزب الوطني) المصري إنما كان ليخلف الأمير « توفيق » - الذي كان يبدي ميله لتعاليم الأفغاني - أباه « إسماعيل » وبدلًا من الأمير « حليم » - الذي كان مع فرنسا -.. ينقل الدكتور لويس هذا.. ثم يعود فيتهم الأفغاني بأنه هو الذي « قاد شرذمة من أعضاء الحزب الوطني، من الإصلاحيين المحافظين الموالين لمحور تركيا - إنجلترا، فعجَّل بالإجهاز على إسماعيل، وعلى انتفاضته الوطنية الدستورية، زائفة كانت أم مخلصة.. »[1]!!.

فكيف يتهم (الحزب الوطني) بأنه هو الذي عجَّل بالإجهاز على الخديوي إسماعيل.. مع الاعتراف بأن « الخلع » كان قد تقرر قبل تحرك (الحزب الوطني)؟!.. ومع الاعتراف بأن هذا التحرك كان خاصًا بمن يخلف إسماعيل؟!.. ثم ما

---

(١) التضامن، العدد ٧ (ص ٦٣، ٦٤).

هي حيثيات اتهام (الحزب الوطني) بالمحافظة، وموالاة محور « تركيا - إنجلترا »؟!.. أليس هذا هو حزب « مصر للمصريين »؟!.. وحزب الثورة العرابية؟!.. أليس هذا الحزب هو عدو التدخل الأجنبي في مصر - والذي كان إنجليزيًّا في الأساس؟!.

وفيما يتعلق بموقف الأفغاني من الاستعمار الإنجليزي أثناء إقامته بالهند، بعد أن تسبب الإنجليز في نفيه من مصر سنة (١٨٧٩م).. يتهم الدكتور لويس الأفغانيَّ بمهادنة الإنجليز.. « وبأن نشاطه لم يكن فيه ما يغضبهم أو يلفت نظر جواسيسهم » - ولقد سبقت إشارتنا إلى اتهامه له بعرض خدماته عليهم! - لكنه يعود فيعترف - عندما ينقل عن « بلنت » - أن آراء الأفغاني المعادية للإنجليز لقيت « انطباعًا حسنًا » عند الزعيم الإسلامي عبد اللطيف.. وأن وضوح هذه الآراء وحدة هذا العداء قد بلغا إلى الحد الذي جعل « مولاي عبد اللطيف يخاف على نفسه من لقاء الأفغاني مخافة غضب الإنجليز.. »؟!.

وبعد أن يعترف الدكتور لويس - نقلًا عن « كتاب القاضي عبد الغفار » - أن: « الإنجليز قد وضعوا الأفغاني تحت المراقبة.. وأنه كان محدد الإقامة ».. يعود فيشكك في الهدف من نفيه إلى الهند، أثناء صراع الإنجليز ضد الثورة العرابية، فيقول: « أما لماذا سمح الإنجليز للأفغاني أن يقيم في الهند،

بعد أن طردوه من مصر، فَأَمْرٌ غير مفهوم؛ فقد كان في إمكانهم أن يشحنوه - (كذا!) - إلى بلاده في إيران، ربما ليضعوه تحت المراقبة، أو ربما لأنه موصى عليه من الباب العالي، صديق الإنجليز في تلك الفترة »[١]؟!.

لقد نقل ما يؤكد عداء الأفغاني للإنجليز عندما كان منفيًّا بالهند.. وكيف كان هناك مراقَبًا محدد الإقامة، ثم عاد ليشكك في الموضوع، وليوهم القارئ بأن الأمر كان مجرد مسرحية مثَّلها الإنجليز مع الأفغاني، تنفيذًا لوصية صديقهم - « في تلك الفترة » - السلطان العثماني!.. وذلك دون أن يسأل الدكتور لويس نفسه: هل كان السلطان العثماني صديقًا للإنجليز في الفترة التي كانوا ينتزعون فيها مصر؟!.. وهي التي فجَّر احتلالها كل تناقضات العثمانيين مع الإنجليز؟!.

بل ويمضي الدكتور لويس ليعلل أسباب نفي الإنجليز جمال الدين الأفغاني من مصر إلى الهند، فيكشف لنا، لا عن « تناقضه » فقط، بل وعن « قلةٍ في المعلومات » نستحي أن نسميها « جهلًا بأبسط الحقائق والمعلومات »!!.. يقول: « وفي تقديري أن قرار الإنجليز بإبعاد الأفغاني إلى مصر يرجع إلى عاملين:

١ - أنهم أدركوا أن الأفغاني يعمل لحساب الباب العالي مباشرةً.

---

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٤ - ٦٦).

٢- أن الأفغاني خرج من حلقات المثقفين، والمناورة مع سادة البلاد إلى خطٍّ جديدٍ منسقٍ غالبًا مع « تركيا الفتاة » وإصلاحي تركيا، يقوم على الإرهاب المتمثل في مؤامرات الاغتيال، وعلى تحريك الشارع، على غرار ما كانت تفعله الجمعيات السرية المألوفة في أوربا في ذلك الزمان (الفوضويون، والنهيلست).. »[١].

ونحن نقول: إن الدكتور لويس لو كان يحترم الحقيقة، ويحترم عقل قارئه لما كتب ما كتب:

(أ) لقد سبق وحكم أن نفي الأفغاني إلى الهند كان بتوصيةٍ من الباب العالي لأصدقائه الإنجليز.. ثم ها هو يذكر أن النفي قد حدث لأن الإنجليز قد أدركوا أنه يعمل لحساب الباب العالي مباشرةً. وفي مكانٍ آخر أورد نص تقرير القنصل الإنجليزي بالقاهرة الذي يتحدث فيه عن حادثة النفي، وفيه يقول: « إن الأفغاني قد حُظِرَ عليه الإقامة في أيٍّ من أجزاء الإمبراطورية العثمانية »![٢]، فكيف تتفق هذه المتناقضات الثلاث؟!.

(ب) وهو يذكر أن الأفغاني يعمل لحساب الباب العالي مباشرةً.. ثم يذكر - في ذات الفقرة - أنه يعمل مع « تركيا الفتاة » و« إصلاحي تركيا »، ويغفل - أو يتغافل - عن أن

---

(١) التضامن، العدد ٨ (ص ٦٢).

(٢) التضامن، العدد ١ (ص ٥٥).

« تركيا الفتاة » و« إصلاحي تركيا » هؤلاء هم أعداء الباب العالي الذي قال: إن الأفغاني يعمل مباشرةً لحسابه!!.

(جـ) والدكتور لويس يتحدث عن نفي الأفغاني من مصر سنة (١٨٧٩م) ويعلله بتنسيق الأفغاني مع « تركيا الفتاة »، وذلك دون أن يكلف نفسه مؤونه سؤال أهل الذكر عن تاريخ نشأة « تركيا الفتاة »؟.. تلك التي بدأت جنينًا في صفوف الطلاب الأتراك في جنيف سنة (١٨٩١م) - في رأي - أو في سنة (١٨٩٤م) - في رأي آخر - ثم هي لم يعرف لها نشاط داخل الدولة العثمانية إلا في العقد الأول من القرن العشرين.. أي: بعد وفاة جمال الدين الأفغاني بسنواتٍ طويلة[1].. فكيف نسَّق الأفغاني نشاطه، أثناء إقامته بمصر - في سبعينات القرن التاسع عشر - مع جماعةٍ هي من ثمرات القرن العشرين.. عندما كان في رحاب مولاه؟!.

(د) كذلك لم يسأل الدكتور لويس نفسه - ولو من باب الاحترام لعقل القارئ - كيف يكون التنسيق بين دعوة « الجامعة الإسلامية » - التي هي كما يقول - الخط الأصيل في تفكير الأفغاني السياسي[2] -.. وبين دعوة « تركيا الفتاة »، التي تعني سيطرة القومية الطورانية على دولة

---

(١) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (٢ / ٣٥٠)، طبعة بيروت سنة (١٩٥٨م). ولوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث (ص ٣٩٤) طبعة موسكو سنة (١٩٧١م).

(٢) التضامن، العدد ٥ (ص ٦٨، ٧٠).

الخلافة؟!.. كيف باللّـه، يمكن أن يتم هذا التنسيق- على فرض المستحيل - وهو وجود « تركيا الفتاة » في عصر جمال الدين؟!!.

ولما كان شهود العصر، وأئمته، ومؤرخوه، وعلماؤه الأعلام قد أجمعوا على امتياز جمال الدين وتفرده وتميزه، في كل موطن عاش وناضل فيه.. فلقد شقَّ الدكتور لويس على نفسه وعلى الحقيقة وعلى قرائه كي « يشكك » في قيمة وأهمية جمال الدين!.

(أ) فالمحاضرة التي ألقاها الأفغاني عن « الصناعات.. وفلسفتها » في (دار الفنون) بالآستانة.. والتي سببت أزمةً عنيفةً مع « مشيخة الإسلام » العثمانية، انتهت بنفي جمال الدين من عاصمة الدولة العثمانية.. هذه المحاضرة - وما أحدثته من أحداثٍ وجدلٍ وصراعٍ - يُتفه الدكتور لويس من شأنها، فيقول: « وغير صحيح بأن محاضرته الثورية - مسببة الأزمة - أقامت الدنيا وأقعدتها - كما صور - وإنما كانت مجرد فقاعة في الجو الثقافي التركي سرعان ما انفثأت.. »!.

ونحن إذا جعلنا « دراسة » الدكتور لويس مصدرنا الوحيد، وذهبنا نجمع منها الآثار وردود الأفعال التي أحدثتها هذه المحاضرة.. فسنجد:

١ - أن شيخ الإسلام العثماني حسن أفندي فهمي قد طلب من الصدر الأعظم عالي باشا إصدار الأمر بطرد الأفغاني

من البلاد.. ولقد استجاب الصدر الأعظم لذلك فصدر أمر الطرد.

٢- أن أمرًا سلطانيًّا صدر من السلطان عبد العزيز (١٢٤٥ - ١٢٩٣هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٧٦م) بفصل جمال الدين الأفغاني من «مجلس المعارف» العثماني.. وبفصل مدير الجامعة - (دار الفنون) - تحسين أفندي كذلك!.

٣- أن لجنة من هيئة كبار العلماء قد شُكلت لإصدار الحكم على الأفغاني وإصدار الفتوى بحكم «الشرع» - كما تراه مشيخة الإسلام العثمانية - في محاضرته.. وأن رأي هذه اللجنة وحصيلة مداولاتها قد صدر - في صورة كتاب عنوانه (السيوف القواطع) - وعليه اسم أحد أعضائها - خليل فوزي - في سنة (١٨٧٢م).. وفيه حديث عن مهمة اللجنة التي تشكلت للرد على «زندقة» الأفغاني.. وعن الكتاب الذي هو ثمرة لمداولاتها، والذي كُتِبَ تنفيذًا لأوامر الخليفة السلطان لنصرة الدين وتسفيه «الفلاسفة الحقراء».. والنتيجة التي وصل إليها «شيوخ الرجعية العثمانية» هي أن الأفغاني مرتد، وإذا لم يعلن توبته فقد حق قتله!!.

٤- وأن الصحافة الأوربية في إستانبول - وليس التركية والعربية فقط - قد خاضت عباب المعركة التي أثارتها هذه المحاضرة[1].

---

(١) التضامن، العدد ٥ (٦٨، ٧٠).

٥- وأخيرًا.. استمرت هذه المحاضرة تثير ردود الأفعال، فيكتب الشيخ مصطفى المغربي رسالة عنوانها: (عين الصواب في الرد على من قال: إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب) يشير إليها ابنه الشيخ عبد القادر المغربي - تلميذ الأفغاني - الذي برَّأ الأفغاني مما اتهمه به أبوه[1]!!.

يذكر الدكتور لويس كل هذه الوقائع التي مثَّلت أحداثًا وردود أفعال لمحاضرة الأفغاني عن « الصناعة وفلسفتها ».. لكنه كي « يشكك » في أهمية الأفغاني ويقلل من قدره، يقول عنها: إنها « مجرد فقاعة في الجو الثقافي التركي سرعان ما انفثأت ..»!!، تُرى ماذا كان يريد لهذه « المحاضرة » أن تصنع، حتى لا تكون « مجرد فقاعة »؟، هل كان يريد لها أن « تقلب نظام الحكم في دولة آل عثمان »؟!!.

والدكتور لويس عوض يذكر في « دراسته »: إجماع محمد عبده، وأديب إسحق، وسليم العنحوري، وجرجي زيدان، وعامة معاصري الأفغاني، من المصريين وأبناء البلاد العربية على ثلاثة أشياء:

الأول: هو دور الأفغاني الكبير بين المثقفين والعامة في خلع الخديوي إسماعيل.

والثاني: هو دور الأفغاني الكبير بين المثقفين في التمهيد للثورة العرابية.

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١ / ٣٢).

والثالث: هو دور الأفغاني الخاص في حركة التحرير المصرية، إلى جانب دوره العام في حركات التحرير الإسلامية في مواجهة الاستعمار البريطاني على وجه التخصيص... »[١].

يذكر الدكتور لويس هذا الإجماع على أهمية دور الأفغاني وتفرده، وامتيازه، وريادته في هذه الميادين.. وهو إجماع شهود العصر ورجالاته وأعلامه الذين عاصروا الأفغاني، بل وشاركوه صنع الكثير من الأحداث في هذه الميادين، لكن الدكتور لويس يمضي على درب « التشكيك » متوهمًا القدرة على هدم هذا « الإجماع »!.

ونحن نعلم أن « الشك » فيما أجمع عليه علماء عصر من العصور أو اتفق عليه مفكروه ليس منكرًا من القول ولا زورًا... فـ « الشك المنهجي » الذي هو طريق المفكر إلى « اليقين » أمر مشروع، بل ومطلوب.. لكن الذي صنعه الدكتور لويس كان شيئًا مختلفًا ومخالفًا.. إنه « الشك العبثي ».. بل « التشكيك » الذي بلغ حد الهدم والنقض للحقائق التي اضطر الدكتور لويس - أحيانًا - إلى الاعتراف بها أو إلى إيرادها إذا كانت منصفةً لسيرة جمال الدين!!..

(أ) ففي حديثه عن خطبة الأفغاني بقاعة « زيزينيا » بالإسكندرية، يذكر « أن أهم ما جاء في هذه الخطبة هو:

- إبراز الأفغاني لدور « القوميات » في نهضة الأمم..

---

(١) التضامن، العدد ٧ (ص ٦٢).

- وإدانته للتعصب الديني..

- استبداد الحكام..

- ودعوته لإنشاء تنظيم سياسي - هو الحزب الوطني - ليحمي النظام النيابي..

- ودعوته لحرية الاجتماع، وحرية الصحافة..

- وتعليم المرأة..

- والأخذ - عامةً - بأسباب القوة والتقدم في الحضارات الأجنبية.. »[١].

هذا هو تلخيص الدكتور لويس لمحاضرة الأفغاني في « زيزينيا ».. والذين يتأملون هذه « المحاور » التي دارت حولها هذه الخطبة لا بد مدركون لمبلغ ثوريتها وتقدميتها، بمقاييس مجتمعاتنا المعاصرة، فما بالنا بهذه المجتمعات في سبعينات القرن الماضي.. أي منذ أكثر من قرن من الزمان؟!.

لكن الدكتور لويس - بعد ذكره لأفكار الأفغاني الثورية هذه يعود - في الصفحة التالية من « دراسته » - لينفي عن الأفغاني شرف « الثورية »، بل وليتهمه « بالاندماج في الحركات الوطنية والتقدمية المصرية كي يحكم جنوحها إلى التطرف الراديكالي.. »!![٢].

وهنا نتساءل: أيّة « راديكالية » تلك التي تتجاوز - في

---

(١) التضامن، العدد ٩ (ص ٥٩).

(٢) التضامن، العدد ٩ (ص ٦٠).

مثل تلك البيئة وذلك التاريخ - ذلك « البرنامج الثوري » الذي طرحه جمال الدين؟!.. ولكنه « التشكيك »!.

(ب) وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا - ومن قبلهم زعماء الثورة العرابية وخصومها - على دور الأفغاني في التمهيد لهذه الثورة، إن في الفكر أو في تربية القيادات التي فجرتها وقادتها.. فإن الدكتور لويس يذهب في « التشكيك » بهذه الحقيقة لا إلى حدِّ إنكارها فقط، بل وإلى محاولة إثبات نقيضها!.. يقول: « غير صحيح ما يقوله محمد عبده وغيره من أن دور الأفغاني في تحريك الفكر المصري كان أهم عامل في إشعال الثورة العرابية، بل على العكس من ذلك، لقد أدت أفكار الأفغاني العثمانية إلى استقطاب ذلك الجناح المحافظ بين مجاهدي الحزب الوطني الحر ثم مجاهدي الثورة العرابية بما أحبط الثورة العرابية بتوجيهها في مساراتٍ دينيةٍ بدلًا من تعميق جذورها المصرية[1] »!!.

إنه يُحمِّل الأفغاني مسؤولية فشل الثورة العرابية، بدلًا من الغزو والاحتلال الإنجليزي الذي حارب جيش الشعب بقيادة عرابي وهزمه مستعينًا بالخيانة!.. فبدلًا من إلقاء المسؤولية - في فشل الثورة - على الإنجليز والخونة، يذكر عبارةً غامضةً تجعل الفشل ناتجًا عن « توجيه الثورة في مساراتٍ دينيةٍ بدلًا من تعميق جذورها المصرية »!.

---

(١) التضامن، العدد ٩ (ص ٥٨، ٥٩).

وهنا لا بد من التساؤل: ما هي « هذه المسارات الدينية »؟

إننا نعلم أن الثورة العرابية قامت وهزمت وهي ترفع شعار: « مصر للمصريين ».. بمعنى: العداء للتدخل الأجنبي والنهب الخارجي الذي كان أوربيًا في الأساس.. وهذا هو جوهرها ومحتواها الوطني.. وأنها قامت وهزمت وهي مخلصة للحرية والديمقراطية والدستور.. وهذا هو جوهرها ومحتواها الديمقراطي.. وأنها قد قامت وهزمت وهي مجسدة لأروع صور « الوحدة الوطنية » بين طوائف الأمة ومذاهبها الدينية.. فـ « المجلس العرفي » برلمان الأمة الثائرة - قد ضم أربعمائة من قادة الأمة، بينهم كل الممثلين الروحانيين لجميع الطوائف الدينية مسلمين ومسيحيين - بكل طوائفهم - ويهود[1].. و« البند » الخامس في برنامج (الحزب الوطني الحر)- حزب الثورة العرابية - يتحدث عن « الوحدة الوطنية » لأبناء الأمة - على اختلاف عقائدهم الدينية - فيقول: « الحزب الوطني حزب سياسي، لا ديني - (بمعنى أنه غير طائفي، وليس بمعنى أنه ضد الدين!) - فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه؛ لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات، ويعلم أن الجميع إخوان، وأن حقوقهم في

---

[1] سليم نقاش مصر للمصريين، (٥ / ١٣٠)، طبعة الإسكندرية سنة (١٨٨٤م).

السياسة والشرائع متساوية، وهذا مسلَّم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء، وتعتبر الناس في المعاملة سواء.. »[١]!.

فإذا علمنا أن الذي صاغ هذا البرنامج هو الشيخ محمد عبده، تلميذ الأفغاني ومريده.. زاد التساؤل إلحاحًا عن ذلك « الجناح المحافظ » - في الحزب الوطني الذي يقول الدكتور لويس: إنه - تبعًا للأفغاني - قد قاد الثورة العرابية إلى « المسارات » الدينية التي أحبطتها »؟!.

لكنه « تشكيك » فيما غدا - في تاريخنا - بديهيات مثَّلت وتمثل صفحاتٍ مشرقةً في ذلك التاريخ!.

بل إن الدكتور لويس يذهب - على هذا الدرب - إلى حدود « الافتراء » على الأفغاني افتراءً يستفز كل صاحب ضمير.. إنه يتهم الرجل - الذي كان منفيًّا، ومحدد الإقامة، ومراقَبًا من قِبَل الإنجليز بالهند، أثناء الثورة العرابية - يتهمه بالمسؤولية عن « المنشور السلطاني » الذي أعلن « عصيان عرابي » في سبتمبر سنة (١٨٨٢م)!!.

يقول الدكتور لويس - في فقرةٍ لم تنشرها (التضامن)، ورجعنا فيها إلى أصل « دراسته » (ص ١٠٧)-: « ومن يدرس تاريخ الثورة العرابية يعرف أن « منشور العصيان »،

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (١ / ٣٦٩).

وإعلان خروج عرابي ورجاله من الملة والدين، حين كانت جيوش الإنجليز تطرق أبواب القاهرة كان من طبيعة الأشياء التي كان الأفغاني يدعو إليها.. »!!.

أما كيف؟.. فلا يذكر الدكتور لويس أيَّة حيثيات لهذا « الافتراء »!.. وهنا نتساءل: هل الرابطة - رابطة الجامعة الإسلامية - التي أرادها الأفغاني بين مصر وبين الخلافة العثمانية، كانت من أجل مواجهة الاستعمار الأوربي - الذي تصدت له الثورة العرابية؟؟ - أم أنها كانت من أجل تسهيل مهمة هذا الاستعمار - كما حدث ووظف له « منشور العصيان »؟؟.

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ نص « منشور العصيان » - كما يبدو - أو قرأه ثم أضاف إليه من عنده.. فإننا نقول له: إن « المنشور » لم يذكر « خروج عرابي ورجاله من الملة والدين »، وإنما ذكر - في البند الخامس - عبارة « بناء على ما تقدم، يحسب عرابي باشا وأعوانه عصاة، ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية[1] ».. ونحن إذا نحينا « الغباء السلطاني والتخاذل العثماني » جانبًا أبصرنا دور « الخداع الإنجليزي » في صدور هذا المنشور.. فلقد كان إعلانه شرطًا إنجليزيًا لدخول الجيوش العثمانية لمصر، كبديل للجيش الإنجليزي.. فلما صدر المنشور فأضعف موقف عرابي

---

(١) مصر للمصريين (٥ / ٢٠١).

والثورة، تشددت إنجلترا في شروطها، بأن طلبت عدم دخول الجيوش العثمانية إلى الإسكندرية وبورسعيد والسويس، وبقاءها في دمياط ورشيد وأبي قير، بل وطلبت أن تكون قيادة الجيوش العثمانية للجنرال الإنجليزي « ولسلي »!.. ولقد رفض السلطان الشروط الإنجليزية، فلم يتم الاتفاق، واستفاد الإنجليز من « منشور العصيان »، وتجاوزوا ظرف السماح بالتدخل العثماني كي لا يكون بديلًا لاحتلالهم مصر.. ولقد تعللت إنجلترا بأنها ضبطت كتابًا مرسلًا من السلطان إلى عرابي، وأعلنت أن العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابي والآستانة، بالرغم من مناداة السلطان بعصيان عرابي ورجاله.. وقالت « التايمز » الإنجليزية: « إن هذا الكتاب لو نشر لكان له تأثير عظيم[١] »!!.

فهو - إذن - « الغباء السلطاني والضعف العثماني »، و« الخداع الإنجليزي » - وليس فكر جمال الدين الأفغاني - المسؤول عن « منشور العصيان »!.

ثم.. ألم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغاني في (العروة الوثقى) إدانة لهذا المنشور؟!.. لقد كتب يقول: « إن على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لولا فرمانها بعصيان عرابي لما سهل للإنجليز أن يدخلوا أرض مصر، ولا أصابوا هذه الغنيمة باردةً، فلتنظر إلى قوتها ونفوذها، وتلاحظ أن الحل على من

---

(١) مصر للمصريين (٥/ ٢٠١ - ٢٠٣).

عقد، والعقد على من حل.. وعليها ألا تغفل عن النمسا وشرها، والروسيا وطمعها، وفرنسا وآمالها، فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع، وإذا فرَّط متساهل في ملته فلن يجد منهم فيما بعد عونًا؟!.. »[1].

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ هذا الذي كتبه الأفغاني إدانةً لـ « منشور العصيان ».. فلم لم يتأمل ما أورده هو، في « دراسته »، نقلًا عن « بلنت »، الذي ذكر أن جمال الدين قد وضع - في مفاوضاته مع الإنجليز لإنقاذ « غوردون » المحاصر من قبل مهدي السودان في الخرطوم، ولحل المشكل السوداني - قد وضع ضمن شروطه شرط « إعادة عرابي من المنفى » إلى مصر[2]؟!.

ولكنه « التشكيك »، الذي يغفل - بل ويتغافل - عن الحقائق، حتى يصل إلى حد « الافتراء »!.

(جـ) فإذا ما تعلق الأمر بالمكانة العامة للأفغاني بمصر، وبدوره القيادي في مجتمعها أثناء إقامته بها، لم يتوان الدكتور لويس عن الإسراع للتهوين من شأن الرجل.. فهو يورد فقرات من التقرير الذي كتبه القنصل الإنجليزي بمصر « السير فرانك لاسيلز » إلى وزير خارجيته اللورد سالسبوري،

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (٢ / ١٦٨).

(٢) التضامن، العدد ٢١ (ص ٦٢).

في ٣٠ أغسطس سنة (١٨٧٩م) بخصوص نفي الأفغاني من مصر.. فنقرأ فيه - وصفًا للأفغاني - هذه العبارات: « .. وجمال الدين - فيما يبدو - رجل ذو طاقةٍ ضخمةٍ وصولةٍ كبيرةٍ كخطيب، وقد استحوذ تدريجيًّا على قدرٍ من التأثير في سامعيه فكان مصدر خطر، وفي العام الماضي قام بدورٍ إيجابي في إلهاب الشعور المعادي ضد الأوربيين، وبصفة خاصةٍ ضد الإنجليز الذين يحمل لهم كراهةً عميقةً.. إنَّ جمال الدين سبق نفيه من وطنه، ومن مدراس، ومن مدينة الجزائر، ومن إستانبول على التعاقب، وقد حظر عليه الإقامة في أي جزء من أجزاء الإمبراطورية العثمانية.. ».

تلك هي صورة الأفغاني - كما صورها القنصل الإنجليزي - وهي صورة القائد الذي يقود الأمة، والذي يناصبه الاستعمار وتناصبه الرجعية العداء الشديد، إلى الحد الذي جعلوا حياته نفيًا وتشريدًا دائمين، ومع ذلك نجد الدكتور لويس يعقب على هذه الأقوال - لا فض فوه ولا حرمنا من « أمانته » - فيقول: « ماذا نستخلص من كل هذه الأقوال؟ نستخلص أن جمال الدين الأفغاني في قمة نشاطه في مصر سنة (١٨٧٩م) لم يكن علمًا من أعلام البلاد أو زعيمًا بارز المكانة في الحياة المصرية.. »[1]!!.

---

(١) التضامن، العدد ١ (ص ٥٥).

تلك هي « الخلاصة » التي « استخلصها » الدكتور لويس من تقرير القنصل الإنجليزي عن جمال الدين!.

(د) وحتى « الذمة المالية » للأفغاني لم تسلم من « تشبكيك » الدكتور لويس!.

إن الذين عاصروا الأفغاني وعاشروه قد أجمعوا على أنه قد عاش « درويشًا فقيرًا » لا يقيم وزنًا لعرض الدنيا، حتى لقد عدل عن أن يصحب معه رداءً بديلًا، بعد تكرر نفيه من بلدٍ إلى بلد، فكان إذا خلقت ثيابه استبدلها بأخرى!.. وكتب الإمام محمد عبده عن هذا الجانب من حياته، فقال: « .. وهو كريم يبذل ما بيده.. عظيم الأمانة.. قليل الحرص على الدنيا، بعيد عن الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه!.. »، لقد قرأ الدكتور لويس هذا الوصف وأورده في « دراسته »، ولكنه سلك - هنا أيضًا - سبيل « التشكيك » في « الذمة المالية » للرجل.. فكتب يتساءل: « من أين للأفغاني بكل هذه النقود حتى يساعد كل هؤلاء المهاجرين الشوام على إصدار كل هذه الجرائد وتأسيس كل هذه المطابع؟!.. »، ثم لا يلبث أن يقطع بأن « مصدر التمويل كان الباب العالي بصفةٍ أساسية، وفرنسا بصفةٍ فرعية.. »، وهو يقطع ويؤكد استنتاجًا، ودونما دليل!.

ومن « الحق » و« الواجب » أن نسأل: هل أسس الأفغاني مطابع للصحف التي ساعد على إصدارها في مصر؟.. إن

صحيفة (مصر) صدرت من « دكان في حي باب الشعرية » الشعبي.. كما صدرت (العروة الوثقى) من غرفةٍ على سطح المنزل رقم ٦ في شارع « مارسيل » بباريس.. ولم تكن هناك « المطابع التي تأسست »، والتي يتحدث عنها الدكتور لويس، والذي يزيد من غرابة « العقلية المباحثية » التي يتحدث بها الدكتور لويس عن « التمويل » للصحف الشعبية التي ساعد الأفغاني على صدورها.. أن الدكتور لويس قد عاش حقبةً من التاريخ المصري - فيما قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة (١٩٥٢م) - كانت الصحف الشعبية تصدر فيها بالقروش التي يتبرع بها الفقراء.. ومع ذلك فعلت هذه الصحف ما لم تفعله صحافة المطابع والمؤسسات.. فلم هذا الغبار المثار في غير موضعٍ، وبلا سببٍ من الأسباب؟!

ثم.. إن الجميع يعلم - علم اليقين - أن افتراق محمد عبده عن الأفغاني في سنة (١٨٨٥م) - بعد توقف (العروة الوثقى) قد كان لاختلاف تصور كل منهما « لسبيل » تحقيق الأهداف المتفق عليها.. والدكتور لويس يسلم « بالطابع الفكري » للخلاف بين الرجلين، ويقول: « .. نحن نعلم - على وجه اليقين - أن خلافًا نشب بين الأفغاني ومحمد عبده في أواخر فترة (العروة الوثقى)، وهو خلاف ذو طابع فكري؛ لأنه خلاف بين منهجين: منهج المفكر محمد عبده، ومنهج السياسي الأفغاني، كلاهما أراد

تجديد شباب الإسلام وتحرير العالم الإسلامي، ولكن على طريقته .. »[1].

لكن الدكتور لويس لا يمهلنا كي نهنأ بهذا التقويم الموضوعي لخلاف محمد عبده مع الأفغاني.. فيسرع - وفي ذات الصفحة من « دراسته » - ليتساءل عن السبب - الذي سبق وقطع بيقين أنه فكري - يتساءل مشككًا -: « هل كان بسبب خلاف على المال »؟!.. ثم لا يتورع عن أن يمضي ليقول: « إن كل الأموال كانت تصب في جيب الأفغاني، وهو يتولى الإنفاق »، وينسب إلى أعضاء « جمعية العروة الوثقى » التونسيين ما لم يقولوه، وينسب إلى محمد عبده ما لم يقله.. كل ذلك « للتشكيك » في « ذمة الأفغاني المالية »!.. فيقول: « لعل - (لاحظ معنى « لعل »!) - التونسيين قبضوا المعونة عن محمد عبده - عندما زارهم -؛ لأنهم كانوا يعلمون أن الأفغاني تلقى ما فيه الكفاية وأكثر. من يعرف؟ - (لاحظ الاعتراف بأن لا أحد يعرف!) - لعلهم - (لاحظ معنى « لعلهم »!) - قالوا أشياءً لمحمد عبده أبت عفته أن يتكلم فيها.. »؟!.

إن التونسيين لم يقولوا شيئًا ضد الأفغاني.. ومحمد عبده لم يذكر إلا ما ذكر عن أمانة الأفغاني وكرمه وقلة حرصه على الدنيا - وهو كلام كتبه في التقديم لترجمة (الرد على

---

(١) أصل الدراسة (ص ١٨٨).

الدهريين) عندما أقام في بيروت، بعد فراقه للأفغاني؟! -، والدكتور لويس يقول إنه: « لا أحد يعرف » شيئًا عن هذه الأمور.. ومع ذلك يمعن في « التشكيك » مستخدمًا أدوات « هل »، و« لعل »، و« لعلهم »، على نحو غريب؟!.

وإذا ما قرأ في تقارير الجواسيس الإنجليز - التي يسميها « وثائق » - كلامًا عن أموال تلقاها الأفغاني من بعض الشخصيات مثل: خير الدين التونسي، والجنرال حسين باشا، لم يكلف نفسه البحث ليعرف أن هذه الشخصيات كانوا أعضاءً في (جمعية العروة الوثقى)، يؤدون لها « الاشتراك » المالي، وإنما نراه متلهفًا على اتهام الأفغاني بجمع الأموال؛ لتصب في جيبه، وليتولى وحده الإنفاق!!.

تلك نماذج - مجرد نماذج - من « التشكيك » الذي امتلأت به « دراسة » الدكتور لويس عن جمال الدين الأفغاني!.

● أما فيما يتعلق « بالافتراءات » التي اجتهد الدكتور لويس كي يلصقها بفكر الأفغاني، وعقيدته، وأسلوب حياته.. فلقد تناثر منها في صفحات « دراسته » الكثير من النماذج، حتى لقد نافست في العدد نماذج « التشكيك »!.

لقد سبق وأوردنا قول محمد عبده عن الأفغاني: « إنه أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه.. وله حمية دينية لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرةً على الدين

وأهله.. »، وقول « بلنت » عنه: «.. إن كل ما فيه آسيوي، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية ».

لكن الدكتور لويس يتوكأ على « قصاصة ورق » كتبها جاسوس إنجليزي عمن وصفه « بالسيد الرومي »، فيفتري على الأفغاني تهمة « التفرنج في الفكر والسلوك ».. كما يستند إلى إحدى الشهادات التي جمعها الشاه الإيراني المعادي لجمال الدين، والتي تتحدث عن « إفطاره علنًا في نهار رمضان » أيام إقامته في النجف العراقية..![1].

والغريب في الأمر هو أن الدكتور لويس لا يكتفي بتزكية « الرواية » والأكذوبة التي اخترعها من زعموا قرابتهم للأفغاني، من أهل « أسد آباد » الإيرانية.. بل مضى فحمل افتراءاتهم فوق ما حملوها!!.

فإذا قال قائلهم: إن سبب رحيل جمال الدين من « أسد آباد » إلى « قزوين » - وهو في العاشرة من عمره - « أن فتنةً نشبت بين (السادة) هناك ».. « وأنه قد شاع في النجف - فيما بعد أثناء إقامته بها - أن الفتى جمال الدين هو المهدي المنتظر.. رغم إنكار جمال الدين لهذا الذي شاع عنه.. ».

إذا قال قائلهم ذلك لم يكتف الدكتور لويس بالتزكية والتصديق.. وإنما تطوع بالزيادات والإضافات.. فمرجعه

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٧٠).

يقول: إن جمال الدين كان ينفي أسطورة أو « إشاعة » المهدية المنسوبة إليه.. لكن الدكتور لويس يقول: « ولا شك - (لاحظ مغزى استخدام « ولا شك »!) - أن جمال الدين بأقواله وأفعاله، صراحةً أو بالإيحاء، بالخداع أو بالإيمان، كان يغزي هذه الأساطير التي كانت تنسج من حوله.. »!.

ثم يتطوع ليرجح أن هذه الأساطير هي سبب الفتنة التي حدثت من قبل في « أسد آباد »!!.. فهو يجعل لأسطورة « النجف » تأثيرًا - بأثر رجعي - في مرحلة « أسد آباد ».. ثم هو لا يطلب من نفسه القليل من الاتساق في التفكير.. فمن يشيع حول نفسه أسطورة المهدية.. ومن يغذي الزعم بأنه « يوحى إليه بأنه المهدي المنتظر »، هل يليق به، وهل يدعم من مسعاه هذا - في بيئةٍ محافظةٍ في تدينها كالنجف - « عدم الاهتمام بالمحافظة على شعائر الدين.. والإفطار علنًا في رمضان؟!»[1].

لقد كنا ننتظر من الدكتور لويس أن يقف من هذه « الشهادات » التي ضمها كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) - والذي سبق لنا الحديث عن قيمته - أن يقف منها موقف الناقد المتمثل للحكمة الشعبية المأثورة: « إذا كان المتحدث مجنونًا فليكن السامع عاقلًا »!.. لكن الدكتور لويس - مع الأسف - لم يصنع ذلك.. بل لقد أضاف - من عنده - التخريجات

---

(١) « التضامن » العدد ٢ (ص ٦٩).

والاستنتاجات التي زادت الطين بلةً بتدعيمها لهذه الافتراءات!.

كان الأفغاني « فيلسوفًا - متصوفًا »، و« درويشًا - (فقيرًا) - زاهدًا »، لكن الدكتور لويس عوض إمعانًا منه في « الافتراء » على الرجل - ولزيادة حرصه على إهالة التراب والوحل على الرمز الأسطوري الذي ارتاد للأمة طريق البعث الإسلامي في عصرنا الحديث - قد أراد أن يقدم لقرائه جمال الدين الأفغاني « سكيرًا »!!.. وفي سبيل بلوغ هذه الغاية لم يكتف الدكتور لويس بالافتراء على جمال الدين، بل لقد افترى على الذين أرَّخوا له أيضًا!.. فكتب في دراسته يقول: « .. أما تردد الأفغاني على القهاوي والبارات فيشهد به محمد عبده وسليم العنحوري.. »[1]!.

فهل - حقًا - شهد محمد عبده، وسليم العنحوري بتردد الأفغاني على « البارات » - (بصيغة الجمع.. أي أن الأمر لم يقف عند « التردد » على بار واحد) -؟!.. لننظر..

إن عبارة محمد عبده التي تتحدث عن الأماكن التي كان الأفغاني يستطيب التنزه فيها والجلوس بها، وعقد مجالسه بين ربوعها، تشير إلى جلوسه في المتنزهات العامة، وفي « المقهى » الحديث الذي يماثل - في عصره - « الكازينو » -

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٧٠).

في عصرنا الحالي - وهي أماكن لم يكن مألوفًا - في ذلك العصر - من الشيوخ والعلماء ارتيادها.. وليس في عبارة محمد عبده ما زعمه الدكتور لويس، من تردد الأفغاني على « البارات ».. يقول الأستاذ الإمام: « وكان - (الأفغاني) - يتوسع في إتيان بعض المباحات، كالجلوس في المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار، وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدًا من اللغو منزهًا عن اللهو، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء - (ضباط الجيش) - وأرباب المقامات العالية وأهل العلم.. ».

ثم يمضي الأستاذ الإمام ليرد نقد الناقدين ذهاب الأفغاني إلى هذه المتنزهات العامة، فيقول: « وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن اللّـه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وأي غضاضة على المرء أن يفرج بعض همه بما أباح اللّـه له؟!..[1] ».

أما سليم العنحوري فهو وإن سمى هذا المكان الذي كان يجلس فيه الأفغاني، ويعقد به منتداه: « ملهى »، إلا أنه يحدد صراحةً أن هذا « الملهى » هو بالتحديد « قهوة متاتيا » المجاورة لمبنى « البريد » - (البوسطة) - بميدان العتبة الخضراء، بالقاهرة... يقول العنحوري عن مجلس جمال الدين:

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٥٣).

« وكان مجلس علمه في (ملهى) قرب الأزبكية، يدعى (قهوة البوسطة).. »[1].

فهو « مجلس علم » - كما قال العنحوري -، وهو المنتدى الذي كان يتحلق حول الأفغاني فيه طليعة المجتمع المصري من المدنيين والعسكريين الذين جددوا حياة الأمة الفكرية والعملية، وارتادوا بالشرق ميدان الثورة للمرة الأولى في العصر الحديث.. إنه المكان الذي تكون فيه قادة من أمثال: محمد عبده، والبارودي، وعرابي، والنديم، وسعد زغلول.. إلخ.. إلخ.. إلخ..، لكنه بمقاييس افتراء الدكتور لويس - « بار »، بل و« بارات »!!.

وتتعدد الافتراءات التي يقذف بها الدكتور لويس كل من وقف عند الحقيقة في تأريخه لحياة جمال الدين.. وفي مقدمتهم الأستاذ الإمام!..

فإذا ذكر محمد عبده حقيقة أن الأفغاني لم يدرس بالأزهر، وأنه لم يذهب إليه إلا مصليًا أو زائرًا، وأن مجلس علمه كان في منزله.. لم يعجب ذلك الدكتور لويس، ورأيناه يسلك لنقض هذا القول سبلًا توقعه في أخطاءٍ لا يقع فيها بصير بكتابة التاريخ!!.. إنه يقول: « وربما كان اهتمام محمد عبده بإبراز أن الأفغاني لم يدرِّس بتاتًا في الأزهر جاء من الأفغاني

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٤٤).

نفسه، من حيث حرصه على إخفاء صداماته مع علماء الأزهر، حتى لا يخيف تلاميذه من المجاورين[١] ».

ففي رأيه أن محمد عبده يكذب - تبعًا لكذب الأفغاني - عندما ينفي تدريس الأفغاني بالأزهر، كي لا يبرز صداماته مع شيوخ الأزهر، فيخاف منه المجاورون فلا يقبلون على دروسه!!.

ولو كان الدكتور لويس عوض يحترم عقول قرائه لاحترم الحقيقة ولما سود الصفحات بمثل هذا « الكلام »!.. فلو كانت للأفغاني صدامات مع شيوخ الأزهر عندما كان يجلس فيه لعلمها المجاورون - (من طلاب الأزهر) - ولما أفلح محمد عبده في إخفائها عنهم؛ لأنهم مثله شهود عيان!!، ثم - وهذا هو الأهم - إن محمد عبده قد كتب هذا الذي كتبه عن الأفغاني في تقديمه لرسالة (الرد على الدهريين) وهو منفي ببيروت سنة (١٨٦٦ م)، وكان الأفغاني في باريس.. فأين كان الأفغاني - يومئذٍ - من مصر، ومن الأزهر، ومن المجاورين، حتى يكذب محمد عبده، فيخفي تدريس الأفغاني بالأزهر وصداماته مع شيوخه كي يطمئن له المجاورون فيتتلمذون على يديه؟!.

أهذا كلام ياعزيزنا الدكتور لويس؟!.. على كل حال فنحن نحمد اللّـه على أن هذا هو مبلغ جهدك في دعم ما

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٧٠).

رميت به الأفغاني من « الافتراءات »!.. وعلى قارئ « دراستك » أن يقيس ما لم نُشِر إليه على ما أشرنا إليه في هذه الصفحات.

● ولقد زاد الطين بلة، وأسهم في إشاعة الأخطاء الصارخة وغير اللائقة في « دراسة » الدكتور لويس: قلة بضاعة الرجل العلمية بالميدان الذي تصدى « للإفتاء » فيه!... لقد دخل ميدان التأريخ دون أن يمتلك أيًا من أدواته، بل واختار التأريخ للبعث الإسلامي وحركة الإصلاح الإسلامية بالذات!!.

والناظر فيما كتبه الدكتور لويس يرى أخطاءً تحدد قيمة بضاعته العلمية في هذا الميدان.. فالرجل الذي دفع إلى المكتبة العربية كتابًا يحمل اسمه، في « فقه اللغة العربية ».. هذا « العالم اللغوي » عندما ينسب إلى « المهدي » يقول: « المهدوية »[١] ولا يقول: « المهدية »!!!.

وهو يزعم أن جمال الدين الأفغاني قد قال عبارة: « ..والشيعة يقولون إني نصيبي ».. فلا يستطيع تمييز الخطأ؛ لأن صحة الكلمة، « ناصبي »!!.. وبدلًا من أن يسأل أهل الذكر عن معنى الكلمة فيصححها، يتطوع ليفتي ويفسر، فإذا « بعلمه الغزير » يثير الضحك والرثاء!.. لقد فتح « قوسًا » ليفسر كلمة « نصيبي » فقال: (من معركة نصيبين، أي من أعداء عليّ) بن أبي طالب!!.. والرجل لا يدري أن الإشارة إنما هي إلى فرقة « النواصب »، الذين ناصبوا علي بن أبي طالب

---

(١) التضامن، العدد ٣ (ص ٦٩).

وبنيه العداء.. وأن المفرد منها « ناصب »، والنسبة إليها « ناصبي ».. أما معركة « نصيبين » فلا علاقة لها بالموضوع اللَّهم إلا أن تكون علاقتها به مثل علاقة الدكتور لويس بالموضوع الذي تصدى للكتابة فيه؟! - « فنصيبين » مدينة بالشام فُتحت في زمن عمر بن الخطاب!.

ونحن نعذر الدكتور لويس إذا لم يميز بين الآية القرآنية وبين الحديث النبوي الشريف.. لكنه إذا جاء فتحدث عن خطاب، ثم زعم أن الأفغاني هو كاتبه.. ثم وجدنا الخطاب يتحدث عن الآية القرآنية ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠] على أنها « حديث[١] ».. كان من حقنا أن نقول: إن هذا جهل إن جاز لغير الأفغاني فلا يجوز لإمام كجمال الدين!!.

فهل مثل الأفغاني من لا يميز بين الآية وبين الحديث؟!.. وهل يليق « بمؤرخ » ينظر في نصوص مصادره نظرةً نقديةً، ألا يكتشف زيف نسبة مثل هذا النص إلى مثل الأفغاني؟!.. وأيضًا.. فكاتب الخطاب يتحدث عن نفسه، فيقول: « إن كاتب هذا الخطاب رجل وضيع المقام لا أهمية له.. »[٢]!!، فهل مثل الأفغاني من يقول هذا عن نفسه.. وهو الذي هابته الملوك والقياصرة، حتى لقد انزعج منه السلطان عبد الحميد (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢ - ١٩١٨م) عندما

---

(١) أصل « الدراسة » (ص ٩٩).

(٢) أصل « الدراسة » (ص ١٠٢).

طلب منه وقف الهجوم على الشاه الإيراني ناصر الدين (١٢٤٦ - ١٣١٣هـ/ ١٨٣١ - ١٨٩٦م) فجاءت استجابته في عبارة: «الآن، عفوت عن الشاه»!.

إن الدكتور يكثر من الحديث عن «عنجهية» الأفغاني.. ويتحدث عن: «عناده الذي جعله يرفض التبعية للباب العالي، وأقصى ما يتصوره هو حالة من (التعايش) بينه وبين السلطان»[1]، فهل يليق بمن هذا مقامه، ومن هذه مكانته، أن يكتب لمن هو دون السلطان فيقول عن نفسه: «إنه رجل وضيع المقام، لا أهمية له»؟!.

أين العلم بنقد النصوص: أخص خصائص من يتصدى لكتابة التاريخ؟!.

كذلك فنحن لا نعذر الدكتور لويس عندما لا يكلف نفسه مؤنة النظر في «أطلس جغرافية» البلاد التي يتحدث عنها.. ففي معرض افترائه على الأفغاني، والتدليل على إيرانيته، يسوق حكاية وعده لأمه - وهو صغير - بأن يجعلها حاكمة على خراسان!.

وإذا صرفنا النظر عن الوقوف عند ألفاظ السخرية التي صبها الدكتور لويس على الأفغاني، بسبب هذه الحكاية المزعومة، فإننا نسأله:

لِمَ لَمْ يسأل نفسه - من باب نقد النص - هل من المألوف

---

(١) أصل «الدراسة» (ص ٢٢٤).

في البيئة الشيعية المحافظة - مثل إيرن - أن تكون المرأة حاكمةً لخراسان؟!.

ثم.. إن خراسان - ياعزيزنا الدكتور لويس - ليست في إيران - حتى تستدل بذلك على إيرانية الأفغاني.. وإنما هي في أفغانستان، ولو نظرت في معاجم البلدان القديمة -، بل وفي (القاموس الإسلامي) للأستاذ أحمد عطية اللّـه - لعلمت أنها « اسم تاريخي يطلق على ما يعرف اليوم - بصفةٍ عامة - باسم أفغانستان، وهو يطلق بصفةٍ عامة، على الإقليم الذي يحده في الشمال نهر جيحون، وفي الشرق حوض السند، ومن الغرب إقليم فارس، ويضم من المدن الشهيرة: كابل وغزنة، وقندهار، وترندوجوين، وفاراب، ونساوبيورد، وسرخس.. »!.

كذلك لا عذر للدكتور لويس عندما يتطوع بالإفتاء فيقع فيما لا يليق من الأخطاء.. فهو ينقل عن « بلنت » أن « السيد أمير علي » كان يتزعم - في كلكتا، بالهند - « طائفةً مثقفةً مجددةً، تدعو للأخذ بالحضارة الغربية.. ».

فنراه يذكر اسم الرجل « الأمير علي » بزيادة « أل » لكن هذا لا يهم.. وإنما المهم أنه يتطوع بالتفسير فيفتح قوسًا ليقول لنا: إن السيد الأمير علي (هو السيد أحمد خان)[1]، ولو رجع الدكتور لويس إلى أي قاموس للأعلام أو إلى كتاب (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) للأستاذ أحمد

---

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ١٦).

أمين لعلم أن أحمد خان (١٢٣٣ - ١٣١٦ هـ/ ١٨١٧ - ١٨٩٨م) غير السيد أمير علي (١٢٦٥ - ١٣٤٧هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٢٨م).. ولعَلِم أن الأول كان ينهج للإصلاح طريق التربية والتعليم فقط، على حين أضاف الثاني إلى نهجه خطةً سياسيةً تعالج مشكلات المسلمين!.

وفي موطنٍ آخر يستعين الدكتور لويس « بقلة العلم » على تشويه صورة جمال الدين الأفغاني!..

فحتى يلصق به تهمة التعاون مع الإنجليز في مصر سنة (١٨٧٨م)، إبان الصراع بينهم وبين الخديوي إسماعيل، يقول: « إنهم سمحوا بانتخابه رئيسًا لمحفل (كوكب الشرق)، الذي كان فرعًا من المحفل الماسوني في إنجلترا سنة (١٨٧٨م) »، ثم يتحدث عن « طردهم » له من هذا المحفل بعد هذا التاريخ، عندما وقع بينهما الخلاف، وانتهت « فترة التعاون الكامل » بينهما[1]، كما يقول!.

ولو رجع الدكتور لويس إلى أي مرجع محترم من المراجع التي تؤرخ للماسونية لعلم أن المحفل الذي انتخب الأفغاني رئيسًا له سنة (١٨٧٨م) - إبان صراع الإنجليز ضد الخديوي إسماعيل - وهو محفل « كوكب الشرق » - لم يكن هو التابع للمحفل الإنجليزي.. بل كان تابعًا للمحفل

---

(١) التضامن، العدد ١ (ص ٥٦).

الفرنسي[١].. فهو المحفل الذي أنشأه الأفغاني كموقفٍ ضد المحفل التابع للإنجليز.. وهو الذي يسميه سليم العنحوري: « جمعية (الماسون) العربية »![٢].. فلم يكن الأفغاني متعاونًا مع الإنجليز، لا يومئذٍ، ولا قبل ذلك، ولا بعده، فلقد كانت كراهية استعمارهم طبعًا من طباعه لازمه حتى انتقل إلى رحاب اللّـه!.

ثم.. إن الإنجليز ليسوا هم الذين « طردوا » الأفغاني من المحفل الذي كان يتبع محفلهم.. وإنما الرجل هو الذي استقال، عندما اكتشف جبن هذا المحفل عن التصدي للاستعمار وللاستبداد، وعندما تبينت له علاقة هذا المحفل - ولو بالصمت والمسايرة - بمخطط الإنجليز في مصر. وخير دليل على صدق هذا الذي نقول، كلمته التي أدان فيها ماسونية ذلك المحفل، والتي استقال منه بعد إلقائها.. لقد قال فيها: « أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار: عنوان كبير خطير: (حرية، مساواة، إخاء)، غرض: (منفعة الإنسان، سعي وراء دك صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق).. فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية، وهو: همة للعمل، وعزة نفسٍ وشمم، واحتقارٌ للحياة في سبيل مقاومة مَنْ ظَلَم.

---

(١) صابر طعيمة، الماسونية ذلك العالم المجهول (ص ١٢٨)، طبعة بيروت سنة (١٩٧٩م).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٤٦).

كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطوانتي المحافل الماسونية!!.

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناءٍ حر، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم، ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاءٍ ومساواةٍ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة!.

يؤلمني أنني للآن ما عرفت لنفسي - بصفتي ماسونيًّا - ولا لمطلق الماسونية تعريفًا يجعل لها صورةً في الذهن ووصفًا ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة!.. ماسونيتكم - أيها الإخوان - اليوم لا تتجاوز: (كيس أعمالٍ، وقبول أخ) يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل، ويسقط مكانة الماسونية في عينيه.. فالماسونية - على شكلها هذا، وتقاليدها - ليست فقط قديمة العهد، بل هي لا تزال في المهد، ولسوف - إذا أصرت وأصر أبناؤها على الوقوف عند حدود رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها ولا المراد من وضعها - أنها ستختنق في المهد ولا تدرج منه[1]!.. ».

تلك هي قصة الأفغاني مع الماسونية، إنها صفحة من صفحات صراعه ضد الاستعمار، والاستعمار الإنجليزي

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٥٢١).

على وجه الخصوص.. وليست إطارًا تعاونَ فيه الأفغاني مع الإنجليز كما ادعى الدكتور لويس!.

لكنها « قلة المعلومات » بميدان البحث وطبيعة مادته ومصطلحاته، عندما أضيفت إلى « الغرض الثأري المبيت » الذي حرك الدكتور لويس للافتراء على الأفغاني والتشكيك في حقائق حياته ونضاله وفكره.. أثمر كل ذلك ما بلغته هذه « الدراسة » من مستوى في الشذوذ قلَّ أن يكون له نظير!.

***



هل كان الأفغاني ملحدًا.. وزنديقًا؟!

من كان يتصور أن الدكتور لويس عوض « العلماني »، الذي يكثر من الحديث عن المذهب الإنساني - « الهيومانزم » - والمعادي للإحياء الديني، والذي ترتعد فرائصه من التطرف والغلو الديني، من كان يتصوره مستخدمًا لسلاح « التكفير » يحكم على عقيدة جمال الدين الأفغاني بالتجديف والزندقة والإلحاد، وكأنه أحد غلاة جماعات التكفير في العصر الذي نعيش فيه!!.

صورة مأساوية.. لكنها وقعت في « دراسته » عن جمال الدين!.

ولقد يحار المرء في تفسير هذا الغلو غير المألوف من الدكتور لويس، هل انتابته نوبة من « الكهنوت المسيحي » فنهض كي يعيد تمثيل مشاهد قرارات « الحرمان » التي كانت تصدرها الكنيسة قديمًا ضد أحرار المفكرين؟!.. لا أعتقد.. فالرجل منسوب إلى الكنيسة القبطية، التي لم يشتهر في تاريخها هذا التجاوز والعدوان على ضمائر المؤمنين

وعقائدهم... وأغلب الظن أن عداء الدكتور لويس لرمز الإحياء الإسلامي والاستقلال الحضاري عن العرب: جمال الدين الأفغاني، هو الذي دفعه إلى هذا « الخروج » العصري الذي جعله يحارب بكل سلاح، حتى ولو كان محرمًا إسلاميًّا، وممنوع الاستخدام من قبل كل المستنيرين والإنسانيين!.

لقد سبقت إشارتنا إلى نماذج من « التشكيك » و« الافتراء » التي أصابت سيرة الأفغاني وفكره في « دراسة » الدكتور لويس.. والآن نقف لننظر في قمة هذا « الافتراء ».. عندما أباح الدكتور لويس لقلمه أن يحكم على « العقيدة الدينية » للأفغاني، فيقول: « إنه غير متدين ».. بل « مجدف ».. و« ملحد ».. و« زنديق »!!.

في « دراسة » الدكتور لويس - وحتى عندما عرض لـ «تدين » الأفغاني و« عقيدته الدينية » - لا نجد أيّة إشارة إلى كتابات الأفغاني الدينية، و« الكلامية » منها و« الصوفية » على وجه الخصوص.. وبديهي أن من يكتب عن عقيدة إمام كجمال الدين لا بد وأن يرجع لما كتبه الرجل في « العقيدة ».. مثل: (تعليقاته على شرح الدواني للعقائد العضدية)، و(رسالة الواردات في سر التجليات)، وما كتبه عن (القضاء والقدر).. إلخ .. إلخ..

ونحن لا ندري: هل قرأ الدكتور لويس هذا الجانب من أعمال الأفغاني الفكرية، أم لا؟.. قد يكون قرأه، ولم يجد

سبيلًا لفقهه، بحكم تكوينه الديني وقدراته الفكرية المحكومة بتخصصه الأكاديمي البعيد كل البعد عن هذا الميدان!.. المهم أننا لا نجد أثرًا لأعمال الأفغاني « العقيدية » فيما كتبه الدكتور لويس عن « عقيدته »، وهذا خلل منهجي يسقط أحكام الدكتور لويس من الأساس!.

لقد وقف الدكتور لويس في « دراسته » عن الأفغاني عند حدود الأوراق والكتب التي جمعها له الذين استضافوه في جامعة « لوس أنجليس »، وما جمعوه له من كتابات الأفغاني ذات العلاقة بالعقيدة: ترجمة إنجليزية لرسالة (الرد على الدهريين)، و(المقالات الجمالية) التي كتبها بالهند عندما نفي إليها في مطلع ثمانينات القرن الماضي.. وكلا المصدرين من الكتابات « الجمهورية » التي تعالج الجوانب السياسية، والاجتماعية، والحضارية، ولا تغوص غوص المتخصص في ميدان العقيدة الدينية عندما يكتب للمتخصصين!.

ومع ذلك.. فلننظر لنرى كيف تعامل الدكتور لويس مع فكر الأفغاني، الذي اطلع عليه، ورجع إليه في هذا الموضوع..

لقد كتب الأفغاني رسالة (الرد على الدهريين) لتكون سلاحًا في الصراع ضد طائفة من مسلمي الهند، يمكن أن نسميهم بـ « المتغربين » الذين تهادنوا مع الاستعمار الإنجليزي هناك.. فهم قد تفرنجوا في الحضارة والفكر والسلوك، ووقفوا عند « التنوير » بمضامينه الغربية، ونفضوا أيديهم

من مهام الوطنية والنضال ضد الاستعمار... ولذلك، فلقد تميزت هذه الرسالة بميزتين رئيسيتين:

الأولى: حدتها وعنفها؛ لأنها حملت روح الثورة العنيفة التي حكمت موقف الأفغاني إزاء الاستعمار.

الثانية: التركيز على « العائد » و« المردود » الاجتماعي والسياسي والثقافي، الذي يصيب الأمة إن هي استمسكت بالإسلام كهويةٍ حضاريةٍ تميزها عن الحضارة الغربية الغازية.. فحديث (الرد على الدهريين) عن الإسلام هو حديث عن « البديل الحضاري » الإسلامي لحضارة الغرب المادية العدوانية الاستعلائية.. وليس حديثًا عن الإسلام كدينٍ مجرد، بعقائده وأركانه.. لأن (الرد على الدهريين) ليست - في الأساس - كتابًا من كتب « علم الكلام »، الذي هو « فلسفة الإسلام »!.

أما الدكتور لويس- فإنه بعد أن أهمل كتابات الأفغاني « الكلامية » و« الصوفية »، والتي منها يجب أن يستقي الدارس الأمين عقيدته ومذهبه الديني - قد اعتبر رسالة (الرد على الدهريين) هي التجسيد الفكري لحقيقة عقيدة جمال الدين، فقال: « ... أما من هو الأفغاني الحقيقي فهو في (الرد على الدهريين)، فهو كتابه الخطير.. »[1].

لقد قرأ (الرد على الدهريين) فوجدها تتحدث عن « العائد » السياسي والاجتماعي والحضاري للإسلام الدين..

---

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٥).

فبدلًا من أن يلتمس فكر الأفغاني عن الدين، كعقيدةٍ مجردةٍ، وأصولٍ، وقواعد، وأركان وضعها الشارع ﷺ، بدلا من أن يلتمس هذا من مواضعه في أعمال الأفغاني الفكرية، أباح لنفسه ولقلمه أن يستبيح عقيدة الأفغاني، فيحكم عليه بالتجديف والزندقة والإلحاد، بدعوى أن الدين عنده ليس حقيقةً موضوعيةً، وإنما هو مجرد مؤسسة اجتماعية ضرورية لتنظيم حياة الجهلة من الناس.. فعنده « أن الأفغاني - في (الرد على الدهريين) - لم يكن مهتمًا بإثبات صحة العقيدة الدينية بقدر ما كان مهتمًا بإثبات نفعها للوجود الاجتماعي والسياسي »[1].

لقد رفض الأفغاني المدرسة المادية في كتابه (الرد على الدهريين)، ورفض موقف المدرسة المثالية في مقاله (شرح أحوال الأغوريين)، ولكن الأفغاني في رفضه لفلسفة المثالية بدلًا من أن يعتصم بالفهم التقليدي، أو بالعقل العام في فهم الدين، أسس رفضه للمثالية على رأي لا يقل تجديفًا عن رأي المثاليين الأوربيين من الرومانسيين، والمتصوفة، وأصحاب العقل المتجاوز أو الحقيقة المتجاوزة، أسسه على أن زعزعة إيمان المسلمين بالمعجزات وبالعقاب والثواب في الدار الآخرة، وهم « في حال ضعفهم وشقائهم الراهنة » كفيلة بأن تجعلهم يتخلون عن المقاومة القومية، وينضمون

---

(١) التضامن، العدد ١٧ (ص ٦٧).

إلى معسكر مستعمريهم، بل وربما فرطوا في دينهم واعتنقوا دين جلاديهم، ومعنى هذا بصراحة أن الأفغاني لم يكن ينظر إلى « المعجزات » وإلى « اليوم الآخر » على أنها مقولات دينية حقيقية.. وإنما هي عنده مجرد معتقدات نافعة لحفظ المجتمعات وصيانة الروح القومية فيها.. ومن هنا وجب النظر إلى الدين لا على أنه مجموعة من الحقائق الفكرية والروحية، ولكن على أنه مؤسسة اجتماعية وقومية.. هذا هو جوهر رسالة الأفغاني في (الرد على الدهريين).. فالحق – عند الأفغاني – هو ما يبني المجتمع، والباطل هو ما يقوضه، ولا داعي بعد ذلك للبحث في الميتافيزيقا![1].

إن الأفغاني لم يكن متدينًا بالمعنى المفهوم، ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسي أو بناء الإمبراطوريات.. »[2]!!.

ذلك جانب من جوانب التجني الصارخ الذي مارسه الدكتور لويس في حديثه عن العقيدة الدينية لجمال الدين الأفغاني.

وهنا نسأل: هل إذا حدثنا رجل عن « فوائد ظل الشجرة » كان هذا الرجل – بالضرورة – منكرًا لأصل الشجرة، كحقيقةٍ موضوعية؟!.. وهل استمتاع الإنسان « بالثمرة »

---

(١) التضامن، العدد ١٧ (ص ٦٤).

(٢) التضامن، العدد ٣ (ص ٧٠).

يعني جحوده بالشجرة التي أثمرت هذه الثمرة؟!، وهل إذا تحدث الأفغاني عن العائد السياسي والحضاري والقومي للإسلام، بالنسبة للمسلمين في صراعهم ضد الحضارة الغربية التي جاءت فاقتحمت عليهم ديارهم، وجاهدت لطمس معالم شخصيتهم القومية، وتشويه ذاتيتهم الحضارية... هل إذا تحدث الأفغاني عن هذا الجانب من الإسلام، كان - بالضرورة - منكرًا للدين كحقيقةٍ موضوعيةٍ مجردةٍ؟!.

إن تناول الإسلام كوضعٍ إلهي، والحديث عن عقائده كحقائقٍ موضوعيةٍ، والبحث الميتافيزيقي في هذه المقولات الدينية، قد سبق للأفغاني وأوفاها حقها قبل أن يكتب (الرد على الدهريين) بعشر سنوات، ففي مصر كانت له « أمالي » في علم الكلام الإسلامي تضعه في مصاف كبار فلاسفة الإسلام!.. فهل إذا تحدث عن الإسلام الحضاري والسياسي والاجتماعي، في (الرد على الدهريين) يكون منكرًا للإسلام « الدين »؟!.. أم أن الدكتور لويس كان يودّ للأفغاني أن يقف عند حدود « المباحث الكلامية » و« الصوفية »، ثم يدع دنيا المسلمين وسياستهم وقوميتهم وحضارتهم فريسةً سهلةً للحضارة الغربية، فلا يشهر في وجه « التغريب » الهوية الإسلامية للذين تدينوا بالإسلام؟!.

أعتقد أن هذا هو السبب الأساسي لتحامل الدكتور لويس.. فما يهمه ليس « تدين » الأفغاني، الذي يضمن له

الجنة يوم الحشر الأكبر!.. وإنما الذي يهمه أن لا يقف الإسلام الحضاري والثقافي والسياسي والاجتماعي في وجه الحضارة الغربية التي يدين لها بالولاء!!.

● إن الدكتور لويس مولع بتجزئة الأفغاني إلى مراحل: مصرية، وهندية، وعروة وثقى، وتركية.. إلخ.. ولذلك، فنحن مجاراة لمنهجه، سنقف أمام تقويمه لعقيدة الأفغاني في « المرحلة الهندية »، لنرى رأينا في هذا التقويم، قبل أن نعرض لفكر الأفغاني الديني، والذي ينقض اتهامات الدكتور لويس من الأساس..

لقد رأينا تقويم الدكتور لويس لرسالة (الرد على الدهريين)، التي رآها الممثلة لحقيقة الأفغاني.. ورأينا حكمه على الأفغاني ومن خلالها وبسببها، بأنه « مجدف » و« غير متدين »، وما الدين عنده إلا « دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسي أو بناء الإمبراطوريات.. »!

لكن، يبدو أنه قد استمرأ منهج « التجزئة ».. فبعد أن جعل للأفغاني « مرحلةً هندية »، مضى « ليجزئ » عقيدته في ذات « المرحلة الهندية » الواحدة، بل وفي الكتاب الواحد - (الرد على الدهريين) -!!.. لقد رأيناه يحكم على الأفغاني من خلال (الرد على الدهريين).. بأنه « مجدف »، ثم ها هو - في مكان آخر من « دراسته » - يحكم عليه من خلال ذات الكتاب: بأنه « تقليدي محافظ في تفسير الإسلام »!!، يقول:

« لقد اختار الأفغاني في سنة (١٨٨١م)، نهائيًّا، الدفاع عن الموقف التقليدي المحافظ في تفسير الإسلام، وحمل حملةً شديدةً على تجديد الفكر الإسلامي بالفكر العلمي والفلسفي، الذي عدّه الطريق المختصر إلى الزندقة وإلى زعزعة الإيمان الديني، وقد عبر عن كل ذلك في (الرد على الدهريين) وفي « مقالاته الهندية »[1]!!.

وهنا نسأل: كيف تكون رسالة (الرد على الدهريين): « تجديفًا » - أي كفرًا وزندقةً وزعزعةً للإيمان - وتكون هي ذاتها: « تقليدًا ومحافظةً في تفسير الإسلام، ومعاداةً للتجديد والزندقة وزعزعة الإيمان »؟!، كيف يتأتى ذلك التقويم لمن يحترم الحقيقة فيحترم عقول القراء؟!.

إن الدكتور لويس يمعن في هذا التناقض الصارخ والغريب عندما يحكم على الأفغاني بأنه - من خلال (الرد على الدهريين) - قد أصبح « غيبيًّا في الفكر » كما هو «غيبي في السياسة »[2] - (بسبب دعوته للإسلام السياسي والجامعة الإسلامية!!) -، فكيف تكون « الغيبية في الفكر » « تجديفًا »، ياعزيزنا الدكتور لويس؟!.

نحن لا زلنا في « المرحلة الهندية » للأفغاني.. وحتى الآن صدر على الرجل - من الدكتور لويس - حكمان متناقضان:

---

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٦).

(٢) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٦).

فهو « مجدف ».. أي كافر باللّـه من خلال كتابه (الرد على الدهريين)!.

وهو « تقليدي محافظ في تفسير الإسلام عدو للتجديد وللزندقة ».. من خلال (الرد على الدهريين) و(المقالات الهندية)!.

لكن الدكتور لويس لا يقف عند هذا القدر من « التناقضات »، بل يمضي ليصدر على عقيدة الأفغاني – وفي ذات « المرحلة الهندية »، وبسبب ذات الأعمال الفكرية – أحكامًا أخرى بينها وبين بعضها أشد التناقضات!.

فبعد « التجديف ».. وبعد « المحافظة والتقليد ».. يذكر أن الأفغاني قد شق « طريقًا وسطًا » بين أهل الجمود وبين المتفرنجين.. فيقول : « ... ويبدو أن الأفغاني حاول في كلكتا – (بالهند) – أن يفتح لمسلمي الهند طريقًا ثالثًا.. »، وهو ينقل هذا التقويم لموقع الأفغاني الفكري عن « بلنت»، الذي التقى بشاب هندي من أنصار الأفغاني – اسمه « مولاي أ.م » – تحدث إلى « بلنت » عن التيارات الفكرية بين مسلمي الهند، كيف « أن الأمير عليًا وأصدقاءه قد وضعوا أنفسهم خارج إطار المجتمع الإسلامي، بزيهم الإنجليزي وعاداتهم الإنجليزية، بينما عبد اللطيف وجماعة الموالي (علماء الدين) كانوا مسرفين في المحافظة.. فجاء الأفغاني بفكرةٍ قوامها: الجمع بين إصلاح الإسلام والوحدة الإسلامية،

وهناك الآن كثيرون يفكرون على طريقته، ويعتقدون في موقف وسط بين هذين الحزبين المتنافسين ».

إن الدكتور لويس ينقل هذا التقويم عن « بلنت ».. ويعترف « بتجمع الشباب المعتدل حول الأفغاني.. ورفضه طريق علماء الدين المحافظين، ومدرسة السيد « أحمد خان » الليبرالية، التي كانت تجد تناقضها الأول مع التخلف الداخلي وليس مع الاستعمار البريطاني.. ».

لكن الدكتور لويس لا يزكي هذه « الوسطية »؛ لأنها تعني - كما قال الشاب الذي تحدث إلى « بلنت » - « إصلاح الإسلام » أي: تجديده ليكون البديل الحضاري للتغريب.. و« الوحدة الإسلامية » أي (الجامعة الإسلامية) التي تجمع أمم الإسلام في رباطٍ تضامني يعينها على مواجهة الإمبريالية والاستعمار.. لا يزكي الدكتور لويس هذه الوسطية.. بل يراها « معادلة صعبة.. تريد قبول حضارة العصر ورفض الإنجليز »[1]!!.

ونحن نسأل الدكتور لويس: هل كان يريد لمسلمي الهند قبول الإنجليز كشرط لقبولهم « حضارة العصر » حتى تكون المعادلة سهلة؟!.. إنه واضح الانحياز لموقف « المتغربين »، من أمثال « أحمد خان » الذين تفرنجوا، ورفضوا « الموروث »، وتعلقوا بأذيال « الوافد الغربي ».. بل هو أشد حماسًا وانحيازًا

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٥ - ٦٧).

لهذا الموقف « التغريبي »؛ لانعدام الصلات التي تربطه بهذا « الموروث »!!.

وبعد الحكم « بالتجديف ».. و« بالمحافظة والتقليد »، و« بالوسطية ».. يأتي حكم رابع للدكتور لويس.. فيقول عن الأفغاني - « في ذات المرحلة الهندية »-: إن فكره يمثل « الإنسانية الإسلامية » - (الهيومانزم الإسلامي)-!!.. فهو يورد فقرات من محاضرة ألقاها الأفغاني في قاعة « ألبرت هول »، انتقد فيها إحجام المسلمين عن الاستفادة من علوم العصر التي ازدهرت في أوربا، على الرغم من استمرارهم ترديد مقولات أرسطو التي استعان بها أسلافهم.. فهم يقبلون على « أرسطو، وكأنما هو قطب من أقطاب الإسلام »، ومع ذلك فإذا جاء ذكر جاليليو، ونيوتن وكبلر قالوا: هؤلاء كفار! ».

والأفغاني هنا - وهذا ما لم يلحظه الدكتور لويس - يقول للمسلمين: إن ما نحتاجه من الغرب ليس الفلسفة.. وإنما العلوم الطبيعية وتطبيقاتها.. أما الفلسفة والثقافة والإلهيات والإنسانيات فسبيلنا إليها هو الإسلام وتراثه الثقافي والحضاري.

ثم يمضي الأفغاني في محاضرته ليقول: « إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات، ولا جاليليو بالذات، والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل، وأولئك

الذين يحرمون العلم والمعرفة معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامي، هم في الواقع أعداء ذلك الدين، إن الدين الإسلامي هو أقرب الأديان إلى العلم والمعرفة، وليس هناك أي تعارض بين العلم والمعرفة وبين أسس العقيدة الإسلامية.. ».

والدكتور لويس يعلق تعليقًا إيجابيًا على كلمات الأفغاني هذه.. فيقول: « والحق أن المرء لا يستطيع أن يقرأ هذا المنطق المتماسك إلا ويقف باحترام عميق أمام فكر الأفغاني الساطع، الذي كان يمكن أن يكون دعامةً قويةً من دعامات (الهيومانزم الإسلامي)، واستكمالًا لتلك الثورة الثقافية التي بدأها رفاعة الطهطاوي.. ».

وهنا.. - وعند هذا الحد - عزَّ على الدكتور لويس أن يصمت، فيكون قد قال في الأفغاني كلمة حق لم يفسدها بتشكيك ولم يطمسها بتشويه.. فعقب على كلماته هذه بقوله: إن الأفغاني قد أفسد فكره الإنساني هذا عندما « شغل نفسه بسفاسف السياسة وبسفاسف الفكر السياسي، التي طمست في آثاره مبادئ الهيومانزم، أو المذهب الإنساني، ولم تبرز للأجيال التالية إلا دعوته السلفية ودعوته الثيوقراطية.. »[1]!!.

فإذا ما بحثنا عن « سفاسف السياسة وسفاسف الفكر السياسي » التي لا تعجب الدكتور لويس وجدناها متمثلةً

---

(١) التضامن، العدد ١٦ (ص ٦٨).

في: تأسيس التمدن الحديث على أسسٍ إسلامية، وإحياء الجامعة الإسلامية كرابطةٍ تجمع شعوب الشرق وعالم الإسلام في الصراع ضد الاستعمار!.

على كلٍّ، لقد قال الدكتور لويس عن الأفغاني - في هذا الموضع من دراسته، وعن فكره في ذات المرحلة الهندية-: إنه « إنساني » - (هيومانزم)- بعد أن حكم على عقيدته وفكره بـ« التجديف ».. وبـ« المحافظة والتقليد ».. وبـ« الوسطية »، فإلى هنا، وحتى الآن قد صدرت على الأفغاني من الدكتور لويس أربعة أحكام!.

أما الحكم الخامس فهو إيجابي، ومما يحمد للدكتور لويس.. فبعد أن رأيناه يحكم على الأفغاني - من خلال مقالاته الهندية - « بالمحافظة والتقليد »[1] - ها هو يحكم عليه - من خلال إحدى هذه المقالات الهندية - مقال (فوائد الفلسفة) - بأنه: « إنساني - تقدمي - جدلي - وفيلسوف اجتماعي من طرازٍ عظيم.. »!.

لقد تحدث الأفغاني إلى أهل الجمود من معاصريه، الذين أضاعوا قدراتهم العقلية فيما لا يفيد الأمة في صراعها ضد التحديات التي تطبق على مستقبلها، وتضيق على ذاتيتها الخناق.. تحدث إليهم فقال: « لم تستخدمون آراء هذه العقول الشامخة في حل سفاسف المشكلات، ومع ذلك فأنتم لا

---

(١) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٦).

تفكرون لحظةً في هذا الموضوع الخطير الذي ينبغي على كل إنسان ذكي أن يفكر فيه، ألا وهو: ما سبب الفقر والعجز واليأس بين المسلمين؟ وهل هناك علاج لهذه الظاهرة، ولهذا الخطب الوبيل؟ أم أنه لا علاج لها؟.. فما من شكٍّ أو ريبٍ في أن امرأً لا ينفق حياته كلها في حلِّ هذه المشكلة، ولا يجعل من هذه الظاهرة الخطيرة محور تفكيره إنما يضيع حياته هباءً ويتلفها، ولا يصح أن يلقب بفيلسوف؛ فالفيلسوف هو من يعرف جوهر الأشياء.. ».

هنا، عقَّب الدكتور لويس فأنصف الأفغاني بقوله: « هذه المواقف الفكرية - عند الأفغاني - لا شك كانت مواقف تقدمية في عصره.. بل هي تقدمية حتى في عصرنا هذا؛ لأنها تجعل غاية كل علم وكل فلسفة الرقي بالمجتمع البشري ولا سيما بإلغاء الفقر، والجهل، والمرض، وضعف الإنسان أمام الطبيعة، وأمام أخيه الإنسان، فهي فلسفة اجتماعية من طرازٍ عظيم، بل هي فلسفة جدلية، ترفض للعالم الإسلامي ما رفضه فلاسفة النهضة الرنيسانس للعالم المسيحي من منطق العصور الوسطى »[1].

لقد قال الدكتور لويس كلمة إنصاف للأفغاني، لكنها جاءت في إطار التناقضات الصارخة التي اتسمت بها أحكامه على فكره وعقيدته في السنوات الثلاث التي قضاها بالهند،

---

(١) التضامن، العدد ١٦ (ص ٦٨، ٦٩).

بعد نفيه من مصر سنة (١٨٧٩م).. وهي الأحكام التي تراوحت ما بين « التجديف ».. و« المحافظة والتقليد ».. و« الوسطية ».. و« التقدمية - والإنسانية - والجدلية- والفلسفة الاجتماعية ذات الطراز العظيم »..!!.

لكن هذا التناقض الذي اتسم به تقويم الدكتور لويس لفكر الأفغاني في « المرحلة الهندية » - على ما رأيناه به من إجحاف وافتراء - هو مما يهون عندما يقاس بالافتراء الذي وجهه الدكتور لويس إلى العقيدة الدينية للأفغاني فيما سماها « بالمرحلة المصرية ».. فلقد بلغ هنا قمة الافتراء عندما اتهم الرجل بـ« الزندقة ».. وبـ« الإلحاد »!!.

لقد نظر الدكتور لويس فيما كتبه ثلاثة من الذين ترجموا للأفغاني: محمد عبده..، وأديب إسحق..، وسليم العنحوري؛ فوجد الأول يتحدث عن اعتقاد الأفغاني باعتباره « عالم الدين القويم الإيمان ».. ووجد الثاني يصنفه مع « المفكرين الأحرار ».. أما الثالث - سليم العنحوري - فلقد قال عنه ما يعني أنه « متفلسف ملحد »!.. فتعلق الدكتور لويس بهذا الوصف الأخير!!.. وساق العبارة التي أوردها العنحوري وقال فيها عن جمال الدين: « .. إنه قد برز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم، زاعمًا أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترقٍّ وتحويرٍ طبيعيين.. ».

لقد كانت عبارة العنحوري هذه هي طلبة الدكتور لويس.. فدافع عن العنحوري، ونفى عنه كل شبهة أو غرضٍ يدعوه إلى الافتراء على الأفغاني، ثم عقب قائلًا: إن حديث الأفغاني عن تطور الفكر الديني قبل ظهور أديان التوحيد هو مما يستقيم مع العلم والدين معًا.. « وإنما يبدأ الإلحاد - (إلحاد الأفغاني) - حيث يبدأ الحديث (بقدمية العالم)، وليس بخلقه، وحيث تنسب الصورة المجردة لذات اللّـه المطلقة في الزمان والمكان، والوجود والصفات إلى خيال الإنسان، وليس إلى إدراكه للحقيقة، سواء بالعقل أو من رسالات السماء.. »[1]!

ونحن - قبل أن نسوق من أعمال الأفغاني الفكرية ما ينفي عنه هذا الافتراء، وقبل أن نعرض رأيه في « قدم العالم وحدوثه »، وفي « الذات الإلهية »، وفي « النبوة »، وفي « الخلق أو التكون الطبيعي والذاتي للكائنات الحية ».. قبل أن نجلو للقارئ أولًا، وللدكتور لويس ثانيًا! رأي الأفغاني وعقيدته، من خلال كتاباته « الكلامية - الفلسفية » - نود أن نقوِّم آراء سليم العنحوري وقيمتها ومصداقيتها؛ ليعرف القارئ وزنها ومقدار ما تستحقه من ثقة، وخاصةً إذا ما قورنت بآراء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، أو أديب إسحق عن جمال الدين.. وذلك حتى يعرف القارئ لماذا رجح الدكتور لويس قول العنحوري عن أقوال محمد عبده وأديب إسحق!.

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٦٩، ٧٠).

لقد كتب العنحوري ترجمته للأفغاني ونشرها في مقدمة ديوانه (سحر هاروت).. ولقد أعاد رشيد رضا نشر هذه الترجمة في الجزء الأول من (تاريخ الأستاذ الإمام)، ونحن إذا تأملنا ما كتبه العنحوري عن جمال الدين ملْنَا إلى إسقاط روايته، كمصدر ثقةٍ للتاريخ؛ لأن روايته قد امتلأت بالأخطاء والأكاذيب والمفارقات.. فعلى سبيل المثال:

١ – يقول العنحوري عن خطبة الأفغاني في « دار الفنون » العثمانية، بالآستانة: إن الأفغاني قد « غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة في عداد الصنائع المعنوية.. »[1].

والحقيقة غير ذلك.. وكلام الأفغاني منشور وموثق – سيأتي إيراده بعد قليل – والذين ادعوا ذلك هم خصوم الأفغاني من شيوخ الآستانة الرجعيين.. فالعنحوري إما أنه قد نقل كلام هؤلاء الخصوم، أو أنه فهم كلام الأفغاني بمنطق اللاهوت المسيحي الذي تنقصه عقلانية الإسلام!.

٢– وهو يقول عن الأفغاني: إنه زار مكة – لمدة عام – بعد مغادرته الآستانة، عقب أزمة محاضرة « دار الفنون ».. وليس هذا بصحيح.. فلقد غادر الآستانة إلى القاهرة.. كما يزعم العنحوري أن الأفغاني قد تعلم اللغة العربية بمكة في هذه الزيارة المزعومة!.. والثابت المتواتر الشهير أنه قد تعلمها في صباه، وأنه قد شرح للطلبة السوريين الذين كانوا

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٤٤).

يدرسون بالأزهر بعض كتب النحو العربي في زيارته الأولى لمصر سنة (١٨٦٩م)!!.

٣- ويقول العنحوري: إن رياض باشا (١٢٥٠ - ١٣٢٩هـ/ ١٨٣٤ - ١٩١١م) قد أنزل الأفغاني حجرةً في الجامع الأزهر - (أي أنه قد سكن في أروقة الجامع الأزهر) - وأنه - (أي رياض) - قد عيَّن له راتب مدرس بالأزهر.. والثابت تاريخيًّا أن الأفغاني لم يسكن بأروقة الأزهر.. ولم يدرس فيه.. كما لم يكن لشيوخ الأزهر « رواتب » في ذلك التاريخ!!.

٤- ويقول العنحوري: إن الأفغاني قد غادر مسكنه بالأزهر إلى منزلٍ « بحارة اليهود ».. والثابت أن مسكنه كان في « خان الخليلي »، وليس في « حارة اليهود »!.

٥- ويزعم العنحوري: أن الأفغاني قد أراد تحويل مصر إلى « جمهورية » يتولى زعامتها!.. وفضلًا عن تهافت هذا الزعم فإن رأي الأفغاني في « الحكم الجمهوري » معروف، فلقد كان يرى أن بلاد الشرق لم تتهيأ لمثل هذا اللون من الحكم في ذلك التاريخ.. فهو القائل: « .. أما الحكم الجمهوري فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله.. »[1]!

٦- ويقول العنحوري: إن نفي الأفغاني من مصر سنة (١٨٧٩م) كان عن طريق « بور سعيد »، والصحيح أنه

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٤٧٩).

كان عن طريق « السويس »، ويقول: إن خادم الأفغاني « أبو تراب » قد سجن بمصر، والثابت أنه قد نفي معه!.

٧- ويقول عن الأفغاني: إنه عندما أصدر « العروة الوثقى » - بباريس - « عاود الاستمساك بالدين الحنيف »!، وكأنما كان الأفغاني في بلاد المسلمين لا يتدين، ثم يعاوده التدين في باريس!!.

٨- ثم.. إن العنحوري هو أقل الثلاثة - محمد عبده، وأديب إسحق، وهو - صحبةً لجمال الدين.. فمحمد عبده قد عاشره ولازمه وكان أقرب الناس إلى فكره وحياته اثني عشر عامًا.. أما أديب إسحق فلقد صحبه لسنواتٍ.. على حين لم تزد صحبة العنحوري للأفغاني عن العام، فلقد جاء إلى مصر سنة (١٨٧٨م) ولما لم يطق تبعات العمل السياسي والفكري الذي كان يقوده جمال الدين عاد إلى قواعده في الشام!.

٩- وأخيرًا.. فلقد راجع العنحوري نفسه، عندما لقيه الإمام محمد عبده في الشام، وأوضح له خطأ قوله بإلحاد الأفغاني.. وبيَّن له أن الأفغاني كان يورد حجج الماديين ليرد عليها، فمن غير المقبول أن تنسب إليه هذه الحجج باعتبارها آراءه وعقيدته.. فاقتنع العنحوري، ورجع عن اتهامه للأفغاني بالإلحاد، وكتب نقدًا لما سبق أن نشره خاصًا بعقيدة الأفغاني، وأذاع هذا النقد على الملأ، حتى لقد نشره بالصحف السيارة -

من مثل: صحيفة (لسان الحال) وصحيفة (الجنة)-، وذكر في هذا التصحيح أن المصدر الذي جعله يقول ما قال هو ما تلقاه « عن بعض المصريين والسوريين.. » - فلم يكن الرجل كاتبًا لما كتب أولًا بناءً على السماع المباشر من جمال الدين كما هو حال محمد عبده، الذي كتب ترجمته للأفغاني بناءً على « طول العشرة وكمال الخبرة ».. فهو - بشهادة العنحوري ذاته، بل وبألفاظه - « أعزّ أخلاء الحكيم » الأفغاني!.. ولقد أعلن العنحوري في تصحيحه لما سبق وكتبه عن عقيدة الأفغاني، أعلن: أنه « لم يبق محل للريبة في كمال اعتقاد الأفغاني وجلاء يقينه.. »[1].

لكن الدكتور لويس لا يقيم وزنًا لكل هذه الحقائق الناصعة الوضوح.. إنه يتعلق بالرواية المعيبة، المليئة بالأخطاء والمفارقات، ويعتمد على أقل المصادر ثقةً وخبرةً وعشرةً للأفغاني، بل ويتشبث بالرأي الذي رجع عنه صاحبه، وانتقد نفسه على إبدائه، وأذاع نقده هذا على الملأ من الناس!!.

ذلك هو الدكتور لويس في الموقف من الأفغاني.. وفي أي القضايا!، في الأخطر منها.. في الحكم على الضمائر والسرائر، والعلاقة الخاصة بين العبد ومولاه!.

وإذا كان هذا هو مكان الرواية التي اعتمد عليها الدكتور لويس في اتهام الأفغاني بالزندقة وبالإلحاد.. فإن حظها

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٤٢ - ٥١).

الوافر من التهافت - ورجوع صاحبها عنها - لا يجعلنا نكتفي بما قدمناه.. إذ لا بد من جلاء موقف الأفغاني - من خلال أعماله الفكرية وكتاباته « الكلامية » - من القضايا التي اتهمه بسببها الدكتور لويس بالزندقة وبالإلحاد.

فما هو موقف الأفغاني من: « قدم العالم أو حدوثه »؟، ومن مقولة « التكون الذاتي والطبيعي للكائنات الحية »؟، ومن « الدين، كوضع إلهي وحقيقة موضوعية »؟.. ومن « النبوة.. وعلاقتها بالحكمة - (الفلسفة) - »؟ ما رأي الأفغاني في هذه القضايا التي هي - في الفكر الديني - أمهات في صدق التدين، وركائز في سلامة الاعتقاد؟؟.

لم يقل الأفغاني « بقدم العالم »، بل قال « بحدوثه »!، ورأيه هذا ثابت ومعلن وشهير.. أوضحه بجلاء في مجلس علمه الذي شرح فيه أمهات كتب المنطق، والتصوف، والكلام، والأصول لتلاميذه، في السنوات الأولى لإقامته بمصر.. والناظر في تعليقاته على (شرح الدواني للعقائد العضدية » - وهي (التعليقات) التي تمثل نصًّا « كلاميًّا - فلسفيًّا » عالي المستوى يضع الأفغاني في مصاف عظماء فلاسفة الإسلام -، إن الناظر في هذه (التعليقات) - التي فرغ الأفغاني من إملائها أواخر ذي الحجة سنة (١٢٩٢هـ) أوائل سنة (١٨٧٦م) والتي دوَّنها محمد عبده - يجد موقف الأفغاني المنحاز إلى « حدوث العالم » واضحًا ومحددًا، وجليًّا وحاسمًا، لا يحتمل اللبس، أو الغموض، أو التأويل،

فهو - بعد أن عرض آراء الفلاسفة والمتكلمين في هذه القضية، (ص ٢٢٣) وما بعدها - أعلن انحيازه إلى جانب القائلين بحدوث العالم، بما يستلزمه هذا القول من إيمان بالخالق الذي أحدث هذا العالم.

يقول الأفغاني: « واتفق أهل الحق على أن للعالم - الذي قد ثبت حدوثه - محدثًا أزليًا، أبديًا، لم ينقطع وجوده في آنٍ من الآنات الماضية، ولا ينقطع في آنٍ من الآنات المستقبلة، واستدل أصحابنا على ذلك بأن العالم مُحدَث - بالفتح - وقد سبق دليله - وكل مُحدَث فله مُحدِث - بالكسر - بالضرورة، إذ من البديهي أن المعدوم لا يوجد إلا بموجد، فموجده إما أن يكون ذاته، أو ينتهي إليه فيدور، أو لا يكون ذاته، ولا ينتهي إليه، بل يذهب حادثًا عن مُحدِث، لا إلى نهاية، فيتسلسل، أو ينتهي إلى ما ليس بحادث، وهو القديم، والدور باطل - بالضرورة - والتسلسل - بالبرهان - فثبت الثالث. فالعالم ينتهي إلى مُحدِث قديم، فهو أزلي، وما كان أزليًا استحال أن لا يكون أبديًا.. »[1].

إنه - هنا - يقطع بحدوث العالم وما فيه عن مُحدِثٍ أحدثه وما فيه، هو اللَّه - سبحانه - الأزلي الأبدي.. فأين قوله المزعوم « بقدم العالم »، و« بالتكون الذاتي للكائنات الحية »؟ الذي زعمه الدكتور لويس؟!.

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١ / ٣٠١).

ليس من حق الدكتور لويس أن يتعلل بأنه لم يقرأ (تعليقات) الأفغاني على شرح الدواني للعقائد العضدية.. ولا بأنه قد قرأها فلم يستطع فقه مضامينها، كنصٍّ إسلاميٍّ كلاميٍّ متخصصٍ!.. فالكتاب لديه، قد أهديته نسخةً منه منذ سنوات.. وكان عليه أن يسأل أهل الذكر إن استغلق عليه فقه هذه النصوص!.. ثم، ما عذره، وهو الذي رجع - كما يشير في « دراسته » - إلى رسالة (الرد على الدهريين) ما عذره عندما يتهم الأفغاني بالقول « بقدم العالم » و« بالتكون الذاتي والطبيعي للكائنات الحية »، وفي (الرد على الدهريين) نصوص للأفغاني تنقض هذا الاتهام من الأساس؟!.. ففي (الرد على الدهريين) يعرض الأفغاني لآراء القائلين بقدم العالم، ويتكون الجراثيم بالترقي والتحوير الطبيعيين.. يعرض لها بالنقد والنقض والتفنيد، فيقول: « وذهب فريق آخر إلى أن الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال ولا تزال، ولا ابتداءً لسلسلة النباتات والحيوانات، وزعموا أن في كل بذرة نباتًا مندمجًا فيها، وفي كل نبات بذرة كامنة.. إلخ.. ».

ثم يمضي ليرد هذا الزعم بقوله: « وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدارٍ متناهٍ، وهو من المحالات الأولية ».

وبصدد تكون الجراثيم.. يعرض رأي الماديين، فيقول: « ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن

بطلان القول بقدم الأنواع، رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث، ثم اختلفوا في بحثين:

الأول: بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية، فذهب جماعة إلى أن جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض في التناقص، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضي.

وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون إلى اليوم، خصوصًا في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة، وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياةً نباتيةً أو حيوانيةً »!.

ثم يمضي الأفغاني فيفند كل مذاهب الماديين والطبيعيين والدهريين، ناقضًا « مزاعمهم »، ساخرًا من « أوهامهم »، ومن « مذهبهم العاطل ».. فيستغرق « تفنيده » هذا في أعماله الكاملة ست صفحات، بعد أن عرض مذهبهم في صفحاتٍ ثلاث[١]؟!

فلم لم تلفت هذه النصوص - في (الرد على الدهريين) - نظر الدكتور لويس؟.. أم - يا ترى - قد خلت منها الطبعة الإنجليزية التي أحضرها له الأمريكان في جامعة « لوس أنجليس »، ضمن ما أحضروا له من أوراق ليكتب ما كتب عن جمال الدين؟!.. أم تراه قد قرأ هذه النصوص، ومع ذلك

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ١٣٢ - ١٣٩).

مضى في رمي الأفغاني بالزندقة والإلحاد، متقولًا عليه وناسبًا إليه عكس الذي كتبه الرجل في (الرد على الدهريين)؟!.

وإذا كانت هناك حاجة لمزيد من الوضوح لرأي الأفغاني بصدد هذه القضية - قضية وجود الخالق، واستناد الحياة والأحياء إلى « خلقه » لها - فإن في أعمال الأفغاني الفكرية المزيد من النصوص، ففي نقضه لمذهب الطبيعيين الماديين من أنصار دارون Darwin (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) ومذهب النشوء والارتقاء ووحدة أصل الأنواع، يقول الأفغاني: « إن الغاية من مذهب الطبيعيين: إنكار الخالق، وإسناد الأعمال إلى الطبيعة.. ولقد قال دارون بالنص الواحد: « إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورةٍ واحدةٍ أوليةٍ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة ».. ولكن قوله هذا لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين.. واتهموه بالخوف من أهل دينه، وقالوا: إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصًا، بل ينقضه من أساسه.. فالنقطة الجوهرية هي (موجد نسمة الحياة).. »[1].

هكذا حدد الأفغاني مواطن خلافه مع الماديين.. فالعالم عنده مُحدَث، صدر عن مُحدِث، أزلي أبدي، ولم تتكون الحياة فيه ولا الأحياء بالنشأة والتحوير الذاتيين الطبيعيين، كما زعم الماديون!.

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٥٢).

ورغم أن الأفغاني قد انحاز - كما أشرنا - إلى القول بحدوث العالم، فإنه لم يحكم « بالكفر »، ولا « بالزندقة »، ولا « بالإلحاد » على الذين قالوا: إن العالم قديم.. فالرجل كان متخلقًا بأخلاق الفلاسفة والعلماء.. ولم يكن أسيرًا لتعصب « الخوارج » ولعصبية « جماعات التكفير »!!.. ثم إنه ابن حضارةٍ تميزت بالعقلانية، حتى لقد تدينت فلسفتها، كما تفلسف فيها الدين، فلم تعرف الفصام الحاد بين علوم الشرع وعلوم العقل.. وهو وارث تراث فكري قال كثير من أعلام فلاسفته ومتكلميه بقدم العالم وبخالق قديم، أزلي وأبدي، لهذا العالم القديم!!.. إنها قضية معقدة وصعبة حقًّا، لكنها مطروقة في فكرنا الإسلامي، أفاض فيها ابن رشد.. وانحاز إليها المعتزلة.. ولمنطقها في تراثنا بناء شامخ يقصده الطالبون والراغبون[1]!.

لم يقل الأفغاني بكفر من ذهب إلى أن العالم قديم.. واقرأ - معي - كلامه - الذي يأتي درسًا في أدب البحث والنظر والحوار! - يقول الأفغاني: « واعلم أني وإن كنت برهنت على حدوث العالم، وحققت القول فيه على حسب ما أدى إليه فكري، ووقفني عليه نظري، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا، وأنكروا به ضروريًّا من

---

(١) انظر: كتابنا « المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد »، طبعة القاهرة سنة (١٩٧١م).

الدين القويم، وإنما أقول: إنهم أخطأوا في نظرهم، ولم يسددوا مقدمات أفكارهم، ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد في الاعتقاد، ولم تجب عصمته، فهو معرض للخطأ، ولكن خطأه عند اللّه واقع القبول، حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره، أن يصل إلى الحق، ويدرك مستقر اليقين، وكل من اعتقد بالألوهية التامة، ونزّه الحق عن جميع النقائص، واعتقد بنبينا محمد ﷺ، وبما جاء به، ولم يكذِّب شيئًا مما نقل عنه، مع علمه بأنه قد نقل عنه، فهو مؤمن ناج، عدل، رضي عنه اللّه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده، فإياك أن تنهج نهج التعصب فتهلك! »[١].

فأصول الدين – عند الأفغاني – هي: الألوهية.. والنبوة.. والمعاد.. وهو قد دعا إلى تزامل « العقل » و« النقل »، وتعاونهما على تحصيل الإيمان اليقيني بهذه الأصول.. فكتب يقول – بعد أن عرض آراء الفرق المختلفة في سبيل تحصيل الإيمان –: « .. والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل: أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود، ثم منه إلى إثبات النبوات، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١ / ٢٨٠).

فحص فيما تكنه الألفاظ، إلا فيما يتعلق بالأعمال، على قدر الطاقة، ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة، كأن ما أدت إليه ما كان، لكن بغاية التحري والاجتهاد، ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه، فوجده بظاهره ملائمًا لما حققه، فليحمد اللَّه على ذلك، وإلا فليطرق عن التأويل، ويقول: (آمنا به كل من عند ربنا) فإنه لا يعلم مراد اللَّه ونبيه إلا اللَّه ونبيه.. ولا بد في كمال النجاة، ونيل السعادة الأبدية من أن ينضم إلى ذلك: التخلي عن الرذائل، والتحلي بالأخلاق الكاملة، والأعمال الفاضلة، ومن تلك الأخلاق والأعمال: تكميل قوة النظر، وارتكاب طريق العدل في كل شيء، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه.. فهو في النار.. »[1].

ترى.. هل يمكن أن يكون هذا كلام من يرى أن الدين ليس إلا مجرد مؤسسةٍ اجتماعيةٍ وقوميةٍ، ينحصر نفعها في دفع الجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسي أو بناء الإمبراطوريات؟!، كما قال الدكتور لويس عوض عن عقيدة جمال الدين؟!!.

وهل يمكن أن يكون هذا كلام من لا يؤمن بالدين كحقيقةٍ موضوعيةٍ؟!.

---

(١) المصدر السابق (١ / ٢٢١، ٢٢٢).

وهل يمكن أن يكون هـذا فكـر « مجـدف » و« ملحـد » و« زنديق »؟!!.

لكن.. ما بالنا نلجأ إلى التساؤل، ونطلب من القارئ أن يلجأ إلى الاستنتاج.. وللأفغاني نصوص واضحة وحاسمة في أن « الدين: وضع إلهي » - وهو تعريفه الأخص عند المؤمنين -، يقول الأفغاني في هذا الموضوع: « .. أقول كلمة حق في الدين، ولا أظن منكرًا يجحدها: الدين وضع إلهي، ومعلمه والداعي إليه البشر، تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم اللّـه بالوحي، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة، والتعليم والتلقين، وهو - عند جميع الأمم - أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة ويصبغ النفوس بعقائده، وما يتبعها من الملكات والعادات، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ من الأعمال وما يطاوعها من العزائم والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها، وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل، وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده، وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات، بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال!.. »[١].

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٢٨٣).

هكذا الدين - عند جمال الدين -.. وضع إلهي.. وليس مجرد مؤسسة اجتماعية.. وحقيقة موضوعية مجردة.. وليس مجرد عائد يفيض السعادة على الفرد والمجموع.. ولا بد من تزامل العقل والنقل في تحصيل الإيمان اليقيني بأصوله، التي هي: الألوهية التامة المنزهة.. والنبوة.. والمعاد.

فهل بعد ذلك حاجة للمزيد من الإيضاح لفكر الأفغاني عن « الدين »؟.. وهل يوجد - مع هذا الفكر - مجال لاتهام الرجل بالتجديف والزندقة والإلحاد؟!.

غير أن هناك جزئية من جزئيات افتراء الدكتور لويس على عقيدة الأفغاني لا بد وأن نعرض لها فنجلو وجه الحق فيها.. فالدكتور لويس لم يتهم الأفغاني « بإنكار » النبوة.. وإنما اتهمه بوضعها مع « الحكمة » - (الفلسفة) - على قدم المساواة، أو التشابه على أقل تقدير.. وزعم أن الأفغاني يفترض وجود التناقض بين الشريعة الإلهية التي تأتي بها النبوة، وبين العقل والحكمة المستفادين من قبل الحكماء.. واتهم الأفغاني - لذلك - بـ « الزندقة »، بل وذهب إلى أن « هذا النوع من الزندقة ليس جديدًا في الأفغاني ولا مستغربًا منه »!.. ثم مضى في الافتراء فادعى أن محمد عبده وسواه قد قالوا: إن هذا هو رأي جمال الدين!![1].

فما هو وجه الحق في هذا الموضوع؟..

---

(١) التضامن، العدد ٥ (ص ٦٩).

لقد بدأت القصة بمحاضرة الأفغاني عن « الصناعات.. وفلسفتها » في « دار الفنون » العثمانية بالآستانة في رمضان سنة (١٢٨٧هـ)، ديسمبر سنة (١٨٧٠م).. وفي المحاضرة تحدث الأفغاني عن دور كلٍّ من « النبوة » و« الحكمة » في تحريك « جسم السعادة الإنسانية »، بعد أن تحدث عن « الصناعات » باعتبارها الأعضاء لبدن المعيشة الإنسانية الحي.. ولكن الرجل لم يساو بين « النبوة » و« الحكمة »، وإنما تحدث عن « الفروق » بينهما، فقال: «.. ويفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب، يختص اللَّـه بها من يشاء من عباده، واللَّـه أعلم حيث يجعل رسالته. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات.. وبأن النبي معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ، بل يقع فيه.. وأن أحكام النبوات آتية على ما في علم اللَّـه، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالأخذ بها من فروض الإيمان، أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب الأولى والأفضل، على شريطة أن لا تخالف الشرع الإلهي.. »[1].

لكن شيخ الإسلام العثماني، حسن أفندي فهمي، انتهزها فرصة للتشنيع على الأفغاني، فزعم أن الرجل قد تحدث عن « النبوة » كصنعةٍ؛ لأنه عرض لها في محاضرة عن

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٤٨).

« الصناعات »!!، وحدثت - لذلك - تلك الأزمة التي سبقت إشارتنا إليها..

أما محمد عبده - الذي يفتري عليه الدكتور لويس - فينسب إليه القول بأن الأفغاني قد ساوى بين « النبوة » و« الحكمة » - فلقد أوضح رأيه في هذه القضية بعد أن لخص محاضرة الأفغاني فقال: « هذا ما ذكره متعلقًا بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية، إلا أن حسن أفندي فهمي أقام من الحق باطلًا، ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة، واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة، (وهكذا تكون حجج طلاب العنت!)، ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفًا بالتفنيد والتنديد! »[1].

فأين هي مساواة الأفغاني بين « النبوة » و« الحكمة »؟!، وأين هو قول محمد عبده بأن الأفغاني قد قال بهذه المساواة؟!.

على أن في عبارات الدكتور لويس ما يقطع بأنه لم يستطع فهم كلام الأفغاني عن العلاقة بين « الشريعة الإلهية » وبين « العقل ».. فلقد قال الأفغاني في محاضرة « دار الفنون » إنه: « لا حاجة إلى أنبياء مشرعين في كل عصر؛ لأن الشريعة

---

(١) المصدر السابق (٢ / ٣٤٨).

الإلهية كافية لجملة العصور، ولكن البشر بحاجة إلى مفكرين ينظمون الحياة بالعقل في كل عصر ».

وغريب كل الغرابة أن لا يفهم الدكتور لويس هذا الكلام الواضح كل الوضوح.. فالشريعة هي وضع إلهي.. وهي نهج، ومقاصد، وغايات، ومُثل، وفلسفات؛ ولذلك فإنها - فيما يتعلق بسياسة المجتمعات، وعمارة الكون، وتنظيم الحياة الدنيا - قد وقفت عند « الكليات »، وضرب الأمثال، وقليل من آيات الأحكام التي قصدت بها أن تكون نماذج للتشريع، ثم تركت أغلب شؤون الدنيا يشرِّع لها « العقل » الإنساني في ضوء روحها، وبما يحقق مصلحة مجموع الأمة، ويلائم الزمان والمكان.. فوجود « الشريعة » الصالحة لكل زمان ومكان، لا يغني عن « العقل » اللازم لتطبيق روحها، وللتشريع وفق مقاصدها، وللإبداع في الميادين والمشكلات التي لم تعرض لها نصوصها.. تلك بديهية إسلامية.. وهي واضحة كل الوضوح.. لكن، تعالوا لنرى تعليق الدكتور لويس على تلك البديهة الإسلامية التي تحدث بها الأفغاني في محاضرته.. يقول في تعليقه: « وهذا أيضًا زندقة بالنسبة لمن يعتقد أن أصول الدين والشريعة صالحة لكل عصرٍ ولكل بيئةٍ؛ لأنه قول يفترض تناقضها مع العقل في بعض العصور وفي بعض البيئات »!!.

هكذا « فهم » الدكتور لويس!! ثم عقب، فقال: « وعلى كلٍّ

فهذا النوع من الزندقة ليس جديدًا في الأفغاني ولا مستغربًا منه »!!.

وفي اعتقادي أن المرء محتاج إلى « حلم الحلماء » بل وإلى « صبر أيوب » كي لا يغضب ويثور من هذا الذي « فهمه » وكتبه الدكتور لويس!.. إذا كان الحديث عن « الشريعة الإلهية » وعلاقتها « بالعقل » - كما يراها الإسلام - من المباحث الصعبة على بعض الأفهام، فسأضرب للدكتور لويس مثلًا من حياتنا الحديثة والمعاصرة والمدنية..

إذا كان وجود « الدستور » لا يغني عن ضرورة وجود « الفقهاء الدستوريين » الذين يفقهونه، ويفسرونه، ويرعون تطبيقه.. فإن وجود « الشريعة الإلهية » لا يغني عن ضرورة وجود « العقلاء الحكماء » الذين يفسرونها، ويطبقونها على شؤون الحياة.. ولما كانت الشريعة قد وقفت عند « الكليات »، وتناهت نصوصها على حين لم ولن تتناهى المشكلات المستحدثة في الحياة، فإن وجود « الحكماء » وضرورة « العقل » للتشريع وللإبداع فيما لا نصوص فيه هو ضروري، ومن ثمَّ فلا تناقض بين « الشريعة » وبين « الحكمة »، وضرورة « العقل » لا تنفي خلود الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان!.

كذلك.. فإن وجود « الدستور » - الذي هو أبو القوانين.. وقانون القوانين - لا يعني إنكار ضرورة وجود « المشرِّعين

القانونيين » الذين يـشرِّعون روح الدسـتور قـوانين تحكـم جزئيات الحياة.

وبالمثل.. فإن وجود « الشريعة الإلهيـة » لا يعنـي إنكـار ضرورة « العقل » و« الحكمة »، فهما أداة المؤمنين بالـشريعة إلى تطبيق روحها على جزئيات الحياة!.

والأفغاني، عندما قال بضرورة « الشريعة » و« العقل ».. ولزوم « النبوة » و« الحكمة »، إنما كان مسلمًا يعي حقيقة الإسلام.. ومتدينًا أعمق التدين.. بل ومتأسيًا سنة النبي ﷺ فهو الذي قال – في تعريف « الحكمة » –: إنها « الإصابة في غير النبوة »[١]!!.. كما قال: « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »[٢]!.. صدق رسول اللّـه.

فهل بعد ذلك مجال لاتهـام الأفغـاني بـ « التجـديف »، و« الزندقة »، و« الإلحاد »؟!!.

هل بعد ذلك مجال – ياعزيزنا الدكتور لويس؟!.

* * *

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.



هل كان الأفغاني إيرانياً؟.. وشيعياً؟.. بل وبابياً؟!..

إذا شئنا الدقة فإن « وطن » جمال الدين الأفغاني هو كل « عالم الإسلام »!.. فهو لا يشرف إلا إذا انتسب إليه جميعه، لا إلى إقليم واحد من أقاليمه.. وبالمثل، فليس هناك - فيما أعتقد - إقليم من أقاليم « عالم الإسلام » إلا ويشرفه أن يكون له من شرف الأفغاني وعظمته حظ ونصيب!..

ولقد كان للجدل والخلاف حول « وطن » جمال الدين، وهل هو إيران؟ أو أفغانستان؟.. وكذلك حول مذهبه، هل هو الشيعة؟ أم السنة؟.. لقد كان لمثل هذا الجدل أن يظل في إطاره الطبيعي والمقبول والمألوف.. فعظماء الرجال - عادةً - تتجاذبهم وتدعيهم المذاهب والأجناس والأوطان!.. وفي تراثنا العربي والإسلامي عشرات الشواهد والأمثلة في هذا المقام..

فالإمام عليّ بن أبي طالب (٢٣ ق.هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م) والأئمة من بنيه تتنازعهم الفرق - كلامية وصوفية - بل وطوائف الحرف والصناعات!!.

والحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م) يتنازعه المعتزلة والأشعرية والصوفية، وعامة الزهاد!.

وكثير من علمائنا وأعلامنا تجد لهم مكانًا في معاجم أعلام المذاهب السنية.. في ذات الوقت الذي تحتضنهم وتزدان بهم كتب الأعلام عند الشيعة!.

ذلك أمر مألوف في تراثنا وتاريخنا.. وفي غيره من مواريث الأمم والحضارات.

ثم إن الإسلام قد غدا لأهله جنسيةً ووطنًا.. وصار كل بلد تعلو فيه راية التوحيد جزءًا لا يتجزأ من وطن الموحدين للّـه.. فهو قد أقام لأهله « أممية » ضمت الأجناس، واللغات، والأقاليم، التي دانت للّـه بالوحدانية وصدقت بنبوة محمد ابن عبد اللّـه - عليه الصلاة والسلام.

والإيرانيون إذا تعلقوا بجمال الدين، وقالوا إنه من مواليد « أسد آباد » طلبًا لأن يشرفوا به فذلك مفهوم، حتى وإن خالفهم آخرون.. وكذلك الأفغانيون إذا هم قالوا: بل هو من مواليد « أسعد آباد » الأفغانية، فذلك مفهوم، حتى وإن اختلف معهم الإيرانيون!.

وكذلك « السنة » إذا قالوا: إنه منا.. و« الشيعة » إذا قالوا: لقد كان على مذهبنا، كل ذلك مفهوم، والخلاف فيه مألوف ومشروع!.

أما الرجل: فلن يعيبه أن يكون إيرانيًا أو أفغانيًا.. ولن

ينقص من قدره أن يكون شيعيًّا أو سنيًّا؛ لأنه « مسلم » تشرف به كل أقاليم الإسلام وجميع مذاهبه.. كما شرف عالم الإسلام - ويشرف - بالأعلام البارزين من السنة والشيعة، أفغانيين وإيرانيين.. وفيما وراء إيران وأفغانستان!.

لكن الذي جعل قضية الخلاف حول « الموطن » الذي ولد فيه جمال الدين الأفغاني.. وحول « المذهب » الديني الذي تمذهب به تأخذ بعدًا آخر، أخرجها من هذا الإطار المألوف، هو أن الذين ادعوا إيرانيته وشيعيته قد أرادوا - من وراء هذه الدعوى - إثبات « كذب » الرجل.. فلقد قال عن نفسه: إنه أفغاني.. ونطقت أفكاره وكتاباته بأنه سني.. ثم جاء منشأ الادعاء بأنه إيراني شيعي من خصومه وخصوم دعوته التجديدية التحريرية - في السنوات الأخيرة من حياته - وهي تأتي اليوم - أساسًا - من الذين يناصبونه العداء، باعتباره الرمز والرائد لحركة « الصحوة الإسلامية » التي يكرهون!!.

فالمقصد الأساسي من وراء دعوى إيرانيته وشيعيته ليس إضافة مجده وشرفه لتختص بهما إيران والشيعة الاثنا عشرية - ولو كان الأمر كذلك لما استحقت القضية نقاشًا - بل ولما كان هناك قضية للنقاش!، وإنما المقصد هو هدم « الرجل - الرمز »، ومن ثمَّ فإنها دعوى معادية لتراث إيران المسلمة ولمجد الشيعة الاثني عشرية.. كما هي معادية لتراث أفغانستان

المسلمة ولمجد المذهب السني؛ لأنها معادية - في الأساس - «للرجل - الرمز» الذي يعتز به الجميع!.

تلك هي الوضعية التي جعلت وتجعل «جنسية» الأفغاني و«مذهبه» قضية تستحق البحث الذي يجلو وجه الحقيقة فيها للقارئ العربي والمسلم، من كل الأقاليم وجميع المذاهب وسائر القوميات.

كذلك، فإن موطن الخلاف وموضع الجدل محدد ومحصور في «موطن» ميلاده.. وفي «المذهب» الكلامي الذي تمذهب به.. أما «الوطن» الذي تعلق به الرجل وناضل في سبيله فهو - كما قلنا - كل عالم الإسلام، فهو - كما يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) -: «لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن، ولم تدخل فكرة الوطنية - بهذا المعنى - في مذهبه الاجتماعي.. وللممالك الشرقية الإسلامية حب في نفسه ينظمها جميعًا..»[1].

وعندما تحدث الأفغاني عن «مواطن» اهتمامه، التي وهب لها حياته النضالية، تحدث عن الشرق كله، فقال: «الشرق! الشرق!!.. لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه!..» ثم أخذ يعدد بلاده، فذكر أفغانستان، والهند، وإيران، وجزيرة العرب، واليمن، ونجد، والعراق،

---

(١) مقدمة طبعة مجموعة «العروة الوثقى» (ص ١٤)، طبعة القاهرة سنة (١٩٢٧م).

والشام، ومصر، والأندلس، « وكل صقع ودولة من دول الإسلام.. »[١].

ومن – الطبيعي – الذي استقر عليه الباحثون وتعارفت عليه مناهج التأريخ – أن المصدر الأول في « الترجمة » هو ما قال صاحب هذه « الترجمة » – إذا لم تقم الأدلة الأوثق بالتشكيك فيما قال.. ولحسن الحظ فإن جمال الدين الأفغاني، ومعه كل الأئمة والأعلام والعلماء الذين عاصروه وجاءوا من بعده فأرّخوا لحياته، قد أجمعوا على أن « الموطن » الذي ولد فيه قرية « أسعد آباد » الأفغانية، إحدى قرى مقاطعة « كنر »، بالقرب من « كابل »، عاصمة أفغانستان.

فجمال الدين – عندما تحدث عن حياته النضالية، وعن اهتماماته – قال: « لقد نظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفتني الأفغان، وهي أول أرض مسَّ جسدي ترابها، ثم الهند – وفيها تثقف عقلي – فإيران، بحكم الجوار والروابط، وإليها كنت صرفت بعض همتي، فجزيرة العرب: من حجازٍ مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة، ومن يمنٍ وتبابعتها وأقيال حمير فيها، ونجد، وعراق وبغداد وهارونها، ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمرائها.. ومصر روح الممالك الإسلامية وباب الحرمين الشريفين.. هكذا، كل صقع ودولة من دول الإسلام في الشرق.. »[٢].

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٢٩٥، ٢٩٦).
(٢) المصدر السابق (ص ٢٤١، ٢٩٥، ٢٩٦).

ففي هذا النص يحدد الأفغاني أن أفغانستان « هي أول أرض مسَّ جسمه ترابها ».. فهي « الموطن » الذي ولد فيه.. ومن ثمَّ فهو « أفغاني » بشهادته هو، كمرجع أول في الترجمة، ومصدر أوثق في التأريخ.

وفي نصٍّ آخر، يتحدث جمال الدين عن سيرته الذاتية، فيقول - في معرض المتسائل عن جدوى ومنفعة كتابته، أو إملائه لهذه السيرة الذاتية - يقول: « وأي نفع لمن يذكر أنني ولدت سنة (١٢٥٤هـ)، وعمَّرت أكثر من نصف عصر، واضطررت لترك بلادي « الأفغان » مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض، وأكرهت على مبارحة الهند، وأجبرت على الابتعاد عن مصر، أو إن شئت فقلْ نفيت منها، ومن الآستانة، ومن أكثر عواصم الأرض!... »[١].

ففي هذين النصين يقطع الرجل بأن أفغانستان هي موطنة الأصلي، وأن إيران هي جارة موطنه، تربط بينهما الروابط.

وكل الأعلام الذين أرَّخوا لحياته - المعاصرون له منهم واللاحقون، عربًا كانوا أو عجمًا، مسلمين كانوا أم غير مسلمين - باستثناء من جعل خصوم الرجل - بدلًا منه - المصدر الثقة في التأريخ له - كما سنفصل القول فيه وفيهم بعد قليل - قد أجمعوا على أنه « أفغاني » المولد والنشأة.

---

(١) المصدر السابق (ص ٥٣٧).

فالإمام محمد عبده - وهو العمدة والحجة الثقة في التأريخ لجمال الدين - يقول: « وإنا لنذكر مجملًا من خبره، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة: هذا هو السيد محمد جمال الدين.. من بيتٍ عظيم في بلاد الأفغان.. ولد السيد جمال الدين في قرية (أسعد آباد)، من قرى (كنر).. من أعمال (كابل)... »[1].

ومع محمد عبده - في القضية - اتفق: رشيد رضا، وحسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، وعبد القادر المغربي، ومحمد باشا المخزومي، وشكيب أرسلان، وعبد اللّـه النديم، ومصطفى عبد الرازق، وأديب إسحق، ومحمد الفاضل ابن عاشور، وسليم نقاش، وسليم العنحوري، وجرجي زيدان، ومحمد المويلحي، وإبراهيم اللقاني، وإبراهيم الهلباوي، وسعد زغلول، ومحمد إقبال، وعباس العقاد، وأحمد أمين، وعبد الرحمن الرافعي، ومالك بن نبي، والدكتور محمود قاسم، والفيكونت فيليب دي طرازي.. وجمهرة علماء وأعلام العرب والمسلمين الذين أرَّخوا لجمال الدين أو عرضوا لسيرته فيما كتبوا عن تجديد الإسلام.

وكذلك صنع أغلب المستشرقين.. من « بلنت » إلى « رينان »، إلى « جولد سيهر »، إلى « تشارلز آدمز »، إلى « لوثروب ستودارد » الذي قال عنه: « إنه أفغاني الأرومة،

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٤٤، ٣٤٥).

لا فارسي.. »[١]، إلى المستشرق السوفيتي « لوتسكي » صاحب كتاب (تاريخ الأقطار العربية الحديث).. إلخ..إلخ..

هذا هو الإجماع.. إجماع العلماء والمؤرخين والمفكرين على « أفغانية » جمال الدين.

لكن الدكتور لويس عوض - كما هي العادة - جاء ليرفض هذا الإجماع، لا لأن « إيرانية » الأفغاني - التي قال بها - أحب إليه من « أفغانيته » - التي أجمع عليها العلماء والمفكرون والمؤرخون - وإنما ليظهر الرجل بمظهر « الكاذب »، الذي خدع العالم أجمع عندما أخفى « إيرانيته » و« شيعيته »، وأوهم الجميع أنه « سني » من « أفغانستان »!.

ولقد كان لا بد للدكتور لويس - وهو يرفض إجماع العلماء والمفكرين - من أن يتخذ لنفسه مراجع أخرى غير أعمالهم العلمية، فكان صريحًا عندما قال لنا إن مراجعه هي تقارير الجواسيس التي ضمتها الملفات السرية لأجهزة الأمن والاستخبارات في عواصم الاستعمار التي حاربت جمال الدين!!.

قال الدكتور لويس في « دراسته » عن الأفغاني: « لقد أوهم كل من عرفهم - في مصر وأوربا - أنه أفغاني بالمولد والنشأة، فلا نجد إشارة إلى إيرانيته إلا في الملفات السرية

---

(١) حاضر العالم الإسلامي (مجلد١ ج١ / ٣٠٥).

الأوربية، وفي جوازات السفر التي كان يزوده بها قناصل إيران، وهي مصورة في الوثائق البريطانية.. »[١].

ورغم أن الدكتور لويس ناقل لوجهة النظر هذه عن الكتابات الاستشراقية الحديثة التي كتبها صهاينة وأشباه صهاينة، والتي أشرنا إلى قيمتها عند تقويمنا لقيمة « المصادر » التي استند إليها في « دراسته ».. ورغم الشذوذ الذي يبدو في موقف من يأتي ليعارض المصادر التاريخية التي كتبها العلماء، والمفكرون، والمؤرخون، بتقارير الجواسيس وملفات أجهزة الأمن والاستخبارات الاستعمارية.. رغم كل ذلك فإننا سنمضي لننظر فيما استند إليه الذين قالوا « بإيرانية » جمال الدين، لنرى هل لهذه « الأوراق » حظ من الصدق يكسبها شيئًا من الاحترام؟.

في دراسة الدكتور لويس هناك تركيز على « أوراقٍ » أربع تقول إن جمال الدين ليس أفغانيًا.. أو تشكك في أفغانيته، فلننظر هذه « الأوراق »:

١- الورقة الأولى:

هي ذلك « التقرير الذي كتبه موظف في حكومة كابول سنة (١٨٦٨م) كان يعمل جاسوسًا لحساب الإنجليز، والتقرير بعنوان (سجل بأوصاف السيد الرومي).. »[٢]، وكما سبق وتحدثنا عن هذا التقرير، فليس فيه ما يدل على أن

---

(١) التضامن، العدد ٦ (ص ٦٨).   (٢) التضامن، العدد ١ (ص ٥٤).

الْـمَعْنِيِّ به هو جمال الدين، فهو يتحدث عن « سيد رومي »، أي « شريف تركي » وهذا تناقض؛ لأن « السيد » هو العربي من آل بيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا يمكن أن يكون « التركي » عربيًا من آل بيت الرسول، ثم إن هذا التقرير يصف « السيد الرومي » سنة (١٨٦٨م) بأنه « يتكلم التركية بطلاقة ».. ومعروف - كما ذكر الدكتور لويس - أن جمال الدين عندما زار الآستانة - بعد ذلك التاريخ - لم يكن باستطاعته أن يلقي محاضرته في « دار الفنون » باللغة التركية؛ « لأن معرفته باللغة التركية كانت ناقصة »!.. فكتب هذه المحاضرة التي ألقاها في سنة (١٨٧٠م) باللغة العربية[1].. ثم.. أليس من البديهي أن يكون كاتب التقرير - وهو أفغاني الجنسية - أقدر على اكتشاف « إيرانية » من يتحدث عنه - إذا كان إيرانيًّا- والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة، ومتجاورون، يتكلمون لغةً واحدةً - من قدرته على اكتشاف « روميته » - عثمانيته وتركيته -؟!.

إن هذه الورقة ليس فيها ما يدل على أن المعنيّ منها هو الأفغاني.. وما بها من أوصافٍ لا ينطبق عليه.. ثم إنها تتحدث عن « رومي » وليس عن « إيراني »، فهي ساقطة - بكل المقاييس - من قائمة الأوراق التي يسوقها أصحابها للتدليل على « إيرانية » جمال الدين.

---

(١) التضامن، العدد ٥ (ص ٦٧).

٢- والورقة الثانية:

هي: تقرير لجاسوس آخر لحكومة الهند الإنجليزية، يظن أنه أفغاني، منشور في « موجز وثائق كابول ».. وحظ هذه الورقة من الاختصاص بالأفغاني كحظ سابقتها.. فهي الأخرى تتحدث عن « الحاج السيد الرومي »[١]، وليس فيها ما يدل على أن المعنيّ هو جمال الدين!.

٣- أما الورقة الثالثة:

فيشير إليها الدكتور لويس بقوله: « إن قنصل إيران في القاهرة زود الأفغاني في يوليو سنة (١٨٧١م) بجواز سفر إيراني ليزور به إستانبول (والجواز مصور في وثائق وزارة الخارجية البريطانية)، مما يوحي بأن الأفغاني - رغم انتحاله لقب الأفغانية - كان محافظًا على جنسيته الإيرانية.. »[٢].

وهذه الورقة - جواز السفر - تستحق منًّا وقفةً تكشف زيفها مثل باقي الأوراق التي تساق للدلالة على « إيرانية » جمال الدين..

وبادئ ذي بدء، فنحن نقول: إن حمل الإنسان المفكر والمناضل لجواز سفر من دولةٍ ما لا ينهض دليلًا على أنه من مواليد تلك الدولة بأي حالٍ من الأحوال، فكثيرون من الذين تسوء علاقاتهم بموطنهم الأصلي، والذين يناضلون

---

(١) التضامن، العدد ٣ (ص ٧١). (٢) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٤).

ضد النظم السياسية السائدة في مواطنهم الأصلية يحملون جوازات سفر مستخرجةً من بلادٍ أخرى، دون أن يكونوا مواطنين فيها، فضلًا عن أن يكونوا من مواليدها!!.. ذلك أمر شهير.. وكثير!.

ثم إن لدينا على هذه « الورقة » - جواز السفر - الذي لم يقدم لنا الدكتور لويس صورته.. ولكننا نقلناها عن (دائرة المعارف الشيعية الإسلامية)[١].. وألحقناها بدراستنا هذه ليرى فيها القراء ما رأيناه بها من أدلة التزييف! إن لدينا على هذه « الورقة » ما يثبت أنها « مزورة ومزيفة »، أو مقطوعة الصلة بجمال الدين الأفغاني!!.. فهي:

(أ) مكتوبة بالفارسية، ومطبوعة بالمطبعة، والاسم المستخرجة له - وهو مكتوب بالقلم - هو: « السيد المحترم جمال الدين ».. وليس في التذكرة ما يثبت أن جمال الدين هذا هو جمال الدين الأفغاني؟!.. ولقد كان الأفغاني أحرص ما يكون على ذكر لقب « الحسيني » عقب اسمه « جمال الدين الحسيني ».. فلقب « الحسيني » كان عنوان انتساب جمال الدين إلى آل البيت، ولقد كان الرجل - كما يقول محمد عبده -: « فخورًا بهذا النسب لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع من كونه من سلالة ذلك البيت الطاهر.. »[٢]، فما

(١) صنفها الأستاذ حسن الأمين، انظر: المجلد الثاني (٦ / ١٤).

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٥٢، ٣٥٣).

الذي يثبت أن هذه الورقة مستخرجة لجمال الدين الأفغاني؟!.. ولم لا تكون خاصةً بآخر اسمه جمال الدين؟!.

(ب) في هذه « الورقة »، وأسفل الاسم، عبارة: متوجه إلى « إسلامبول ».. الأمر الذي يعني أنها قد استخرجت « جواز سفر » و« تذكرة مرور » لـ« جمال الدين » المتوجه إلى عاصمة الدولة العثمانية.. فإذا علمنا أن تاريخ استخراج هذه « التذكرة » - كما هو ثابت عليها، في أسفلها - هو: « في يوم السبت ١٣ جماد أول سنة (١٢٨٨هـ) ».. وبحثنا في سيرة جمال الدين الأفغاني عن حاله في ذلك التاريخ، تأكد لنا أنّ لا علاقة للأفغاني بهذه « التذكرة » التي إما أن تكون « مزيفةً »، أو خاصةً بآخر يحمل اسم « جمال الدين »!.
في ذلك التاريخ - ١٣ جماد أول سنة (١٢٨٨هـ) - وهو الذي يوافق ٣١ يوليو سنة (١٨٧١م) - كان الأفغاني قد استقر بمصر التي جاءها في أول محرم سنة (١٢٨٨هـ)، ٢٣ مارس سنة (١٨٧١م).. وهو قد جاء مصر - في ذلك التاريخ - منفيًا بأمرٍ صادرٍ من الصدر الأعظم وبإرادة سلطانية من السلطان عبد العزيز.. والمعركة ضده كانت لا تزال قائمةً في الآستانة.. ولجنة من هيئة كبار العلماء لا زالت تجتمع لتؤلف ضده الكتب ولتصدر الفتوى بأنه: « مرتد يجب قتله إذا لم يتب » عن آرائه في محاضرة « دار الفنون »!.. فهل من المعقول أو المقبول أو المتصور أن يستخرج الأفغاني جواز

سفر إيراني ليذهب إلى « إسلامبول » في ذلك التاريخ، وفي ظل تلك الظروف والملابسات؟!!، ثم إن الثابت - في سيرة الرجل - أنه قد لازم مصر لم يغادرها، لا إلى « إسلامبول » ولا إلى غيرها منذ جاءها منفيًّا من الآستانة حتى نفي منها سنة (١٨٧٩م).

(ج) ثم إن الرجوع إلى حسابات الشهور القمرية يوجه إلى هذه « التذكرة » طعنًا جديدًا « بالتزييف والتزوير ».. فهي تقول: إن يوم الثالث عشر من جماد أول هو يوم السبت، بينما كان هذا التاريخ موافقًا ليوم الاثنين، فلقد بدأ شهر جماد أول - ذلك العام - يوم الأربعاء - ١٩ يوليو سنة (١٨٧١م) ١٣ أبيب سنة (١٥٨٧ قبطية)[١] - ووجود فارق يومين بين حسابات الشهر الثابتة وبين ما في « التذكرة » يقطع بزيفها وتهافتها.. وهو ليس بالفرق الذي يمكن أن يعزى للاختلاف - بسبب الاعتماد على رؤية الهلال - بين « المواقع والمطالع »، وبين « الحساب الفلكي » للشهور، فذلك الاختلاف لا يتعدى اليوم الواحد - عادة - عندما يحدث، ثم يعود الاتفاق في الشهر التالي!.

(د) وأيضًا.. فإن كل الذين قالوا ويقولون « بإيرانية » جمال الدين، قد عللوا انتسابه إلى أفغانستان، واشتهاره

---

(١) انظر: تقويم ذلك العام في كتاب « التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالقبطية والأفرنكية » (ص ١٣٣٦)، وهو من تأليف محمد مختار باشا المصري، الطبعة التي حققناها، بيروت سنة (١٩٨٠م).

بالأفغاني.. عللوا ذلك بأن الرجل كان حريصًا على إخفاء « إيرانيته » ليخفي « شيعيته »؛ حتى يستطيع أن يلعب الدور الذي أراد في إطار العالم السني.. فإذا أخذنا منطقهم هذا، كان من حقنا أن نسألهم: هل يتسق مع هذا المنطق أن يستخرج جمال الدين جواز سفر إيراني ليذهب به إلى إسلامبول، عاصمة الإسلام السني والخلافة السنية، في تاريخ كانت المعركة قائمةً على أشدها بينه وبين مشيخة الإسلام السني؟!.

هل هذا معقول، ياعزيزنا الدكتور لويس؟!.

(هـ) وأخيرًا.. فإذا كان الأفغاني قد حمل في سنة (١٨٧١م) جواز سفر يثبت إيرانيته.. وأنه كان في ذلك التاريخ - وفق عبارة الدكتور لويس - « محافظًا على جنسيته الإيرانية ».. فلم ظل الجميع - في الشرق والغرب - يصدقون « أفغانيته »؟!، ولِـمَ لَـمْ تظهر دعوى « إيرانيته » إلا في سنة (١٨٩٦م)؟!.

إن من « يحرص على جنسيته الإيرانية ».. ومن يحمل « جوازات سفر إيرانية »، ليس هو الذي يخفي إيرانيته.. وليس هو الذي يجمع الناس على تصديق انتسابه إلى أفغانستان.. فهذه الأوراق - على فرض صحتها - ليست خاصةً بجمال الدين!.

٤- أما الورقة الرابعة:

فيقول الدكتور لويس: إنها « رسالة في الصناعات »، من

تأليف الشيخ أحمد الأحسائي، نسخها جمال الدين بيده أيام إقامته ببغداد، ووقعها - كناسخ - بإمضائه: « جمال الدين الحسيني »، ويذكر الدكتور لويس أن الأفغاني وضع كلمة « الإستانبولي » بعد اسمه.. وأن هذه الكلمة قد شطبت، ووضع عليها - بالحبر الأحمر - كلمة « الكابولي » نسبة إلى « كابول » عاصمة أفغانستان، كما أن كلمة « بغداد » قد شطبت هي الأخرى واستبدلت بكلمة أخرى غير مقروءة.. ثم يعلق الدكتور لويس على هذا الموضوع فيقول - بعد أن نسب عمليات الشطب والاستبدال إلى الأفغاني - يقول: « هكذا بدأ جمال الدين الأسد آبادي الإيراني - لأمر ما - يخفي منشأه الحقيقي وينتحل جنسيةً غير جنسيته.. »[1].

ولو كان الدكتور لويس على درايةٍ « بالمخطوطات » وما يصنع « النساخ » بها.. ولو استشار أهل الذكر من ذوي الدراية « بالخطوط » لتثبت قبل أن يقول ما قال، ذلك أن المتصور - من خلال كلامه - أن الأفغاني قد وقَّع على المخطوطة - كناسخٍ - باسمه: « جمال الدين الحسيني » - كما كانت عادته في التوقيع - ثم جاء القراء للمخطوطة فتنازعوا، كل منهم يريد أن يشرف موطنه بنسبة جمال الدين إليه.. فالبغدادي منهم قد كتب « البغدادي ».. ثم جاء من شطب ما وجد وكتب « الإستانبولي ».. ثم جاء من شطبها

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٩٠).

وكتب « الكابولي ».. فهذه أمور مألوفة من القراء الذين يبيحون لأنفسهم العبث بالمخطوطات.. وحرام أن نتخذ هذا « العبث » سبيلًا إلى ما هو أشد منه في تاريخ الرجال!!.

تلك هي « الأوراق » الأربع التي ضمتها « الملفات السرية الأوربية » التي اعتمد عليها الذين ادعوا « إيرانية » جمال الدين.. وهم الذين تبعهم - على دربهم هذا - الدكتور لويس.

لكن هذه « الملفات السرية الأوربية » قد ضمت تقارير أخرى وأوراقًا كثيرة، كتبها ساسة وقناصل وصحفيون - وأيضًا جواسيس - قالت: إن جمال الدين « أفغاني بالمولد والمنشأ »، ولقد جاء ذكر هذه التقارير والأوراق في دراسة الدكتور لويس.. فلم لم يقف عندها؟ ولِـمَ لَـمْ يقارن بينها وبين « الأوراق » الساقطة المتهافتة التي اعتمد عليها في تقرير « إيرانية » جمال الدين؟!.. على الأقل فإن التقارير والأوراق التي تقول إنه أفغاني، كانت تتحدث صراحةً عن الرجل - عن جمال الدين - ولم تكن تتحدث عن « السيد الرومي » ذلك المجهول؟!، ثم إنها محفوظة في ملفات المباحث، وأجهزة الأمن والاستخبارات، ووزارات المستعمرات في عواصم الاستعمار، ومن ثَمَّ فإنها من النوع الذي يحظى باحترام الدكتور لويس حتى ليسميها « وثائق »!.. فلم لم يعر انتباهه لهذه التقارير والأوراق.. من مثل:

(أ) تقرير « السير فرانك لا سيلز »: قنصل إنجلترا العام في مصر، الذي كتبه لوزير خارجيته اللورد سالسبوري، عن

جمال الدين الأفغاني، بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة (١٨٧٩م)، بمناسبة نفي الأفغاني من مصر، وفيه يقول: « أبلغني الأمير توفيق أنه قد نبه – منذ فترة – إلى نشاط رجل أفغاني اسمه جمال الدين، يحرض الشعب على الثورة.. »[١].

(ب) رسالة مراسل « التايمز » بالقاهرة لجريدته – التي كتبها في ٢٠ أغسطس سنة (١٨٧٩م)، والتي نشرت في ٣٠ أغسطس سنة (١٨٧٩م) –، وهذا المراسل قد عرف الأفغاني عن قرب، ولقيه، وأجرى معه حديثًا لجريدته، وهو يتحدث عنه في هذه الرسالة، فيقول: « ... فهو – بالميلاد – أفغاني من كابول.. »[٢].

(جـ) تقارير الجواسيس الإنجليز عن تحركات جمال الدين سنة (١٨٨٧م).. وهي تتحدث عنه كأفغاني.

(د) تقرير حكومة الهند إلى الحكومة البريطانية سنة (١٨٩٦م) عن جمال الدين.. وهو يتحدث عنه – أيضًا – كأفغاني[٣].

إنها – هي الأخرى – تقارير وأوراق، ضمتها « الملفات السرية الأوربية »، ولذلك كانت جديرة بالاعتبار من الدكتور لويس!.

● لقد كانت معركة الأفغاني الكبرى ضد الاستعمار الخطر

---

(١) التضامن، العدد ١ (ص ٥٥). (٢) التضامن، العدد ١ (ص ٥٥).

(٣) التضامن، العدد ١٥ (ص ٦٥).

الرئيسي الذي يهدد الشرق العربي والإسلامي في ذلك التاريخ.. وكان تركيزه الأساسي ضد الاستعمار الإنجليزي، لما كان يمثله كرأس حربة للاستعمار الأوربي يومئذٍ.. ولذلك فإن صراع الأفغاني مع الإنجليز في أفغانستان، والهند، ومصر، وإيران، والسودان، والعراق، وتركيا.. قد جعل الإنجليز أعرف الأوربيين بجمال الدين.. فإذا كانت تقاريرهم وكتاباتهم عنه حتى سنة (١٨٩٦م) - أي إلى ما قبل شهور من وفاته - تتحدث عنه «كأفغاني المولد والنشأة».. فمن أين؟.. ومتى ظهرت دعوى «إيرانية» جمال الدين؟؟.

لقد جاءت هذه الدعوى من خصوم الأفغاني في إيران، وبالتحديد من الشاه الإيراني مظفر الدين (١٢٧٠ - ١٣٢٥هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٧م)، أما متى ظهرت هذه الدعوى؟ فبعد مقتل الشاه الإيراني ناصر الدين (١٢٤٥ - ١٣١٣هـ/ ١٨٣١ - ١٨٩٦م).

ففي ١٧ ذي القعدة سنة (١٣١٣هـ)، ٣٠ أبريل سنة (١٨٩٦م) تقدم شاب يدعى ميرزا رضا - قيل إنه كان من تلاميذ الأفغاني - تقدم من الشاه ناصر الدين، وهو يزور «مشهد عبد العظيم» - المكان الذي طرد منه هذا الشاه جمال الدين الأفغاني، قبل سنوات، على نحو مهين وبالغ القسوة - تقدم ميرزا رضا من الشاه فصرعه بخنجره، وهو يصيح: «خذها من يد جمال الدين»!!.

وكان الأفغاني يعيش يومئذٍ بالآستانة.. فأراد الشاه الجديد: مظفر الدين استحضاره إلى إيران لمحاكمته والقصاص منه، بتهمة التحريض والتدبير لقتل الشاه ناصر الدين.. لكن، كيف السبيل إليه، وهو بالآستانة، في ضيافة السلطان السني عبد الحميد؟!.. هنا تفتق ذهن البلاط الإيراني عن حيلة الادعاء بأن جمال الدين إيراني الأصل والمولد.. بل وشيعي المذهب.. ومن ثمَّ فمن حق إيران أن تطلب من الدولة العثمانية تسليمه لها لمحاكمته كمحرض ومدبر لاغتيال الشاه ناصر الدين.. ولقد أوعز الشاه مظفر الدين إلى حاكم « أسد آباد » الإيرانية أن يكتب « عريضةً » يوقع عليها نفر من أهل المدينة، تشهد بإيرانية جمال الدين، ثم أرسلت هذه « العريضة » إلى الآستانة، ورفعت إلى السلطان عبد الحميد بواسطة « علاء الملك »، السفير الإيراني في تركيا.

تلك كانت بداية الدعوى.. وهذا هو مصدرها.. ومنها بدأت عملية التلفيق والجمع لشهادات نفرٍ من الناس، بعضهم زعم أنه من أقارب جمال الدين القاطنين في « أسد آباد » الإيرانية، ثم طبعت هذه الشهادات في الكتاب الذي حمل عنوان (جمال الدين الأسد آبادي - المعروف بالأفغاني) - وهو الكتاب الذي سبق وأشرنا إلى ما يحمله من تناقضاتٍ وقصصٍ واهيةٍ تجعله أدخل في « العبث » وأبعد ما يكون عما يلزم المراجع والمصادر من تماسك يكسبها الاحترام!!.

وكما كانت تلك هي بداية الدعوى.. فلقد كان هذا « الكتاب » عمدة الذين زعموا « إيرانية » جمال الدين!..
أما قبل هذا التاريخ - الذي سبق وفاة الأفغاني بأقل من عام - فلم تكن هناك « ورقة » أو دعوى تتحدث عن « إيرانية » جمال الدين.. بل إن كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) ذاته يحدد ويعلن أن مقتل الشاه ناصر الدين كان السبب الذي أدى - كما يقول - « إلى كشف حقيقة جمال الدين.. وأنه إيراني المولد والمنشأ.. شيعي العقيدة والمذهب.. »، بل ويعترف أن هذه الدعوى قد مثلت أمضى أسلحة خصوم جمال الدين في صراعهم ضده.. ذلك: « أن خصوم جمال الدين، حينما أخذوا يناوئونه ويدسون له، لم يجدوا شيئًا يغمزونه به إلَّا كونه إيرانيًّا شيعيًّا، وأنه يكذب ويدعي أنه أفغاني سني، حتى يجد له طريقًا في تركيا والأقطار الإسلامية التركية!.. »[1].

لقد أراد الشاه مظفر الدين - بهذا الادعاء - « إعدام جسد » جمال الدين الأفغاني.. وأراد خصومه الفكريون من شيوخ الرجعية العثمانية، وعلى رأسهم الشيخ أبو الهدى الصيادي (١٢٦٦ - ١٣٢٧هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٩م) - بتلقفهم هذا الادعاء - « إعدام حركة البعث والتجديد الإسلامي » التي قادها وجسَّدها جمال الدين.

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي (ص ٢٥، ٢٦).

ثم جاء الخصوم الألداء لتيار « الصحوة الإسلامية » وحركة « الإحياء الإسلامي »، فتلقفوا هم أيضًا هذا الادعاء لتشويه هذه « الصحوة » وهذا « الإحياء »، بإهالة التراب على الرمز الذي ارتاد ميدانها.. وذلك بإظهاره في صورة « الكاذب - الأفّاق »!..

لقد بدأ الشاه مظفر الدين القصة بالعريضة - التي تشبه « شهادة شيخ الحارة » - تلك التي كتبها « عمدة » « أسد آباد ».. وتلقف أبو الهدى الصيادي الخيط، فكتب إلى رشيد رضا، عقب وفاة الأفغاني، يقول: « إني أرى جريدتك - (المنار) - طافحةً بشقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها، وقد ثبت في دوائر الدولة رسميًا أنه مازندراني - (نسبة إلى مقاطعة مازندران الإيرانية) - من أجلاف الشيعة.. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية.. »[1]!.. ثم جاء نفر من صبية المستشرقين - صهاينة وأشباه صهاينة - فساروا على درب الادعاء « بإيرانية » جمال الدين.. حتى كانت الطبعة العربية لدعاواهم هذه، تلك التي خرج علينا بها الدكتور لويس عوض، والتي جعل عنوانها: (الإيراني الغامض في مصر)!!.

تلك هي قصة « إيرانية » جمال الدين.. وذلك هو حظها العظيم من التهافت والسقوط!.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٩٠).

● وكما أن « إيرانية » الأفغاني - لو كانت حقيقة - ما كانت لتعيبه.. فكذلك « شيعيته » - لو كانت هي مذهبه - ما كان لها أن تنقص من قدره في نظر المسلمين المستنيرين!.. فتراث الإسلام الفكري والعلمي والحضاري يزدان بأعلام الشيعة، في كل الميادين، وعلى مر العصور.. لكن .. كما كان الهدف من دعوى « إيرانيته » هو إظهاره في صورة « الكاذب »، كذلك كان الهدف من دعوى « شيعيته »!.

ومن البداية: نريد أن نؤكد أن جمال الدين لم يكن متمذهبًا بالمعنى الضيق لمصطلح « المذهب »، كما شاع ويشيع في حياتنا الفكرية والعملية.. وإنما كان مسلمًا مجتهدًا.. لقد كان يأخذ إسلامه من المصادر الأصلية للإسلام، ولا يقلد في ذلك مذهبًا من مذاهب المسلمين.. كان « يشرب الماء من النهر، لا من الساقية! »، لكن الرجل لم يكن شيعيًّا بحالٍ من الأحوال، وإن ربطته بمجتهدي الشيعة علاقات كالتي ربطته بعلماء السنة في العصر الذي عاش فيه.. كان مسلمًا مجتهدًا، لكن نشأته، وتكوينه الفكري، واختياره قد جعل « السنة » - بالمعنى العام - الإطار الذي مارس فيه الاجتهاد!.

ولنا على هذا الرأي أدلة كثيرة.. منها: ما أخذناه من شهادات العلماء العدول الذين عاشروا جمال الدين وزاملوه وشاركوه فكره ونضاله وخبروه - ونموذجهم الذي نختاره هو الأستاذ الإمام محمد عبده - ومنها: ما استقيناه من

المصدر الأوثق والمرجع الأول، وهو فكر جمال الدين ذاته، الذي يحدد الإطار المذهبي الذي عاش فيه.

(فالعروة الوثقى) - الجمعية السرية - كانت رئاستها للأفغاني.. وكان محمد عبده نائبه في رئاستها.. وعندما سأل أحد أعضائها محمد عبده عن « مذهب » (الجمعية) كتب إليه يقول: « إننا سنيون، أشعريون أو ماتريديون، وإننا في أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة.. وفي المعاملات على مذهب حاكم البلاد، إن وافق واحدًا منها، فإن كان على غيرها توقينا المرافعة إليه ما أمكننا.. »[1].

فهي جمعية سنية المذهب، إن في العبادات أو المعاملات.

وعندما ترجم الأستاذ الإمام لأستاذه جمال الدين كتب انطلاقًا من « كمال الخبرة وطول العشرة » - حسب تعبيره - عن مذهب جمال الدين يقول: « ... أما مذهب الرجل فحنيفي - (أي مسلم موحد) حنفي، - (والمذهب الحنفي هو السائد في أفغانستان) - وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميلٍ إلى مذهب السادة الصوفية.. »[2].

وحتى كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) - الذي يزعم « إيرانية » جمال الدين - نراه قد ضم « شهادةً » لأحد الأحرار

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (١ / ٦١٤).

(٢) المصدر السابق (٢ / ٣٥١).

الإيرانيين المشتغلين بالمعارف في أذربيجان - وهو الميرزا السيد حسين خان عدالت - تثبت أن جمال الدين كان مجتهدًا، لم يضع نفسه في الإطار المذهبي الضيق.. يقول صاحب هذه « الشهادة »: « وكان كل من يسأل عن مذهب السيد، يجيبه:« بأني مسلم »!، وحدث أن سأل أحد علماء السنة السيد قائلًا: ما عقيدتك؟ فأجاب: « إني مسلم ! »، فسأله ثانية: من أي المذاهب أنت؟ فأجاب السيد: إني لم أعرف في أئمة المذاهب شخصًا أعظم مني حتى أسلك طريقته!.. إني أوافق بعضهم في أمر، وأخالفهم في أمور!.. »[1].

فرغم اتسام الإجابة بحدة الجدل، إلا أنها تنم عن الاجتهاد الذي يرفض التمذهب - بالمعنى الضيق - ويأبى التقليد!.

وهناك الكتب التي شرحها الأفغاني لتلاميذه في سنوات إقامته بمصر، وهي التي تعكس تكوينه الفكري واختياره المذهبي بالمعنى العام.. وهذه الكتب - التي ضمت مجموعة من عيون كتب المنطق، والهيئة، والتصوف، والفقه، وأصوله - هي من مصادر الفكر السني، وهي - لذلك - شاهد على أن « السنة » كانت « خياره الفكري والمذهبي »، وليس الشيعة والتشيع.. فمن هذه الكتب:

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي (ص ١٦٢).

١ - (الرسالة الزوراء) - في التصوف - للإمام السني جلال الدين الدواني.

٢ - (شرح القطب الرازي على الشمسية) - في المنطق - والشارح - و هو: القطب الرازي - سني.. وصاحب « المتن » - (الرسالة الشمسية) - هو المفكر السني نجم الدين أبو الحسين علي بن عمر القزويني الكاتبي، المعروف بدبيران.

٣- (مطالع الأنوار) - في المنطق - للمفكر السني سراج الدين أبو الثناء محمود بن أبي بكر الأرموي.

٤- (سلم العلوم) - في المنطق - للعالم السني محب اللّـه بن عبد الشكور البهاري.

٥- (الهداية) - في المنطق - للعالم السني أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري .

٦ - (الإشارات) لابن سينا.

٧- (حكمة العين) - في الإلهي والطبيعي - للعالم السني الكاتبي القزويني.

٨- (حكمة الإشراق) - في التصوف - للسهروردي المقتول.

٩ - (شرح الدواني للعقائد العضدية) - في علم الكلام - للإمام السني جلال الدين الدواني.

١٠ - (التوضيح - بحاشية التفتازاني) - في فقه الأحناف - لصدر الشريعة الأصغر عبيد اللّـه بن مسعود ابن تاج الشريعة.

١١- (التلويح في كشف حقائق التنقيح) - في أصول الفقه - للعالم السني سعد الدين التفتازاني.

١٢- (متن الجغميني) - في الهيئة - للعالم السني أبو علي محمود بن محمد بن عمر شرف الدين الجغميني.

١٣- (العقائد النسفية - بشرح التفتازاني) - وهو من أمهات كتب السنة (الأشعرية) في العقائد -.

١٤- (تذكرة الطوسي) - في الهيئة - للعالم الشيعي نصير الدين الطوسي..[1].

فهذه الكتب السنية في أغلبيتها الساحقة، وفيها أمهات لكتب العقائد السنية - والأشعرية بالذات - دليل على التكوين الفكري والخيار المذهبي - السني - لجمال الدين الأفغاني.

وفي شرح الأفغاني وتعليقاته على أحد هذه الكتب (شرح الدواني للعقائد العضدية) تشيع العبارات التي تقطع « بالخيار السني » لجمال الدين.. من مثل قوله في الحديث عن مشايخ « مذهبه »: « ... وهذا هو دأب مشايخنا؛ كالشيخ الأشعري، والشيخ أبي منصور - (الماتريدي) -

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٣٢)، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة، لسركيس، طبعة القاهرة سنة (١٩٢٨م). وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، طبعة إستانبول سنة (١٩١٤م) والتفسير ورجاله، لمحمد الفاضل ابن عاشور، طبعة القاهرة سنة (١٩٧٠م). والقاموس الإسلامي، لأحمد عطية اللـه، طبعة القاهرة.

ومن ماثلهم، لا يأخذون قولًا حتى يسددوه ببراهينهم القوية، على حسب طاقتهم!.. »[١].

وكذلك تعبيره، الذي يتكرر كثيرًا في تعليقاته على (شرح الدواني للعقائد العضدية)، عندما يشير إلى أئمة السنة - والأشعرية بالذات - فيقول عنهم: « أصحابنا! ».

تلك من بعض الأدلة التي تزكي الرأي القائل بأن الخيار المذهبي لجمال الدين الأفغاني كان « السنة ».. وأن اجتهاده كان في ميدانها.. وأن الرجل لم يكن شيعيًّا بحالٍ من الأحوال.

ثم.. إن هناك أدلة أخرى يمكن أن تضاف إلى هذه الأدلة، وهي التي وردت في فكر الأفغاني عندما عرض لفكر الشيعة وآرائهم، فنبرة النقد فيها، وموقف الرفض لها دليل - هو الآخر - على خياره السني.

فالذين زعموا أن جمال الدين شيعي قالوا عنه - كالدكتور لويس عوض -: إنه باطني.. يتخلق بخلق « التقية » الذي يجعل الإنسان يُظهر غير ما يُبطن!.. لكننا واجدون للأفغاني فكرًا واضحًا وحاسمًا يرفض « التقية »، وينتقد كتمان ما يجب أن يعلن من الآراء والأخلاق.. يقول: « إني لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازمًا، إلا ما كان في علانيته شينًا ومعرةً، ولا يكون الكمال النسبي في البشر إلا إذا كثر إعلانهم وقلَّ كتمانهم، فدولة تكتم عن

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١ / ٢٢٢).

أمتها كل أمورها لا خير فيها، ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها، ورجل يرى كل شيء - يقال له، أو يجب أن يقوله - سرًّا مكتومًا - لا يرجى إلا نفاقه، وما هو بالرجل الرجل! ولا بشبه رجل، (ومن أحب فليعلن) والمحبة هنا على مطلق المعنى، لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوالٍ وأفعالٍ وصفاتٍ وذاتٍ، فمن أحب الصدق من القول لا يكتتم به، ولا يخشى بأسًا من إعلانه، بالعكس، إذا أحب الكذب والكاذب فخليق به أن لا يعلن ذلك! »[1].

هذا عن رفضه « للتقية » التي يعتبرها الشيعة دينًا يتدينون به.. ويقولون: إن الإمام جعفر الصادق (٨٠ - ١٤٨هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٥م) قد قال عنها: « التقية ديني ودين آبائي »! لقد رفضها الأفغاني، بل ورفض فلسفتها!.

وأي قلم يتحلى بالأمانة يتهم جمال الدين « بالباطنية » ويزعم أنه « باطني ».. وفي فكر الرجل إدانة صريحة، بل وحادة « للباطنية » - وهي من فرق الشيعة - الإسماعيلية -؟!، لقد صنفهم في عداد الماديين - الطبيعيين - وعدَّ ظهورهم بالعالم الإسلامي من أسباب الانهيار الحضاري الذي أصاب حضارة المسلمين، فكتب في رسالة (الرد على الدهريين) يقول: إنه « لما كان القرن الرابع بعد الهجرة، ظهر النيشريون (الطبيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية - (يشير إلى الشيعة

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٥٣٦).

الإسماعيلية ودولتهم الفاطمية بمصر) - وخزنة الأسرار الإلهية، وانبثت دعاتهم في سائر البلاد الإسلامية، خصوصًا بلاد إيران.. وكان إذا سقط الساقط من المغرورين في حبالة مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله: إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة، والصيام، ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق، والحق هو المرشد الكامل، فحيث إنك وصلت إلى الحق فإليك أن تلقي عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية!.. فإذا قرر المرشد أصول الإباحة في نفوس أتباعه، التمس لهم سبيلًا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب النيشرية (الدهريين)!.. »[1].

هذا هو رأي الأفغاني في الباطنية.. فهم - عنده - إباحيون، متحللون من تكاليف الإسلام، بل ومنكرون للألوهية، ماديون، دهريون!.. وهذا هو تسفيهه « لنظرية المرشد الكامل » التي لا يتورع الدكتور لويس عوض عن القول بأن الأفغاني قد اعتنقها في « صدر شبابه »[2]، دون أيَّة إشارة إلى أي دليل أو مرجع، حتى ولو كان « ورقةً » من الأوراق التي كتبها الجواسيس والمخبرون، والتي تحولت إلى « مصادر » ينقض بها إجماع العلماء في « دراسته » عن جمال الدين!!.

أما نقد الأفغاني للشيعة - بوجهٍ عامٍّ - ورأيه في غلوها

---

(١) المصدر السابق (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٢) التضامن، العدد ١٤ (ص ٧٨).

بآل البيت.. وفي بعضٍ من أصولها الاعتقادية.. فنحن نسوق لإثباته نصوصًا ثلاثة من كتاباته:

أولها: ذلك الذي يلقي فيه نظرةً تاريخيةً على نشأة التشيع، وينتقد فيه غلو الشيعة، ويشير إلى خطر الانقسام الذي شطر المسلمين إلى سنة وشيعة على صمود الأمة أمام ما يواجهها من تحديات.. وفي هذا النص يقول: « لقد ظهر لآل البيت النبوي - في أوقاتٍ وأزمنةٍ مختلفةٍ - أحزاب وشيع، فمنهم من ضلَّ (كالمؤلهة)، وهم قوم يقولون بألوهية عليّ ابن أبي طالب، ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) في محبة أهل البيت، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال: « يهلك فينا أهل البيت: محب غال، وعدو قَالٍ » - (أي كاره).

أما المفضلة من الشيعة، وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق، فهذا الجمهور من المسلمين - لمجرد تقليدهم للإمام جعفر، ومغالاتهم في حب الآل، وتفضيلهم للإمام عليّ - لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين.

ولقد تجسم أمر هذه الفروق في الفروع، وصارت واسطةً للتفرقة والنزاع، فللخصام فللاقتتال، تلك الأمور سهَّل وجودها جهل الأمة، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم.

أما مسألة تفضيل الإمام علي، والانتصار له يوم قتال معاوية، وخروجه عليه، فلو سَلّمنا أنه كان في ذلك الزمن

مفيدًا.. فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ليس فيها إلا محض الضرر، وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية.

ياقوم! وعزة الحق، إن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لا يرضى عن العجم، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر، وجميعهم لا يحسنون أمر دنياهم، « والناس أبناء ما يحسنون »، وكذلك أبو بكر، فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مرَّ زمنها، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا (كالبنيان المرصوص). أما قضية التفضيل، فلو استحقت البحث - بعد تلك الأجيال - لكفى أن يقال لحل إشكالها: « إن أقصر الخلفاء عمرًا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرًا »! فلو تولى الخلافة، بعد النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب، لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به - رضوان اللّـه عليهم أجمعين - حكمة اللّـه في خلقه، وإن أكرمكم عند اللّـه أتقاكم.. »[1].

ففي هذا النص الهام نرى جمال الدين:

١- يضع الشيعة الاثنى عشرية - الجعفرية - بسبب تفضيلهم الإمام عليًا - ضمن الهالكين بالغلو في محبة آل

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٣٢٤ - ٣٢٦).

البيت.. وإن كان ينهى عن إخراجهم من عداد جمهور المسلمين بسبب هذا الغلو وهذا التفضيل.

٢- ينتقد فكرة تفضيل الإمام عليّ في المقارنة بينه وبين الصحابة من الخلفاء الراشدين، ويراها « مخالفةً لروح القرآن الكريم ».. بل وينتقد بقاء تفضيله حتى على معاوية ابن أبي سفيان، لمرور زمن هذا التفضيل وانقضاء مبرراته، فهو اليوم « نعرة ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرا الوحدة الإسلامية.. ».

ونقد « مسألة التفضيل » هو نقد لصلب المذهبية الشيعية.. والدعوة إلى تجاوزها تعني الدعوة إلى إلغاء المبرر الذي يميز الشيعة عن السنة، ويقسم وحدة المسلمين في العصر الذي نعيش فيه!!.

فأين هي « شيعية » جمال الدين التي يزعمها الذين لا يفقهون؟!.

وثانيها: أي ثاني النصوص التي نسوقها مثالًا لنقد الأفغاني للشيعة وعقائدها - فهو ذلك النص الذي يرجع فيه « عقيدة الرجعة » - التي هي من عقائد الشيعة الاثني عشرية - مع عقيدة التناسخ - إلى فكر « الباطنية » - الذين سبق ورأينا حكمه عليهم بإنكار الألوهية وإسقاط التكاليف، وبأنهم طبيعيون دهريون - يقول الأفغاني عن « عقيدة الرجعة » الشيعية-: « ولما كانت الرجعة - أي رجوع بعض الأئمة

السابقين وتابعيهم - من الأصول الثابتة في مذهب الإمامية، والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدةً طويلةً، كان له بقايا في النفوس.. »[١].

وهو يسوق هذا النقد في معرض نقده لعقائد « البابية »، التي جاءت فحملت عقائدها الكثير من المواريث الباطنية والأفكار الإمامية!.

وثالثها: ذلك النص الذي يدعو فيه جمال الدين إلى إلغاء « العقيدة المحورية » للمذهب الشيعي، وهي « عقيدة الإمام المعصوم »!.. فمن المعروف أن الفرق الإسلامية غير الشيعية قد رأت أن مصدر الدين هو الشرع، وأن الحجة في إجماع الأمة، على حين انفرد الشيعة بالقول إن المصدر هو الإمام المعصوم؛ لأن الأمة من الممكن أن تجتمع على الضلال أو النسيان، ولأن الشرع - بما فيه القرآن - لا بد له من « قيم » معصوم، وهو الإمام؟![٢].

وفي نقد هذه العقيدة الشيعية المحورية - بل ورفضها - يقول الأفغاني: « كفى بالإيمان والشرع معلمًا، فيكفي ما نتيقنه من القرآن، فلا حاجة إلى المعلم المخصوص، وهو

---

(١) دائرة المعارف، لبطرس البستاني. مادة « البابية » وهي من تحرير جمال الدين الأفغاني.

(٢) الطوسي أبو جعفر، « تلخيص الشافي » (ق ١) (١/ ١٩٤، ١٩٥)، « هامش » تحقيق السيد حسين بحر العلوم، طبعة النجف سنة (١٣٨٣/ ١٣٨٤هـ).

الإمام المعصوم، ولسنا نحتاج إلى نائب عن الشرع إلا في مجرد التبليغ، ثم من الشرع نفسه يكون العلم والأخذ.. »[١].

تلك هي بعض نصوص جمال الدين الأفغاني، التي تنتقد عقائد الشيعة الإمامية، والجعفرية الاثني عشرية، بل وتنقض بعض الأصول الجوهرية في تلك المعتقدات.. وهي نصوص لو وعاها وفقهها الذين زعموا أنه « شيعي » يتظاهر بأنه « سني » لأراحونا من نقد ما كتبوا وتفنيد ما زعموا وأشاعوا عن جمال الدين!.

● بل ليت أمر الدكتور لويس عوض قد وقف عند ترديد زعم الذين زعموا « شيعية » جمال الدين الأفغاني.. فلقد ذهب فزعم أنه كان « بابيًّا » في فترة من فترات حياته[٢].. وأنه قد « تعلم عند البهائيين، كما تعلم عند الشيعة.. »، وهو ينسب هذا الادعاء إلى « الوثائق ».. لكنه لا يشير - مجرد إشارة - إلى أيٍّ من هذه « الوثائق »[٣]، ولذلك فليس أمامنا إلا أن نقدم للقارئ فكر جمال الدين الذي ينتقد البابية والبهائية.. والذي يسفه من آرائها وعقائدها.. والذي يرجع بعض هذه العقائد إلى فكر « الباطنية » المادي الدهري.. والذي ينتهي إلى نقض مذهبهم من الأساس.

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (١ / ٣٠١).

(٢) التضامن، العدد ١٤ (ص ٧٨).

(٣) التضامن، العدد ١ (ص ٥٣).

ونحن نعجب من إغفال الدكتور لويس الإشارة إلى فكر الأفغاني هذا الذي جسد عداءه للبابية.. ففي « دراسته » يورد اسم المستشرق المجري جولد سيهر، فيرفض روايته عن الأفغاني ضمن ما رفض من روايات العلماء والمؤرخين وكبار المستشرقين.. وذلك يعني أنه قد اطلع على ما كتبه جولد سيهر عن الأفغاني.. ومعروف أن هذا المستشرق قد كتب مادة « جمال الدين الأفغاني » في (دائرة المعارف الإسلامية)، وفي هذه « المادة » قال جولد سيهر: إن جمال الدين « هو صاحب مادة البابية في دائرة معارف البستاني »، فَلِمَ لَمْ يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغاني عن « البابية » في (دائرة المعارف) التي أصدرها « المعلم بطرس البستاني »؟!.. إن الأفغاني يقول فيها عن (البابية) إنها « دين ظهر في بلد العجم نحو سنة (١٨٤٣م) بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد علي محمد.. وهو خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية.. وكتابها (البيان) يحتوي على كثير من العربي المسجوع وبعض الفارسي، إلا أن العربي منه كان ملحونًا، فلما سُئل السيد علي محمد عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل - (بزعمه) - مع أن اللحن نقص؟ أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزمن الأول، عوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب، وحيث إن بعثتنا جاءت رحمةً للعالمين، فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين ، حتى

الحروف والكلمات، فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط!..

ولقد فشا بين البابيين التعدي والغدر.. فسفكوا دماءً كثيرةً، وكانوا أشبه الناس بالفداوية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين، ومن لوازم مذهبهم أن كل من خالفهم فدمه هدر.. والبابية تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت.. ووحدة اللاهوت مؤلفة - على زعمهم - من ١٩ أقنومًا، رئيسهم الباب - عندهم - أعظم من محمد.. »[١] عليه الصلاة والسلام.

فهل هو « بابي » ذلك الذي يراها « دينًا » - أي أنها ليست مجرد فرقة في إطار الإسلام - وأن هذا الدين « خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية.. »، وأن المتدينين به أهل « غدر وتعد وسفك للدماء ».. وأنهم أقرب إلى عقيدة النصارى، في الألوهية، منهم إلى عقيدة الإسلام؟!.. هل هو « بابي » ذلك الذي يقول هذا القول في « دينهم » ويسخر كل السخرية من كتابهم (البيان)؟!.

وإذا جاز للدكتور لويس أن يعتذر بعدم اطلاعه على ما كتب الأفغاني عن « البابية » في (دائرة معارف البستاني) - وهو عذر غير مقبول بالطبع - فهل يجوز له أن يحاول الاعتذار - مجرد المحاولة - عن تجاهله المتعمد الإشارة إلى

---

(١) دائرة المعارف، للمعلم بطرس البستاني - مادة « البابية ».

ما كتبه الأفغاني ضد « البابية » و« البهائية » في ذلك الكتاب الذي هو « عمدة » مراجعه في القول بأن جمال الدين « إيراني » وليس « بأفغاني »، كتاب (جمال الدين الأسد آبادي)؟!.

لقد جاء ذكر هذا الكتاب مراتٍ عديدة في « دراسة » الدكتور لويس.. وهو في هذه « الدراسة » قد اتهم الأفغاني بـ « البابية ».. وصمت عن أن يقول لقرائه شيئًا عن رأي الأفغاني في « البابية » وفي« البهائية »، وهو الرأي الذي جاء بهذا الكتاب في صورة « شهادة » « السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش، الأصفهاني، نزيل الآستانة »، يقول هذا « الشاهد » الذي عاش مع الأفغاني في الآستانة: .. وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية، كان السيد - (جمال الدين) - ينبري لتجريح عقيدتهم علنًا، ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامي، فلم يكن يرى فائدةً أو مزيةً للبابية، فهو يقول: « ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية، وأي خدمة أدوها للمسلمين إلا إبدالهم « القرآن » « بالبيان »، وتغييرهم « مكة » « بعكة »؟! ومثل هذا لا يمكن عده - في الحقيقة - إصلاحًا إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دينٍ جديدٍ، فالدين الإسلامي، بمقتضى الزمان والمكان، لم يكن بحاجة إلا إلى نوعٍ من التبسيط والتيسير فحسب، ولم تؤد معتقدات البابية إلى هذا الهدف أبدًا.. ينبغي أن تتمشى أحكام الإسلام

وتتلائم تعاليمه مع ظروف كل زمنٍ وحاجته، خوفًا عليه من الزوال، وهذا معنى ما قيل من أن اللّـه يبعث على رأس كل قرنٍ رجلًا ليصلح أمر هذه الأمة.. »[١].

فكما لم يكن جمال الدين « إيرانيًا »، كذلك لم يكن « شيعيًّا »، وهو - أيضًا - لم يكن « بابيًّا » - كما زعم الزاعمون بغير دليل - وإنما كان الرجل: « مسلمًا.. مجتهدًا.. مجددًا »، يسعى إلى تجديد « دنيا » المسلمين بواسطة تجديد « دينهم »، وذلك بتأسيس تمدنهم على أساسٍ متينٍ وأصيلٍ من الإسلام.

فالاجتهاد والتجديد هو مفتاح شخصية هذا الرائد الذي ارتاد لأمته ميدان البعث والإحياء الإسلامي.. وليست المذهبية الضيقة الأفق، كما زعم الزاعمون.

يقول الأفغاني عن الاجتهاد.. وضرورته.. وعن أهميته في تجديد حياة الأمة: « يا سبحان اللّـه! إن القاضي عياضًا قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه، وناسب زمانه، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه، وأصح من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة؟! وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس - (هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم) - قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا، وقالوا، وأدلوا دلوهم في الدلاء في

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي (ص ١٣٦، ١٣٧).

ذلك البحر المحيط من العلم، وأتوا بما ناسب زمانهم، وتقارب مع عقول جيلهم؟ وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان.

ما معنى: « باب الاجتهاد مسدود »؟! وبأي نصٍّ سد باب الاجتهاد؟! وأي إمام قال: لا ينبغي لأحدٍ من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! أو أن يهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث؟! أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجيات الزمان وأحكامه؟! ولا ينافي جوهر النص؟.

لا أرتاب بأنه لو فسح في أَجَلِ أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين مجتهدين، يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهمًا وتدقيقًا.. لقد اجتهدوا وأحسنوا.. لكنهم لم يحيطوا بكل أسرار القرآن، وما وصلنا من علمهم الباهر إنْ هو - بالنسبة إلى ما حواه القرآن والحديث - إلا كقطرةٍ من بحرٍ، وثانيةٍ من دهرٍ، والفضل بيد اللّـه يؤتيه من يشاء مـن عباده وعَلَّمَهم ما لم يكونوا يعلمون.

لا بد من حركة دينية.. تهتم بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشريعة على غير وجهها الحقيقي، وبعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور، وشرحها على

وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم، دنيا وأخرى. ولا بد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا، ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم، لنستعين بها على الوصول إلى الرقي والنجاح.. »[١].

ذلكم هو جمال الدين الأفغاني، أكبر من أي إقليم من أقاليم عالم الإسلام.. وأعظم من أن يأسره إطار المذهبية الضيقة الأفق..

إنه حكيم الشرق، وموقظه.. وفيلسوف الإسلام.. وداعية تجديد « دنيا » المسلمين بواسطة تجديد « الدين »!.

* * *

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص٣٢٨ - ٣٣٠).



الجامعة الإسلامية

إذا كانت « الثورة الثقافية » - في الفكر الإسلامي - التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني، هي التي جلبت عليه عداء أهل الجمود من الإسلاميين.. فإن دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » كانت « الجريمة الكبرى » في نظر « المتغربين » من « الإقليميين » و« العلمانيين »!.

فدعوة « الجامعة الإسلامية » تعني: أن للإنسان المسلم انتماءً إسلاميًا يحدد هويته وهوية الكيان السياسي والحضاري الذي يمنحه الولاء.. وهذا الانتماء الإسلامي له مردود يتجسد في خيارات:

فهو يعني رفض الوقوف بفكرة « الوطن » عند حدود دائرة « الإقليم »، بل ويتجاوز دائرة « الوطن القومي العربي » إلى « عالم الإسلام » الذي يضم « الأقاليم » و« القوميات ».

وهو يعني وجود « طابع حضاري » لهذا « الانتماء الإسلامي »، فعلاقات الأقاليم الإسلامية والقوميات التي يضمها عالم الإسلام لا تقف عند حدود حسن الجوار، أو المصالح الأمنية

والاقتصادية.. وإنما تعني - فوق ذلك - وجود « وحدةٍ في الحضارة الإسلامية » تجعل من عالم الإسلام هذا، بأقاليمه وقومياته منظومةً حضاريةً متميزةً بين الحضارات العريقة القائمة على ظهر الكوكب الأرضي في العصر الذي نعيش فيه.

وهذا الانتماء الإسلامي، يعني أن « العلمانية »، بمعنى فصل الدين عن الدولة، هي خيار أوربي لا يمكن قبوله في عالم الإسلام؛ ذلك لأن الإسلام وإن رفض « الكهنوت » و« السلطة الدينية »، على النحو الذي عرفته أوربا في عصرها الوسيط، إلا أنه دين ودنيا، بمعنى أنه لم يدر ظهره لشؤون الحياة المدنية، وتنظيم المجتمع، وسياسة الدولة، وعمران الأرض.. وإنما وضع لذلك الأطر، والفلسفات، والمثل والمقاصد، والغايات، ثم ترك للأمة - بالعقل والتجربة - حرية الإبداع في شؤون دنياها، في حدود هذه الأطر وفي ضوء روح الشريعة التي سنها الشارع ﷺ.

ومن ثمَّ فإن هذا الانتماء الإسلامي يعني أن مشروعنا الحضاري المستقبلي، وتمدننا المستهدف، والنهضة التي نسعى لنخرج بها من « التخلف الموروث » ومن « الغزوة الأوربية »، لا يمكن أن يكون هو المشروع الحضاري الغربي، لا لأنه قد شاخ وشاعت في أوصاله الأمراض الحضارية فقط، وإنما لتمايز أمتنا بالإسلام، في القسمات الحضارية والسمات الثوابت التي طبعت ولا بد أن تظل طابعةً لشخصية هذه الأمة الحضارية والقومية.. ليس لمجرد التمايز، ولا لمجرد

بعث الأصالة، ولا حبًّا في « الكبرياء القومي المشروع »، وإنما - فوق ذلك ومعه - لكي يبرأ مشروعنا الحضاري المتميز من هذه الأمراض الحضارية التي تقترب بالحضارة الغربية من هاوية الاحتضار!.. وأيضًا ليأتي هذا المشروع الحضاري المتميز ملائمًا لطبيعة الأمة، وقيمها، واعتدالها الذي جعلها أمةً وسطًا ترفض الجنوح والتطرف والظلم والغلو، وتسعى كي تؤلف - في حضارتها - بين ما هو عند الآخرين متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها، فضلًا عن التأليف والتوفيق!.

هذا بعض ما يعنيه « الانتماء الإسلامي » من رفضٍ « للإقليمية »، والتمزق، والتشرذم، والوقوف - باسم « الوطنية » - عند حدود الكيانات الصغيرة، في عصر الدول الكبرى والتكتلات العملاقة.. ومن رفض « للعلمانية » التي تفصل الدين عن الدولة، فتقطع حاضر الأمة عن تراثها وإبداع سلفها في التشريع والتقنين.. ومن رفض « للخيار الحضاري الغربي » الذي بشَّر به الاستعمار والاستشراق، ولا زال يبشر به « المتغربون »!.

ولذلك فليس غريبًا أن يصب العلمانيون مخزون حقدهم، بل وكل أكاذيبهم ومفترياتهم على الرجل الذي ارتاد ميدان « الخيار الإسلامي »، بدعوته إلى « الجامعة الإسلامية »: جمال الدين الأفغاني!.. وهذا هو ما فعله الدكتور لويس عوض - نموذج « الإقليمية » و« العلمانية » و« التغريب »

في الثقافة المصرية المعاصرة - عندما خرج علينا « بدراسته » عن جمال الدين.

لقد كانت « الأممية الإسلامية » التي بشَّر بها الأفغاني تحت شعار « الجامعة الإسلامية »، وهي « أممية » لا تلغي « الوطنية » ولا « القومية »، بل تبعثها وتحييها، وإن رفضت الوقوف عند تخومها وحدودهما، كانت هذه « الأممية الإسلامية »، بما تعنيه من « انتماءٍ إسلاميٍّ » له تجسد في المشروع الحضاري المستهدف، إن في السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو الفكر - « الأيديولوجية » - كانت هذه « الأممية الإسلامية » هي « الجريمة العظمى » للأفغاني بنظر الدكتور لويس وكل « الإقليميين » « العلمانيين » « المتغربين ».. فالدكتور لويس يتمنى أنْ لو كان الأفغاني - مع ثوريته - إقليميًّا، يقف بانتمائه وغاياته عن الحدود الإقليمية لمصر، مثلًا!!، فيقول: « آهٍ لو كان الأفغاني مصريًّا! إذن لحدد انتماؤه غاياته فلم يحلق هكذا بين النجوم والسحاب، ولربما وثبنا بقوته نحو التقدم والقوة والثبات؛ فقد كان طريقه طريق الثورة الثقافية، وليس طريق التطور الثقافي » كما هو الحال عند « محمد عبده الجبان!!! »[1] (كذا)!!.

وكما رفض الدكتور لويس الانتماء القومي العربي لمصر،

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس عوض (ص ١٩٢).

ووصف الدائرة الإسلامية والقومية العربية - في مقالاته التي هاجم فيها عروبة مصر - بأنها « أسطورة من الأساطير»[١]، فإنه يصف « الدائرة الإسلامية » التي فتح آفاقها أمام الإنسان المسلم شعار « الجامعة الإسلامية » بأنها « سفاسف »!، وهو يتمنى: « لو أن الأفغاني لم يشغل نفسه بسفاسف السياسة وبسفاسف الفكر السياسي التي طمست في آثاره مبادئ الهيومانزم، أو المذهب الإنساني، ولم تبرز للأجيال التالية إلا دعوته السلفية ودعوته الثيوقراطية »[٢]!..

فدعوة « الجامعة الإسلامية »، بما تعني من « انتماءٍ إسلاميٍّ » ومن « أسلمة المشروع الحضاري » هي - بنظر الدكتور لويس - « سلفية وثيوقراطية »، مع أن « السلفية » - عند الأفغاني - كانت ثورةً تجديديةً؛ لأنها تعني رفض « التخلف الموروث »، والعودة للمنابع، لا بهدف صب حاضرنا في قوالب السلف، وإنما بهدف استلهام « الأصول » و« الثوابت »، والنظر فيها « بعقلٍ معاصر »، والمزاوجة بين الصالح منها وبين الجديد والعصري لمواجهة التحديات والانطلاق إلى الأمام.. ومع أن « الثيوقراطية » هي مرض أوربي أفرزته الكهانة الكنسية الكاثوليكية في العصور الوسطى، ولا شبه لها في الإسلام،

---

(١) الأهرام، أعداد (٧/ ٤)، (٢٠/ ٤)، (١١/ ٥)، سنة (١٩٧٨م). والسياسة الدولية، عدد أكتوبر سنة (١٩٨٧م).
(٢) التضامن، العدد ١٦ (ص ٦٨).

ولا علاقة بينها وبين فكر الأفغاني، اللهم إلا أن تكون علاقة الرفض والعداء!!.

وبقدر ما عناه شعار « الجامعة الإسلامية » من إحياء « الانتماء الإسلامي »، وتأسيس التمدن الحديث على الأصول الإسلامية، بحيث تسعى الأمة إلى علوم العصر الطبيعية وتطبيقاتها؛ لأنها بنت الدليل - وفق تعبير الأفغاني - ولأنها مؤسسة على « قوانين » علمية تجعلها تتجاوز حدود الأوطان والقوميات والحضارات، فهي ثمار إنسانية وميراث إنساني، وفي ذات الوقت تبعث الأمة من تراثها وتطور - بالتجديد - تلك العلوم والفنون والقيم والثقافات التي تتلون - عادةً - في كل بيئةٍ حضاريةٍ بلونٍ خاص أو متميزٍ، مثل: الفلسفات، والعلوم الإنسانية، والقيم، والفنون والآداب، والشمائل والأخلاقيات.. بقدر ما عناه شعار « الجامعة الإسلامية » من هذا الموقف الاستقلالي في الانتماء الحضاري، ومن هذا « الخيار الحضاري الإسلامي ».. كان غضب الدكتور لويس!.. فهو يرفض « تفتيت وحدة الحضارة » الغربية، ويدعو إلى احتذائها جميعها، فكرًا وقيمًا وعلومًا، ويرى أن « نقطة الضعف » عند الأفغاني هي الدعوة إلى تفتيت وحدة هذه الحضارة، بحيث نأخذ منها « العلوم وتطبيقاتها » ونبعث من مخزوننا الثقافي والحضاري الفكر والقيم والفلسفات[1].

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص١٨٢).

إن موقف الدكتور لويس - ومعه كل « العلمانيين المتغربين » - ضد دعوة « الجامعة الإسلامية » هو موقف « العلمانية والتغريب » ضد « أسلمة » المشروع الحضاري للعرب والمسلمين.. هذا هو « الجذر الفكري » للخلاف!.

لقد سعى الغرب الاستعماري - ولا يزال - إلى تفتيت وحدة المسلمين، حتى ولو كانت شكليةً ورمزيةً، ولم تكن إزالة الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٤م) إلا مجرد إزالة رمز فقد كل المضامين، وذلك مخافة النهضة التي يمكن أن تملأ هذا الوعاء وذلك الرباط بالمضامين، من جديد.. كان الخوف من مجيء « التجديد » - الذي بدأه الأفغاني - هو الداعي لإزالة الرموز الإسلامية وتعفية آثارها وإزالة ذكراها - بالعلمانية والإقليمية والتغريب - من أذهان المسلمين!.. وفي هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغاني: « لأنه رأى أن لا منقذ للعالم الإسلامي إلا باتحاده في جامعةٍ إسلاميةٍ، داخل إطار خلافة تجعل الدين والدولة شيئًا واحدًا، وتسير على نهج الخلفاء الراشدين.. »[1].

ولقد سعى الغرب الاستعماري، ولا يزال.. وسعى « المتغربون »، ولا يزالون، إلى أن يبدأ العرب والمسلمون من حيث انتهى الأوربيون.. إن مرادهم هو أن تنسخ الحضارة الغربية موروثنا الحضاري، هذا الموروث الذي

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٨٣).

يمثل الإسلام السياسي والحضاري والفكري فيه دور الحكم والمعيار والمشروعية.. ومن هنا يأتي عداؤهم لأسلمة نهضتنا الحديثة وصبغ مشروعنا الحضاري بصبغة الإسلام.. وفي هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغاني الذي دعا إلى استقلال حضاري مؤسس على أصول الإسلام.. وقوله: « إن الأفغاني كان مفكرًا دينيًّا يشتغل بالسياسة بقدر ما كان مفكرًا سياسيًّا يشتغل بالدين.. لقد كان يريد كل شيء: الدين والدنيا جميعًا.. »، ولما كانت « العلمانية » ترفض الجمع بين السياسة والدين، فلقد اعتبر الدكتور لويس أن « مأساة » الأفغاني قد تمثلت في هذا الجمع بين السياسة والدين!، ولذلك فهو - في نظره - « رجعي في السياسة لم يوفق إلى حلّ ذلك الصراع الرهيب داخل نفسه بين شخصية المصلح الديني، الذي يسعى لتجديد الإسلام بالفكر الحديث، وبين شخصية الزعيم السياسي الذي يسعى لإنقاذ المسلمين من براثن الاستعمار الأوربي.. لقد كان على الأفغاني أن يختار بين شخصية المصلح الديني والثائر الاجتماعي الذي يقود معسكر الثوار.. »[1].

فبالمنطق العلماني هنا « تناقض » يفضي إلى « مأساة »، لكن « المنطق الإسلامي » يرى في هذا الجمع الأمر الطبيعي

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٠٦) والتضامن، العدد ٦ (ص ٦٨)، والعدد ١٧ (ص ٦٧).

المتسق مع طبيعة الإسلام وعلاقته بشؤون الدنيا.. فابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) كان المصلح الديني، والمقاتل لتحرير الأرض من التتار.. وكذلك كان « المهدي » في السودان.. « والسنوسي » في ليبيا.. و« ابن باديس » في الجزائر، وكذلك جمال الدين!.

إن هذه الثنائية، وذلك الفصل بين « الدين » و« السياسة »، بين « الإصلاح والتجديد الديني »، وبين قيادة الأمة في معركة التحرر والنهضة الحضارية، وهما من لوازم «العقلية العلمانية »، وهما اللذان جعلا الدكتور لويس يخطئ الخطأ المحوري في تقديره وتقويمه لعلاقة دعوة جمال الدين الأفغاني وحركته الثورية والإصلاحية بالدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢ - ١٩١٨م)، فحَكَّمَ تلك الأحكام الظالمة والعشوائية على دعوة « الجامعة الإسلامية » عندما قال: « لقد كانت رسالة الأفغاني في (العروة الوثقى) هي نسف الشعور القومي، وتدعيم الشعور الديني كأساس لمقاومة الاستعمار ولانحراف الحكام، ولم يكن هناك مستفيد - مباشرةً - من هذا التيار يومئذٍ إلا الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد، أما المستفيد - بطريقٍ غير مباشر - فقد كان الاستعمار في الخارج وأصحاب الحكم المطلق في الداخل.. كذلك كانت سياسة الأفغاني لمصر والسودان قائمةً على إعادة مصر

والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية، والقضاء على كل حركةٍ استقلاليةٍ فيها عن الباب العالي!.. »[١].

فهذه « الثنائية العلمانية » - التي لا ترى علاقةً ما بين الدين والسياسة - هي التي جعلته يتوهم أن « تدعيم الشعور الديني » لا بد وأن يستلزم « نسف الشعور القومي »، وأن « الحفاظ على الانتماء الإسلامي » - الذي مثلته دعوة « الجامعة الإسلامية » - إنما يعني « القضاء على الحركات الاستقلالية »، فالمنطق العلماني ومعاييره أعجزت الدكتور لويس عن أن يبصر - في فكر الأفغاني - كيف كان الرجل داعيةً إلى « الوطنية »، وإلى « القومية »، وإلى « الجامعة الإسلامية » في ذات الوقت، وكيف وضح توالي وتآزر هذه « الدوائر » في فكره، دونما تناقض أو تعارض، وكيف - أيضًا - كان الرجل داعيةً « للاستقلال » الذي تتدعم إمكاناته ويشتد عوده بتنمية روابط الانتماء الأوسع - لا بقطع هذه الروابط - الذي - كما قد ثبت - كان عامل ضعف لهذا « الاستقلال »!..

هنا يكمن « جذر الخطأ الفكري » في تقويم دعوة « الجامعة الإسلامية » عند جمال الدين.. وهي قضية تستحق المعالجة الصبورة والموضعية، لا لإقناع الدكتور لويس، وإنما بهدف

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٧٦، ٢٢٧، ٢٢٨).

الحوار الفكري الخلَّاق مع تيار العلمانية في وطن العروبة وعالم الإسلام.

أنا لست مع الدولة العثمانية، ورأيي أن استيلاءها على مصر والعالم العربي في العقد الثاني من القرن السادس عشر الميلادي قد مثَّل عاملًا سلبيًّا، أطال ليل التخلف المملوكي، وزاد فوضى الإدارة، وأخَّر تكوين «الدولة» بالمعنى الحديث، وأثقل الإنسان العربي بالمظالم الاجتماعية، وأطال سباتنا الحضاري، بينما كان العدو الأوربي ينهض، حتى فوجئنا به - في صورة بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) وحملته الفرنسية سنة (١٧٩٨م) - يقتحم علينا العصور الوسطى!.

وعواطفي الكاملة والحارة مع « الغوري » (٨٥٠ - ٩٢٢هـ/ ١٤٤٦ - ١٥١٦م)، وطومان باي (٨٧٩ - ٩٢٣هـ/ ١٤٧٤ - ١٥١٧م)، والفرسان الذين قاتلوا جيش السلطان سليم (٨٧٥ - ٩٢٦هـ/ ١٤٨٠ - ١٥٢٠م)، وهي كذلك مع ابن إياس (٨٥٢ - ٩٣٠هـ/ ١٤٤٨ - ١٥٢٤م) الذي رثى مصر والوطن العربي - بسبب الفتح العثماني - في رائعته (بدائع الزهور)!!.

وكذلك، فأنا لست مع أيَّة رابطة تجعل من مصر « ولاية تابعة » لا لأني - فقط - مصري عاشق لمصر، وإنما لأني أؤمن أن نهضة وطن العروبة وعالم الإسلام رهن بأن تلعب مصر دورها « القائد - الطبيعي » في محيطها العربي وعالمها

الإسلامي.. وأوقن أن أعداء العروبة والإسلام - تاريخيًا وفي الحاضر - قد كان ولا يزال سبيلهم لإضعاف العرب والمسلمين هو عزل مصر أو إضعافها، أو العزل والإضعاف كليهما، فهما مترابطان!.

وفي رأيي أن هذا الدور « القائد » لمصر هو « طبيعي »، بقدر ما هو « رسالة.. وعبء.. ومسؤولية »، وليس فخرًا قبليًا، ولا نعرةً إقليميةً، ولا تعصبًا وطنيًا بأي حالٍ من الأحوال، وهو أيضًا ليس طارئًا ولا حديثًا، فحقبة الخلافة الراشدة.. والأموية.. وشطر من خلافة بني العباس - هذه عندما كانت مصر « ولاية، تابعة » للمدينة فدمشق فبغداد - في هذه الحقبة كانت مصر تعيش « فترة النقاهة » بعد مأساة القهر البيزنطي الذي لم ينقذها من سحقه القومي ومسخه الحضاري إلا جيش عمرو بن العاص!.. وبعد فترة النقاهة هذه التي قنعت فيها بمركز « الولاية - المتميزة »، عادت إلى دورها « الطبيعي - القائد »: « دار خلافة.. فسلطنة »، حتى فاجأها غزو العثمانيين سنة (١٥١٧م).

ذلك هو رأيي في دور مصر.. وطبيعة علاقتها بقوميتها العربية وعالمها الإسلامي.. وفي أثر السلطنة العثمانية وتسلطها على تطور مصر والوطن العربي وعالم الإسلام.. وهو رأي أختلف فيه وبسببه مع إخوةٍ وأصدقاءٍ من الإسلاميين الذين أكن لهم كل التقدير والاحترام.

لكن.. هل من الحق ومن المنطق أن نضع الفتح التركي

والتسلط العثماني، مع الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي على قدم المساواة - كما يصنع الدكتور لويس عوض -؟! أم أن الموضوعية والإنصاف - خصوصًا إذا أخذنا ملابسات العصر الذي تم فيه هذا الفتح في الاعتبار - تجعلنا نرى في الدولة العثمانية رابطةً ظالمةً شدتنا إلى سلطة فقيرة في الحضارة والإبداع الحضاري إلى حد العدم!.. فزادت تخلفنا في الكم والكيف.. وأخرت يقظتنا وتقدمنا وبعثنا الحضاري عدة قرون.

وهي في ذات الوقت - بما مثلته من قوةٍ عسكريةٍ كاسحةٍ - قد أخافت الغرب الاستعماري - عدونا الأول والرئيسي - فكانت جدارًا من القوة أخّر غزوه لبلادنا حينًا طويلًا من الدهر.

وأيضًا فهي قد حفظت للأمة هويتها، وإن في صورتها الجامدة والمحافظة.

ثم ظلت حاملةً « لرمز الوحدة » - الخلافة -، الأمر الذي حفظ الإطار والوعاء فأعطى الأمل للمصلحين والثوار في إنجاز مشاريعهم الإصلاحية مع الحفاظ على « الوحدة » التي كان أعداؤنا - ولا يزالون - أحرص الناس على تفكيك عراها؛ ليلتهموا عالمنا الإسلامي إقليمًا بعد إقليم!.

ذلكم هو تقويمي لدور الدولة العثمانية في تاريخنا العربي

والإسلامي الوسيط.. ومنه - كمدخل - ننتقل إلى مضمون شعار « الجامعة الإسلامية » عند جمال الدين الأفغاني، لنتساءل:

هل كان الأفغاني يريد - « بالجامعة الإسلامية » - إحكام قبضة السلطنة العثمانية على رقاب العرب والمسلمين - بما يعنيه ذلك من كبت الحركات القومية والاستقلالية - والتخلي عن دعوة الثورة والتجديد، لتجاوز التخلف القائم - كي لا تغضب السلطة العثمانية أو تنفك رابطتها -؛ لأن الخطر الرئيسي المتمثل في الغزوة الاستعمارية الغربية كان يتطلب تسخير كل الجهود وجميع الطاقات للحرب على هذه الجبهة وحدها؟!.

هل كان هذا هو مفهوم ومضمون « الجامعة الإسلامية » عند جمال الدين الأفغاني - كما يقول الدكتور لويس -؟؟

أم أن الأفغاني - مع تركيزه على خطر الاستعمار الغربي - لم يتخل عن ثورته الإصلاحية التجديدية؟.. ومع دعوته « للوحدة » وراء الخلافة الواحدة، لم يغفل « الصراع » ضد عوامل التخلف، والرجعية، والضعف، والجمود، التي كانت تحرسها وتمثلها هذه الخلافة؟!.

هل كانت « الجامعة الإسلامية » - عنده - تعني « الوحدة » التي تغض الطرف عن التناقضات، وتدير الظهر للثورة والإصلاح والتجديد، كي لا تتبدد الجهود فتضعف المقاومة للخطر الرئيسي: الاستعمار؟؟.

أم أن هذه « الوحدة » كانت تتطلب - في فكر الأفغاني - الدعم « بالصراع » ضد عوامل التخلف، وبالثورة والتجديد لتنمية طاقات الأمة في صراعها ضد الاستعمار؟؟.

إننا مع التصور الثاني والتفسير الثاني لمفهوم « الجامعة الإسلامية » عند الأفغاني، ولسنا مع المفهوم الأول الذي تصوره الدكتور لويس.

إن أهمية هذه القضية تتعدى حدود إنصاف الأفغاني من خصومه!.. فنطاقها يتجاوز تقويم دعوة « الجامعة الإسلامية » في النصف الثاني من القرن الماضي، إلى مضمون هذه الدعوة ومفهومها اليوم وغدًا؟!.

.. « جامعة إسلامية » لماذا؟.. ولأيّة أهداف؟.. وبأي مضمون؟.. ولحساب مَنْ مِنَ القوى الاجتماعية والسياسية في واقعنا الراهن؟.. وما علاقتها بالتمايز القومي في المحيط الإسلامي؟.. وما هي « طبيعة » السلطة السياسية في « الدولة » عند دعاة « الجامعة الإسلامية »؟.. إلخ.. إلخ..

إنه مبحث هام وضروري، تتجاوز أهميته وضرورته نطاق التأريخ! والآن.. لنبدأ بأولى الخطوات التي تجيب على هذا السؤال:

هل كان مضمون شعار « الجامعة الإسلامية » واحدًا عند كل الدعاة الذين رفعوا هذا الشعار؟.. بحيث يمكن تصور قيام الاتفاق حول هذا المضمون، بين كلٍّ من

الأفغاني والسلطان عبد الحميد، لمجرد أنهما قد رفعا معًا شعار « الجامعة الإسلامية »؟!.

إن « الجامعة الإسلامية » قد عنت وتعني - في الأساس - ذلك التيار الفكري والسياسي العريض، الذي أبصر قادته وأنصاره أن هناك عددًا من التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي والشعوب والأمم الإسلامية، سواء أكانت تلك التحديات آتيةً من داخل الأوطان الإسلامية، كالتخلف الفكري والروحي، والانحدار الحضاري والسياسي، والصراعات الإقليمية والقبلية، أو آتيةً من الخارج في شكل المد الاستعماري والإمبريالي الذي زحف من أوربا على الشرق، وخاصةً في القرن التاسع عشر.. تيار الجامعة الإسلامية هو الذي أبصر أصحابه هذه التحديات، ثم آمنوا بأن تشخيصها - في مختلف هذه البلاد - له كذلك طريق واحد يؤدي إلى تلك الغاية الواحدة المنشودة، وهي التغلب على هذه التحديات، والعودة بالمسلمين - ثانية - إلى التأثير الإنساني والعطاء الحضاري، كما كانوا قبل أن تقهرهم هذه التحديات.

ذلك هو الوصف العام لتيار « الجامعة الإسلامية »، الفكري والسياسي، كما عرفه الشرق في ذلك التاريخ..

ولكن وحدة هذا الشعار لم تخف - في يومٍ من الأيام - عن عين الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التي جعلت - في الحقيقة والواقع - من تيار « الجامعة الإسلامية » عددًا من « المدارس » و« الفصائل »، بينها من عوامل الاختلاف

والتمايز - أحيانًا - الشيء الكثير، بل والخطير!.. ومن هنا كانت ضرورة إلقاء نظرةٍ على « خريطة » « الجامعة الإسلامية »، لتمييز أهم ما ضم هذا التيار من « المدارس » و« الفصائل » التي رفعت هذا الشعار.

فنحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية، التي أسسها إمامها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م) كأقدم تيارٍ فكريٍّ وسياسيٍّ يمكن أن يندرج تحت شعار « الجامعة الإسلامية » في عصرنا الحديث، فلقد كانت الوهابية - في الفكر - حركةً ودعوةً ترمي إلى تجديد شباب الإسلام والمسلمين عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التي دخلت في عقائد المسلمين، وهي البدع والخرافات التي كونت الجزء الأساسي من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها الفكرية عن عقائد الإسلام، ومن ثَمَّ كانت الوهابية - سياسيًّا - حركة مناهضة للعثمانيين[1].

ولقد كانت الحركة السنوسية التي أسسها بالمغرب العربي إمامها محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ/ ١٧٨٧ - ١٨٥٩م) هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الإفريقي، بعد أن أدخلت في بنيتـها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان، وتحديات الاستعمار الغربي - وخاصةً الفرنسي - التي كانت تزحف على تلك المنطقة في

---

(١) حاضر العالم الإسلامي (مجلد ١ ج١ / ٢٩١).

ذلك الحين.. ومن ثمَّ فإن السنوسية - كذلك - بطابعها الصوفي الذي تميزت به عن الوهابية، كانت هي الأخرى تيارًا يعمل ويناضل تحت شعار «الجامعة الإسلامية»[1]..

وكذلك الدعوة والحركة المهدية التي أسسها - بالسودان - إمامها محمد أحمد «المهدي» (١٢٦٠ - ١٣٠٢هـ/ ١٨٤٤ - ١٨٨٥م) بما مثلت - في الفكر - من تجديدٍ.. وفي السياسة من تصدٍّ للغرب والأتراك.. ومن دعوةٍ لتحرير عالم الإسلام «من غانة إلى فرغانة» - كما قال المهدي - كانت هي الأخرى فصيلة من فصائل «الجامعة الإسلامية»، تلاءمت مع ظروف السودان وواقعه في ذلك التاريخ[2].

ثم.. هناك التيار الذي قاده الأفغاني، والذي كان - بحقٍّ - أبرز تيارات «الجامعة الإسلامية» في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. والذي تميز بامتداده إلى مختلف بقاع عالم الإسلام، على عكس الوهابية والسنوسية والمهدية.. كما تميز عنها بعددٍ من الخصائص في مقدمتها:

١- الإصلاح الديني من منطلق العقلانية، إيمانًا بأن الشرق لن ينتصر في صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل، ذلك السلاح الذي ضمن للغرب تفوقه في هذا الصراع.

٢- تجديد الصلات الحضارية مع الغرب، واقتباس

---

(١) المصدر السابق (مجلد ١ج١ / ٢٩٠).

(٢) انظر: دراستنا عنها في كتابنا «العرب والتحدي» (ص ١٧٥ - ١٩٤)، طبعة الكويت سنة (١٩٨٠م).

المناسب من حضارته - كما صنع العرب والمسلمون في العصر العباسي - حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضاري مرةً أخرى.

٣- المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية، وتنمية جوانبها الإيجابية، والعمل على تجديد شبابها، لا من منطلق الإيمان بها كخلافةٍ إسلاميةٍ وإمارةٍ للمؤمنين، وإنما من منطلق الضرورات التي يحتمها التصدي للعدو الرئيسي، وهو الاستعمار الغربي الزاحف على ديار الإسلام.. فهو يحافظ عليها سياسيًّا، ويحاول تنمية قواها السياسية، ويهاجم فكريتها الرجعية المتخلفة بهدف تطورها وتجديد شبابها. ومن أجل ذلك لم يناصر هذا التيار حركات الانفصال القومي العربي عن الإمبراطورية العثمانية؛ لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوربي كي يكون هو الفائز الأول - وربما الوحيد - من وراء الصراع القومي وحركات الاستقلال القومية ضد العثمانيين.

لقد كتب الأفغاني في ١١ ديسمبر سنة (١٨٨٣م) - في صحيفة « الانترانسيجان » الفرنسية - ليكشف المخطط الإنجليزي - الذي استطاعت إنجلترا تنفيذه، مستخدمةً الشريف حسين سنة (١٩١٦م)، أي بعد كتابة الأفغاني لما كتب بأربعةٍ وثلاثين عامًا!! - كتب الأفغاني يقول: « إن بريطانيا لديها مخطط لإقامة خلافةٍ صغيرةٍ في مكة لصالح أسرة بني عون، التي يتقلد أحد أفرادها حاليًّا منصب شريف

مكة، وغرض بريطانيا من ذلك هو التخلص - من خلاله - من وجود قوة عظمى - (الخلافة الإسلامية الواحدة) - للسيطرة على جميع المسلمين »[1]!.

و « بلنت » يحكي أن الأفغاني - حتى في لحظات يأسه من إصلاح القيادة التركية للسلطنة العثمانية - كان يفكر في تغيير هذه القيادة « بتعريب » الخلافة، مع المحافظة على وحدتها، بل وعلى عاصمتها، فهو « الصراع » في إطار « الوحدة »، الذي جعله يفكر في إحلال « مهدي السودان » أو « الشريف حسين » أو « إمام صنعاء » محل السلطان عبد الحميد، مع بقاء وحدة الخلافة، وفتح الطريق - بإزالة عقبة التخلف التركي - لتجديد شبابها!.. يقول « بلنت » - فيما دوَّنه بيومياته في ٨ أكتوبر سنة (١٨٨٥م) -: « .. حديث طويل مع جمال الدين حول آمال المستقبل في إستانبول، إنه يؤيد فكرة أن المهدي، أو خلف المهدي يحتل مكان السلطان، أو أن يفعل ذلك الشريف عون - أو إمام صنعاء - فأيّ من هؤلاء - كان في رأيه - يمكن الآن أن يتولى القيادة، ولكن إستانبول يجب أن تبقى مقر الخلافة.. »[2].

وعندما عرض « بلنت » الفكرة الإنجليزية حول استقلال شبه الجزيرة العربية عن الدولة العثمانية، عارضها

---

(١) التضامن، العدد ١٨ (ص ٦٤).

(٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس(ص ٢٢٩)، وهو ينقل عن كتاب « بلنت » جوردون في الخرطوم (ص ٤٩٢).

محمد عبده، قائلًا: « إن العرب أهل لذلك الاستقلال، ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما، وهذان الشعبان - (العرب والترك) - هما أقوى شعوب الإسلام، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته!.. »[1].

إن بصيرة الأفغاني ومحمد عبده - وتيار « الجامعة الإسلامية » - كانت تبصر حتى تفاصيل المخطط الذي نفذه الاستعمار بعد سنواتٍ طويلةٍ من وفاة هذين الإمامين - (اللذين يصف الدكتور لويس عوض فكرهما السياسي هذا بأنه « سفاسف » و« هنكرة »؟!)-.. ومن هنا كان حرص هذا التيار على « وحدة » الخلافة ومحاولة « الإصلاح » داخل إطارها، حتى لو تطلب الإصلاح تعريبها، واستبدال خليفةٍ عربي بالخليفة العثماني!.

إن الخيار أمام تيار « الجامعة الإسلامية »، لم يكن بين طريقين منفصلين - كما يرى الدكتور لويس عوض - طريق: « نسف الدولة العثمانية » أو طريق « مواجهة العدو الخارجي الأكثر خطرًا من العدو الداخلي ».. والأفغاني لم يختر

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (١ / ٧٣٥).

الطريق الثاني وحده[١]، ذلك أن الأفغاني وتياره قد ركز على مواجهة الخطر الخارجي، وسعى - « بالثورة التجديدية » - إلى إصلاح الدولة العثمانية؛ لتعويض التخلف، وتحقيق التقدم، ولضمان النصر في مواجهة العدو الخارجي أيضًا!.

لقد كانت المحافظة على وحدة الدولة موقفًا سياسيًّا يمليه الانتماء الإسلامي ويدعو إليه الصراع مع الاستعمار.. وكان « تعاون » تيار « الجامعة الإسلامية » - كما تمثل في الأفغاني وحركته - مع الدولة العثمانية في إطار سعي هذا التيار « لإصلاح » هذه الدولة.. لقد كان - إذا جاز التعبير - « تعاونًا مخططًا وهادفًا ومشروطًا »!.

كان الأفغاني واضحًا تمامًا في إدراكه وإعلانه عن أن « التخلف الحضاري » الذي يعاني منه العثمانيون، قد أضر بالميزة التي مثلوها تاريخيًّا، وهي كونهم قوةً عسكريةً أقضت مضاجع الغرب الاستعماري وأخرت غزوه لوطن العروبة وعالم الإسلام.. فهذا « الجدار العسكري » الذي مثله العثمانيون أمام الغرب قد افتقر إلى « الإبداع الحضاري » الذي يدعمه ويطوره ويرمم ما يظهر في ثناياه من ثغرات، الأمر الذي فتح في هذا « الجدار العسكري » للغرب أبوابًا أخذ ينفذ منها لالتهام ثروات المسلمين، بالامتيازات أولًا، ثم لالتهام الأوطان بما فيها من ثروات!.

---

(١) التضامن، العدد ١٧ (ص ٦٧).

كانت عين الأفغاني على هذا « التخلف الحضاري »، يسعى لتجاوزه بالنهضة - لا على النمط الغربي - وإنما بالمشروع الحضاري الإسلامي الخاص، الذي يستفيد من عناصر القوة في حضارة الغرب بإضافتها إلى المميزات الحضارية للإسلام والمسلمين.. لقد أعلن الرجل أن « الدولة العثمانية قد بقيت سدًّا منيعًا للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها »[1]، ومن هنا كان « مشروعه » لإصلاح الدولة، بتجديد فكريتها وإدارتها وتنظيماتها، وفلسفة الحكم فيها، كي تتاح الفرصة للشعوب التي تحكمها فتأخذ بأسباب المدنية والعلوم والصنائع لتفلت من شراك الاستعمار.

والتعاون الذي قام بين الأفغاني وبين السلطان العثماني عبد الحميد، والذي وجه الأفغاني - في إطاره - رسائله إلى قادة الأمة للتضامن والتعاضد - تحت رايات « الجامعة الإسلامية » - خلف السلطان.. هذا التعاون لم يكن بلا شروطٍ ولا تحفظاتٍ، ومن ثمَّ فلم يكن مؤسسًا على مفهوم السلطان الخاص لمضمون « الجامعة الإسلامية »، ولا قائمًا على « أرض السلطان » وحدها!، وإنما كان تعاونًا هادفًا إلى تحقيق:

١ - فعالية أكبر في مواجهة الخطر الرئيسي: الاستعمار.

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٢٣٢، ٢٣٣).

٢- الإصلاح الدستوري لنظام الحكم وفلسفته في الدولة.

٣- تطهير أجهزة الدولة القيادية من الخونة والعجزة والمتخلفين.

٤- استبدال « اللامركزية » - التي تتيح فرص النمو والازدهار للخصائص القومية، والإمكانات الوطنية والمادية - في أقاليم الدولة وولاياتها، « بالمركزية » القاتلة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات.

٥- تعريب « الدولة » - بل وتعريب « الشعب التركي »؛ لتصبح الدولة تجسيدًا « لأمة عربية »، حتى تستفيد من فعاليات العرب والعروبة في مواجهة ما يفرضه عليها خصومها من تحديات.. وليعود للأمة العربية دورها القائد في المحيط الإسلامي، الأمر الذي يحقق للرابطة الإسلامية قيادةً يرضاها المسلمون غير العرب، أولئك الذين لم تكن قيادة « الترك » مؤهلةً ولا جديرةً بأن تجذبهم في هذا الطريق.

٦- الإلحاح على ما لمصر - تاريخيًّا وحضاريًّا وواقعيًّا - من دورٍ متميزٍ في المحيط العربي والإسلامي.. هو - دونما لبس - دور القائد في هذا المحيط.

تلك هي أبرز ملامح « مشروع الأفغاني » لـ « تأييد الدولة العثمانية - وإصلاحها ».. لـ « جمع المسلمين حولها.. ولتجاوز السلبيات التي كانت تمثلها في واقع المسلمين »!.

إن الأفغاني يحدثنا عن « مواهب » السلطان عبد الحميد،

وكيف سعى إلى تسخير هذه المواهب جميعها في الصراع ضد الاستعمار؟ وكيف دعا السلطان إلى الإصلاح الدستوري وتطهير دولته من العناصر المعوقة عن النجاح في هذا السبيل المقترح لتحقيق هذا « المشروع »؟ يقول الأفغاني: « إن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوربا ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدرادها واحدةً بعد أخرى، إلا بيقظةٍ وانتباهٍ عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم.. ».

فهو هنا يحدد - بوضوح - أن مواجهة الاستعمار - الخطر الأعظم - لا تتحقق بتأييد الدولة العثمانية فقط، بل لا بد مع ذلك وقبله، من « اليقظة العامة ».. أي النهضة التي تحققها خطوات الإصلاح في « مشروع جمال الدين »!.

ثـم يواصل الأفغاني حديثـه فيـقول: « إن السلطـان عبد الحميد، لو وزن مع أربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسةً.. ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية، ومرامي الدول الغربية، وهو معدٌّ لكل هوةٍ تطرأ على الملك مخرجًا وسلمًا. وأعظم ما أدهشني ما أعدَّ من خفي الوسائل، وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوربا على عملٍ خطيرٍ في الممالك العثمانية، ويريها - عيانًا محسوسًا - أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوربية بأسرها.

ولقد رأيت من السلطان ارتياحًا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري، وأن الإسلام أول من عمل به في سلطانه.

إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا، وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عمومًا) هو الذي دفعني إلى مدِّ يدي له، فبايعته بالخلافة والملك!.. »[1].

ذلك هو « إطار التعاون » بين الأفغاني وبين السلطان عبد الحميد!.

ولم يكن الأفغاني « حالمًا » ولا هو « بالغافل » عن عيوب السلطان عبد الحميد ذاته، ولا عن العقبات التي يمثلها أركان الدولة أمام نجاح مشروعه « لإيقاظ الدولة والأمة » لمواجهة خطر الاستعمار.. لقد كان يلح على السلطان كي يطهر جهاز حكم الدولة.. ويشكو من تردد السلطان في إنجاز هذا الأمر، حتى لقد تحدث إلى السلطان يومًا فقال: « يا جلالة السلطان.. مللت من تعاطينا الشكاية؟!.. ومن غيرك صاحب الأمر؟! خذ بحزم جدك محمود، وأقص الخائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات، وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة؟!)، خفف

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٥، ٢٤٦).

الحجاب عنك، واظهر للملأ ظهورًا يقطع من الخائنين الظهور، واعتقد أن نعم الحارس الأجل! ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]... »[1].

أما فيما يتعلق بفك « المركزية المستبدة » التي كانت تحكم الدولة بها قبضة الآستانة على الأقاليم والولايات، فلقد تحدث الأفغاني إلى السلطان عنها، وقدم إليه « مشروع اللامركزية »، الذي يجعل الولايات الإسلامية المرتبطة بالدولة أشبه ما تكون « بالكومنولث الإسلامي » الذي يحفظ رباط الوحدة، وحدة الانتماء الإسلامي، ومواجهة التحديات الواحدة - داخليةً كانت أو خارجيةً - والذي يتيح - في ذات الوقت - كل الفرص ويفتح كل الأبواب لتنمية السمات القومية والإمكانات المادية لهذه الولايات، التي يتاح لها - في ظلِّ هذه « اللامركزية » - استقلال حقيقي يعتقها من سلبيات « المركزية » التي كانت سائدة في أغلب تلك الولايات.

إن هذه « اللامركزية »، التي أسس العرب العثمانيون - عرب الولايات العثمانية - حزبًا يدعو إليها أواخر سنة (١٩١٢م) قد دعا إليها الأفغاني قبل ذلك بنحو عشرين عامًا، كطريقٍ يجمع بين « الوحدة - والاستقلال » لشعوب هذه البلاد وطاقاتها.. فتحدث إلى السلطان

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٢٤٧).

عبد الحميد عن تصوره لها في حوارٍ طويلٍ دار بينه وبين السلطان، سجله الأفغاني.. يقول فيه:

« .. قلت للسلطان عبد الحميد: أتأذن في تقديم لائحةٍ في تصوراتي لتحسين حالة المملكة؟ والتحوط بصونها من مطامع الأعداء؟.. قال: بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة، فأنا لك من السامعين.

قلت: أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولايةً، ترسل إليها الولاة من الآستانة - مثل: باكير باشا، ومحمد باشا البدكشي، وأمثالهما - لجمع الأموال من غير وجه، وتوزيعها على رجال الدولة هنا - « الآستانة » فقط - على ما هو مشهور وغير خافٍ على جلالتكم، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية، كما هي قبل الإنجليز؟!.

- فتفكر السلطان مليًّا، وحوَّل وجهه نحو النافذة عنّي، حتى ظننت أن الحديث قد ساءه، وأنه لا يحب الخوض فيه، ولا العودة إليه، وإذا هو بغتةً قد التفت، وتوجه بكليته إليَّ - كأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحًا بالقوة! -

وقال: لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية، ثم ماذا؟!.

قلت: يا مولاي، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية، فتبدأ فتجعلها عشر خديويات.

فرأيت السلطان - وهو على تمام الإصغاء لما أقول - قد تقطب وجهه وعلته كآبة امتعاضٍ وحزن.

فقلت: يا مولاي - وعزة الحق، وبولائي لأمير المؤمنين، ونصحي للمسلمين - إن ما ساقني إلى ما قلته إلا الإخلاص، والحرص على ملكك، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة، وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك الجزء بعد الآخر، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلكٍ من النظام أوثق وأشد وأحكم، وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته.

- ولما انتهيت.. هزَّ السلطان رأسه، وتناول لفافةً من التبغ، وأسرع في تدخينها -.

وقال: ماذا تركت - ياحضرة السيد، للسلطان؟! وما أبقيت لتخت - (عرش وعاصمة) - آل عثمان؟!.

قلت: يبقى مولاي جلالة السلطان، ملك أولئك الملوك، وينضم إلى العرش العثماني عشرة عروش، غير عرش مصر، ثم متى نهضت هذه المقاطعات والخديويات، وأخذت نصيبها من الرقي والعمران.. لا شك أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى، للاتحاد معها، إذ هي في أمسِّ الحاجة لشد الأزر، ولصون كيانها من مطامع الغرب الموجهة نحو عموم دول الشرق، ثم ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك

السلك، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى، ثم: ومتى تم ذلك، هل يتقاعد أهل الهند عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق، وعن هندهم أيضًا؟! أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين، ويرجع الشرق للشرقيين؟!.. »[١].

ذلك هو « مشروع اللامركزية » الذي سعى إليه الأفغاني، والذي عرضه على السلطان عبد الحميد.. وهو الذي يزكي ما كتبه في (العروة الوثقى) عن أن « الدولة » الإسلامية هي « اتحاد » يشبه « الكومنولث »، وليست رابطةً مركزيةً تقهر ما في إطارها من تمايزات.. لقد كتب في (العروة) عن هذا التصور « اللامركزي - التضامني » يقول: « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه.. »[٢].

ذلك هو تصور الأفغاني « لمشروع اللامركزية » كسبيلٍ للإصلاح الإداري في الدولة العثمانية، وكسبيلٍ « لكومنولث

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٣٧ - ٢٤٠).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٤٥).

إسلامي » وشرقي تواجه به الأمم والشعوب الخطر الأعظم، وهو الاستعمار.. وتسلكه سبيلًا يعينها على تنمية خصائصها وإمكاناتها الأدبية والمادية.

ولقد أبصر الأفغاني للأمة العربية - بالمعنى القومي - دورًا متميزًا، بل ورائدًا، في محيط « الكومنولث الإسلامي » الذي دعا شعوب الشرق إلى الارتباط « بجامعته الإسلامية ».. فهو القائل: « إنه لا سبيل إلى تمييز أمةٍ عن أخرى إلا بلغتها.. وإن الأمة العربية هي « عرب » قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان!... فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي في مصر والشام والعراق، يحافظ كلٌّ منهم قبل كل شيء على نسبته العربية، فيقول: « عرب »، ثم يذكر جامعته الدينية؟!.. »[1].

وكما دعا الأتراك - في « مشروعه الإصلاحي » - إلى « اللامركزية »، التي تبرز وتنمي السمات الخاصة للأمم الداخلة في إطار الدولة العثمانية، فلقد دعاهم إلى أن « يتعربوا » كسبيلٍ لتحضرهم التحضر الحقيقي بحضارة الإسلام!، وكسبيلٍ لنفي النعرة القومية التي كانت قد شرعت تطل برأسها لتفتت وحدة الدولة في مواجهة الاستعمار.. وللأفغاني في هذا الموضوع كتابات، منها ذلك النص الذي يقول فيه: « لقد أهمل الأتراك أمرًا عظيمًا، وهو

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٢٣، ٢٣٧).

اتخاذ اللسان العربي لسانًا للدولة، ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانًا رسميًّا، وسعت لتعريب الأتراك، لكانت في أمنع قوة، ولانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعي النفور والانقسام، وصاروا أمةً عربيةً.. ولكنها فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب،.وما أسفهها سياسةً وأسقمه من رأي.. لقد كاشفت السلطان عبد الحميد بهذا الموضوع.. ولكنه كان قليل الاحتفاء بما قلته له!.. »[1].

ولم يكن إبصار الأفغاني للدور المتميز للأمة العربية في المحيط الإسلامي يحمل أي انتقاص لحق أيٍّ من شعوب الشرق، وقومياته في التمسك والاعتزاز والتنمية لسماته، وقسماته القومية، ومميزاته الوطنية في الإطار الإسلامي العام.. فهو الذي شن الحملة تلو الحملة على « المتفرنجين - المتغربين »، الذين خدعوا فوقعوا بشراك الاستعمار الفكري، فأعانوا الغزاة على أن بذروا في تربتنا الفكرية « عوامل غريبةٍ مهلكة، تبدو في أول مظهرها خفيفة الوطأة، سهلة المأخذ، لا ضرر من التسامح بها، وهي أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم، والتدرج بقتل التعليم القومي، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهم العربي أو الفارسي أو الأوردي والهندي.. إلخ.. آداب تؤثر ولا في تاريخهم مجد يذكر، وأن المجد كل المجد لذلك الشرقي الخامل أن ينفر من سماع لغته، وأن يتباهى بأنه لا يحسن

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٧).

التعبير بها، وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية!!.. ».

أدان الأفغاني هذا « السقوط » الذي ابتلي به « المتفرنجة - المتغربون »، ودعا إلى حفاظ أمم الشرق على خصائصها القومية، عربية، وفارسية، وأوردية، وهندية.. إلخ، وأعلن أنه « لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزّ لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها، فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني، تكون بدايته « الوطن »، ووسطه « الوطن »، وغايته « الوطن »!.. فيجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية: اثنان فاثنان يعملان: أربعة، فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصةً، ولا أن تحاول نقضها؟!.. »[1].

ففي تصور الأفغاني تآخت وتآزرت وتوالت الدوائر والروابط: « الوطنية » و« القومية » و« الإسلامية »، دونما تعارض أو تضاد!.

وكما أبصر الأفغاني « للأمة العربية » دورًا متميزًا في المحيط الإسلامي.. كذلك أبصر « لمصر » دورًا متميزًا وطليعيًا وقائدًا في مشروع النهضة الذي ناضل في سبيله.

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٥٧، ٤٥٨).

لقد كانت مصر - قبل احتلال الإنجليز لها - هي « النموذج » الذي سعى الأفغاني إلى تنمية نهضته ليكون مركز الجذب والاحتذاء لشعوب الشرق جمعاء.. إنها هي التي عناها الإمام محمد عبده عندما تحدث عن أن « مقصد - (الأفغاني) - السياسي كان هو: إنهاض دولةٍ إسلاميةٍ من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية.. »[1].

وفي مصر كان الإنجاز الحقيقي والأعظم لدعوة الأفغاني وحركته.. فتربتها كانت الأكثر قبولًا لما بذر من بذور.. وتلك هي دلالة عبارة رشيد رضا، التي تقول: سمعت الأستاذ الإمام يقول: إن السيد (جمال الدين) لم يعمل عملًا حقيقيًّا إلا في مصر!.. »[2].

وتقويم الأفغاني لدور مصر القائد في محيطها العربي والإسلامي يؤكد هذا الذي نقول.. فهو القائل عن دورها هذا: « إن المتأمل في سير مصر، يحكم حكمًا ربما لا يكون بعيدًا عن الواقع، أن عاصمتها لا بد أن تصير - في وقتٍ قريب أو بعيد - كرسي مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل ربما كان ذلك أمرًا مقررًا في أنفس جيرانها من سكان البلاد

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٢ / ٣٥٢).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام (١ / ٧٩).

المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد كلما ألمَّ خطب أو عرض خطر؟!.. »[1].

بل إن (جمعية العروة الوثقى السرية) ومجلتها - التي حملت ذات الاسم - والتي يقول الدكتور لويس عوض: إن مهمتها كانت « نسف الشعور القومي، وتدعيم الشعور الديني لحساب الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد.. بل والاستعمار وأنصار الحكم المطلق؟! »[2].. إن هذه الجمعية ما قامت، ولا صدرت مجلتها إلا لتعمل على تحرير مصر من قبضة الاستعمار الإنجليزي، ولتعود مصر إلى مكانها الرائد والقائد في إطار « الجامعة الإسلامية ».. وعن تلك الحقيقة الهامة يقول الأفغاني في الحديث عن سبب تكوين تنظيم (العروة الوثقى): « إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عمومًا، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها، نظرًا لموقعها من البلاد الإسلامية؛ ولأنها باب الحرمين الشريفين، فإذا كان هذا الباب أمينًا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريبٍ من سلامة ركنٍ عظيم من أركان الديانة الإسلامية.. إن الرزايا التي حلَّت بأهم مواقع الشرق (مصر) جددت الروابط، وقاربت بين الأقطار المتباعدة

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٤٦٧).

(٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٨٦).

بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها، فأيقظت أفكار العقلاء.. فتألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار.. وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع، لا ينون في السعي ولا يقصرون في الجهد، ولو أفضى ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حيّ على حياته!!.. »[١].

فإذا كان الأفغاني قد خاض - في حياته - تجربة « التنظيم » مرتين، أولاهما في (الحزب الوطني الحر)، والثانية في (العروة الوثقى)، فلقد كان الغرض والهدف منهما معًا هو استخلاص مصر من أعدائها، وتهيئتها لتكون « النموذج » لمشروعه الحضاري الذي يجذب محيطها العربي والإسلامي إلى هذا الطريق!.

وفي (العروة الوثقى) - المجلة - يهيب الأفغاني بالدولة العثمانية أن تنهض، وتضغط بكل ما بيدها من « أوراقٍ إسلامية »، ومصادر قوةٍ إسلامية - بما في ذلك الثورة الكامنة لدى مسلمي الهند وما يتاخمها - في محاولة استخلاص مصر من الإنجليز، ويحذر العثمانيين من إضاعة الفرصة كي لا تثبت إنجلترا أقدام استعمارها على ضفاف النيل![٢].

فأين هي إذن دعوى الدكتـور لويس التي تقول: « إن

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٥٧).

سياسة الأفغاني لمصر والسودان كانت تقوم على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية، والقضاء على كل حركةٍ استقلاليةٍ فيها..!.. »[١].

لقد رأينا أن حقيقة سياسة الرجل هي تحريك عالم الإسلام - بما فيه الدولة العثمانية - لتحرير مصر من الاستعمار، وكذلك كانت سياسته تجاه السودان فهو الذي - بنص ما ينقله الدكتور لويس نفسه عن « بلنت » - قد اشترط في مفاوضاته مع الإنجليز حول السودان، اشترط: « أن أية تسوية لا بد أن تعيد مصر للمصريين! »، و« إخلاء السودان » من الجيش الذي كان يقوده غوردون الإنجليزي!، بل و« إعادة عرابي من المنفى » إلى مصر من جديد!!.[٢].

ثم إن « إخلاء السودان » - الذي اشترطه الأفغاني - لم يكن هو ذلك « الإخلاء » الذي نفذه الإنجليز بعد ذلك ليعيدوا فتحه فاستعماره.. وإنما كان الأفغاني يستنكر قتال الجند المصريين للثورة المهدية تحت قيادة غوردون، ويبصرهم بأن عدوهم الحقيقي هو الإنجليز، فكتب - متعجبًا في (العروة الوثقى) - يقول: « لعمر اللّـه إنّا لفي عجبٍ من الذين يحفظون قلاع السودان، ومن المصريين الذي يزحفون لمقاتلة السودانيين!! هل يعلمون أي أمة يخدمون؟!!.. »[٣]،

---

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس (ص ١٩٤) والتضامن، العدد ٢١ (ص ٦٢).

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (٢ / ١٧١).

لقد كان الأفغاني واضحًا وصريحًا في نضاله من أجل تحرير مصر والسودان.. وهو القائل للإنجليز - في مفاوضاته معهم حول السودان - كلماته الحاسمة: « مصر للمصريين، والسودان جزء متمم لها.. »[1].

ولقد كانت « العلاقة القانونية » التي تربط هذه البلاد بالدولة العثمانية « ورقةً قانونيةً » بيد الحركة الوطنية، للضغط على الاستعمار الإنجليزي من أجل استخلاص هذه البلاد من براثن احتلاله، ولم تكن قيدًا على استقلال هذه البلاد!.

إننا نسأل الدكتور لويس: أي « استقلال » ذلك الذي وقف الأفغاني ضده؟!.. و« استقلالًا » عمن كان ذلك « الاستقلال »؟!.

إن « مأساة » الدولة العثمانية - كما هو معروف وشهير - في ذلك التاريخ، لم تكن نابعةً من « قوتها المستبدة » التي تحرم ولاياتها حقيقة الاستقلال.. وإنما كانت مأساتها في «ضعفها » الذي أعجزها عن حفظ استقلال هذه الولايات، والذي أخذت تغتاله أوربا الاستعمارية، فمعركة الاستقلال الحقيقية كانت ضد الغرب، والاستقلال كان استقلالًا عن استعماره، وهو ما كان المعركة الكبرى والأولى والدائمة لجمال الدين!.

لقد كان نضال مصر في سبعينات القرن الماضي، زمن

---

(١) المصدر السابق (ص ٥٠٥)، طبعة القاهرة.

الخديوي إسماعيل - وهو الذي أسهم فيه الأفغاني إسهامًا رائدًا وبارزًا - موجَّهًا في الأساس ضد الزحف الاستعماري الغربي.. وهذا النضال هو الذي عبَّر عنه شعار « مصر للمصريين »!.. فلم تكن القضية يومئذٍ متخذةً شكل «السيطرة العثمانية » بحالٍ من الأحوال.. وكذلك كان الحال في الثورة العرابية التي قامت لاستخلاص مصر من النفوذ الاستعماري الغربي، إلى حد الحرب المسلحة ضد جيش الاحتلال الإنجليزي.. ولم يكن تناقض الحركة الوطنية - في مصر أو السودان - مع العثمانيين إلا بمقدار عجز العثمانيين عن الوقوف في وجه الغرب الاستعماري، ونجاح الغرب في اتخاذ الضعف العثماني سبيلًا يتسلل منه إلى السيطرة والاحتلال!.. تلك كانت حقيقة المعركة.. وذلك هو جوهر الصراع الوطني في ذلك التاريخ!.

لقد كان الأفغاني مناضلًا صلبًا من أجل استقلال كل شعوب الشرق عن الاستعمار.. وكانت « الجامعة الإسلامية »، المرتكزة إلى « وحدة الانتماء الإسلامي » واحدةً من الأسلحة « الطبيعية - والضرورية » التي رأى الأفغاني لزومها في مواجهة العاصفة الاستعمارية التي هبت من الغرب على بلادنا في ذلك التاريخ!.. فالتناقض الرئيسي كان بين كل شعوب الشرق وبين الاستعمار الغربي.. وحتى التناقض غير الرئيسي، وغير العدائي الذي كان قائمًا بين هذه الشعوب وبين « التخلف والضعف العثمانيين »، فإن الأفغاني لم يهمله

ولم يغفل عنه، فلقد كان مضمون « الجامعة الإسلامية » عنده متميزًا.. كان دعوةً للنهضة وللتقدم، بالتجديد والثورة الثقافية والتمدن الإسلامي، و« صراعًا » ضد الرجعية، وفي ذات الوقت « وحدةً » لكل الذين تتناقض مصالحهم وهويتهم الحضارية مع الغرب الاستعماري، وفي هذا المضمون تآخت، وتزاملت، وتضافرت المشاعر، والقسمات، والدوائر « الوطنية »، و« القومية »، و« الإسلامية »، دونما تناقض أو تعارض أو تضاد!.

لكن.. هل كان الأفغاني « حالمًا » عندما علق بعضًا من آماله على الدولة العثمانية، وعلى السلطان عبد الحميد؟!.

وهل حقًّا ما يقوله الدكتور لويس عنه: إنه كان حالمًا يحلق في السحاب؟!.

نحن لا نعتقد بذلك..

لقد كان الأفغاني مدركًا أن هناك ظروفًا موضوعيةً معاكسةً لمشروعه الساعي لتجديد حياة الأمة، وإنقاذها من عاصفة الاستعمار الغربي، منها ما هو داخلي، يأتي التخلف العثماني، والرجعية، والجمود، والضعف الموروث في مقدمتها، ومنها ما هو خارجي، على رأسها تسلح الهجمة الاستعمارية بأسلحة القوة والجبروت التي هيأتها لها النهضة الأوربية الحديثة، والثورة الصناعية العملاقة، لكن الأفغاني حاول:

(أ) تقليل خسائر هذا « السقوط »، الذي بدا قدرًا مقدورًا..!.

(ب) وتقصير المدى الذي ترزح فيه الأمة تحت عوامل هذا « السقوط »!.

(جـ) وأن يحدد بمشروعه في النهضة معالم الطريق للقوى الإسلامية التي ستحمل على عاتقها - في المستقبل - الخروج بالشرق من حقبة هذا « السقوط »!.

إن الأفغاني عندما تأكد أن سلبيات الواقع العثماني قد شدت السلطان عبد الحميد بعيدًا عن الطريق الذي حاول جمال الدين أن يجذبه إليه، لم يتردد في مهاجمة « جبن » هذا السلطان، الذي كان يسيء الظن بالناصحين المخلصين.. فقال الأفغاني عن « جبن » عبد الحميد: « يا للأسف!.. إن عيب الكبير كبير! والجبن من أكبر عيوب الملوك؟!.. »[1].

وكما سبق وبايع الأفغاني السلطان بالخلافة، عندما علق على دهائه وحنكته بعض الآمال، فإنه لم يتردد عندما تبددت هذه الآمال، في مصارحة السلطان برغبته أن « يقيله » من هذه البيعة!!..

فقال للسلطان مواجهةً: « أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك؛ لأني رجعت عنها، نعم.. بايعتك بالخلافة، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد.. بيد جلالتك الحل والعقد.. وإذا وعدت وجب عليك الوفاء؟!.. »[2].

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٤٨).

كذلك، كان الرجل واضحًا ومحددًا - أمام الظروف الموضوعية المعاكسة لمشروعه « النهضوي » - في أن السعي لا بد وأن يستمر لتقليل خسائر هذا « السقوط » القادم، ولتقصير أمده التاريخي، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من عموم بلواه!.. وهو في ذلك يقول: « إنني ما قرعت آذان المسلمين - والشرقيين عمومًا - بالحجج القاطعة، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسًا، إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد، وأقصر طيات المسافة في الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه، ويلم شعثه، ويمد بعضهم لبعض يدًا، عسى أن تكون يد اللّـه فوق أيديهم!.. »[1].

وعندما لاح « السقوط » قدرًا مقدورًا لعوامل التخلف والضعف الداخلية، ولطغيان الهجمة الاستعمارية.. لم ييأس الأفغاني، وإنما - مع اعترافه باستحالة تفادي هذا المصير - ناضل - كما قلنا - لتقصير أمده، وتقليل خسائره، ورسم الطريق للخلاص من بلواه.. وعبَّرت عن هذه القضية كلماته التي يقول فيها: « إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق كان من شاهقٍ عظيم، لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار، أو بقربه من نقطة

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤١).

المركز، ذلك الشاهق العظيم شاهق حكمة الدين!!.. وإذا كان انحطاط الأمم مرضًا، وله سير معلوم، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات، حتى ينتهي السير، ويبل العليل، ويدخل في دور النقاهة، نعم .. لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان!.. »[١].

إن غلبة « التخلف الموروث » و« الوافد التغريبي » اللذين حرستهما حراب الاستعمار.. إن تغلبهما على دعوة الأفغاني وحركته لم تكن بالغلبة التامة ولا النهائية.. لقد ظلت دعوته الجذوة التي تومض بالتجديد الرافض « للتخلف الموروث »، والمشير إلى « البديل »، البديل الحضاري الخاص بالأمة، والكفيل بإنقاذها من مسخ « التغريب » والتشويه الذي تحمله للشخصية القومية سيادة حضارة الغزاة!.

كذلك ظلت دعوة الأفغاني وحركته المثل والنموذج الذي استلهمته فصائل تيار (الصحوة الإسلامية)، منذ عصر الأفغاني وحتى الآن.. هذه « الصحوة » التي علق الأفغاني عليها آمال إنقاذ الأمة من آثار « السقوط » الذي رآه مقدورًا إبان سيادة الجمود وعنفوان هجمة الاستعمار.. فلقد تحدث عنها، وعن دورها المرتقب هذا، وهو يتطلع إلى

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٤١، ٢٤٢).

المستقبل، فقال: « .. إننا نحتاج إلى عملٍ جديد، نربي به جيلًا جديدًا، بعلم صحيح، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول على الأجساد والأرواح، وهو « الدِّين » وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان، وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل حياة الوطن، يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهدًا « ألا يقرعوا بابًا لسلطان، ولا يضعضعهم الحدثان، ولا يثني عزمهم الوعيد، ولا يغرهم الوعد بالمنصب، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب، بل قوم يرون في المتاعب والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم، وفي عكسه المغرم!.. ».

ثم استطرد الأفغاني، وهو يستشرف آفاق المستقبل، ويرسم ملامح تيار (الصحوة الإسلامية) الشعبي.. المسلح بسلطان الدين، بعد فهم حقيقته، وبسلطان العلم.. والسالك إلى غايته طريق الشهداء!.. يستطرد ليبشر بحتمية انتصار هذا التيار على « السقوط » الذي ساد عالم الإسلام، فلقد قال القدماء: « الحاجة أُمُّ الاختراع »، وقال المصطفى ﷺ: « اشتدي أزمة تنفرجي »!، فالأزمة تلد الهمة، ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يئس؟! ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك. وعلى ما أرى، قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج.. سنة اللّـه في خلقه!!

ومهما ادلهم الخطب لا بد ينجلي..

وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر!..[(١)]

هكذا تنبأ جمال الدين..

والآن نسأل: ألم تصدق نبوءته هذه؟!.. وألا تتعلق الآمال الصادقة - اليوم - بتيار (الصحوة الإسلامية)، الذي يواصل المسيرة على الدرب الذي ارتاده الأفغاني؛ لينقذ الأمة - « بالنهضة الإسلامية » - من آثار « السقوط » الذي حال بين مشروع الأفغاني وبين الانتصار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟! إن ضراوة الحملة على جمال الدين - من أعداء (الصحوة الإسلامية) - تؤكد هذا الذي نقول؟!.

لقد سار على درب الأفغاني - درب « الجامعة الإسلامية » - كل الذين أبصروا أن نجاة الأمة من « السقوط » في شراك الاستعمار، إنما تكمن في نهضتها المؤسسة على التمدن الإسلامي، تلك النهضة التي تجلو الوجه الإسلامي والقومي للأمة، ولا تقطع روابط انتمائها القومي والإسلامي « بالإقليمية » و« العلمانية » و« التغريب ».

فأحمد عرابي (١٢٥٧ - ١٣٢٩هـ/ ١٨٤١ - ١٩١١م) قائد الثورة التي ذهب شعار « مصر للمصريين » علمًا عليها.. هو الذي استنكر - في رسالته إلى جورجي زيدان -

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٥٦، ٤٥٧).

أن يكون هدف الثورة العرابية إسقاط الدائرة الإسلامية من « محيط الانتماء »، وقال: « إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين، لأني أرى في ذلك ضياعًا للإسلام عن بكرة أبيه!.. »[1].

ومصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) الذي اتهمه أعداء « الجامعة الإسلامية » - زورًا وبهتانًا - بأنه « لم يرفع شعار استقلال مصر التام، بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية.. بتبشيره بفكرة الجامعة الإسلامية! »[2].. وهو الاتهام الذي يوجهه الدكتور لويس عوض إلى الأفغاني!.. مصطفى كامل هذا هو الذي جمع في فكره وحركته بين كونه « شاعر الوطنية المصرية.. وشهيد الاستقلال المصري »، وبين دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » باعتبارها إطار الانتماء الفكري والسياسي والحضاري - الأوسع - لمصر !.. فهو يقول: « إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا.. ولا يمنعنا هذا من النظر إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية، فمصر للمصريين، ومحال أن نطلب مالكًا أجنبيًّا عنا، لكننا نود أن نكون قوةً محالفةً

---

(١) انظر: كتابنا « العروبة في العصر الحديث » (ص ٢٤٦)، طبعة القاهرة سنة (١٩٦٧م). و« الرسالة » منشورة بترجمة جورجي زيدان لعرابي في كتابه « تراجم مشاهير الشرق ».

(٢) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث (ص ٢٩٠)، طبعة موسكو سنة (١٩٧١م).

للدولة العلية (العثمانية).. فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.. ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعزٍّ وسؤددٍ ومقام رفيع.. فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابًا واحدة وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية! »[1].

وحسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) الذي مثَّل أحد رموز (الصحوة الإسلامية) التي ارتاد الأفغاني طريقها.. هو الذي يؤكد « العروة الوثقى » بين دوائر « الوطنية » و« القومية » و« الإسلامية ».. بل و« العالمية » بالنسبة لمصر وشعبها، فينفي التناقض بين هذه الدوائر، ويبدد شبهات « الإقليميين » و« العلمانيين » و« المتغربين » حول دعوة « الجامعة الإسلامية » وحركتها، وذلك عندما يقول: « إن مصر هي قطعة من أرض الإسلام، وزعيمة أممه، وفي المقدمة من دول الإسلام وشعوبه.. والمصرية لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال، إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره، وسنظل كذلك ما حيينا، معتقدين أن هذه

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل (ص ٢٢٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٣٦٧، ٤٨٢) و« اللواء » عدد ٢ مايو سنة (١٩٠٦م).

هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة، وإنها - (أي مصر) - جزء من الوطن العربي العام، وإننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام.. والعروبة - (وهي الحلقة والدائرة الثانية والتالية) - لها في دعوتنا - كذلك - مكانها البارز وحظها الوافر، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير، وبحق ما قاله ﷺ: « إذا ذل العرب ذل الإسلام »!

ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها.. إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية، تجمعها العقيدة، ويوحد بينها اللسان، وتؤلفها الوضعية المتناسقة في رقعةٍ من الأرض متصلةٍ متشابهة، لا يحول بين أجزائها حائل،ولا يفرق بين حدودها فارق.. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام، ولخير العالم كله.. ودعوتنا ذات مراحل، ونرجو أن تتحقق تباعًا، نرجو أن تقوم في مصر دولة مسلمة، تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب، وتعمل لخيرهم، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان.. فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه، وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض.. وواجب أن نعمل للجامعة الإسلامية، باعتبارها السياج الكامل

للوطن الإسلامي العام.. ولا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، فكل منها يشد أزر الأخرى، ويحقق الغاية منها!.. »[1].

تلك هي حقيقة دعوة (الجامعة الإسلامية) وحركتها عند رائدها جمال الدين الأفغاني، وعند الذين ساروا على الدرب، من الوطنيين.. القوميين.. الإسلاميين!.

إن « وطنية » الإسلاميين، دعاة « الجامعة الإسلامية » هي الأنقى والأرقى والأعمق من مثيلتها عند « الإقليميين.. العلمانيين.. المتغربين » بما لا يقاس!.. ناهيك أن ولاء الإسلاميين - بعد دائرة « الوطن » - إنما هو لقوميتهم وحضارتهم، أما « الإقليميون.. العلمانيون.. المتغربون »، فإن ولاءهم - بعد دائرة « الوطن » - منصرف ومتوجه إلى حضارة الأعداء الغزاة!.

***

---

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل (ص ٨٨، ٩٩، ١١٢، ١١٥، ١٧٦ - ١٧٨)، طبعة دار الشهاب - القاهرة.



خرافة المستبد العادل!

إن أبوة جمال الدين الأفغاني لنزعة « الحرية »، وريادته في الدعوة إلى أن تكون الأمة هي مصدر السلطات، وأن يكون الحكم للإرادة الشعبية في السياسة وتنظيم المجتمع وقيادة الدولة.. إن أبوة جمال الدين وريادته للدعوات والحركات التي نزعت هذا المنزع في عصرنا الحديث.. هي مما شهدت عليها وقائع هذا العصر، وصدَّق عليها الذين أرَّخوا له في فكرنا الحديث.

ومع ذلك، يشذ الدكتور لويس، فيصادم حقائق الواقع التاريخي، ويضرب عرض الحائط - دونما دليلٍ أو قرينةٍ، بل ولا شبهة!! - بما كتبه المفكرون والعلماء والمؤرخون عن عشق الأفغاني للحرية، ونضاله في سبيل تحرير الأمة من الاستبداد!.

إن الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ/ ١٨٨٥ - ١٩٤٦م)- وهو من هو إمامةً وعلمًا واستنارةً وأمانةً - يحدثنا عن أن: « أساس النهوض للممالك الشرقية » عند جمال الدين الأفغاني قد تبلور في أسسٍ ثلاثة:

١- خلاص هذه الأمم من سلطان الأجنبي.

٢- وخلاصها من الحكم الاستبدادي.

٣- ثم تلاؤمها بنوعٍ من الوحدة يقوي التناصر بينها ويكفل لها الغلب.. ».

ويستطرد الشيخ مصطفى عبد الرازق ليقول: « وحسب جمال الدين من عظمةٍ ومجدٍ أنه - في تاريخ الشرق الحديث - أول داعٍ إلى الحرية، وأول شهيد في سبيل الحرية »!!.

هذا ما قاله الإمام مصطفى عبد الرازق، وسبقه إليه، وتبعه فيه العلماء والأعلام الذين كتبوا عن موقف الأفغاني من « الحرية » ومن « الاستبداد »..

فماذا يقول الدكتور لويس في هذا المقام؟!..

إنه يذهب - في بساطةٍ لا تعرف المسؤولية الفكرية - ليفتري على الأفغاني عندما يتهمه بمناصرة الاستبداد!!، وبأنه قد عاش يبشر بحكم « المستبد العادل »!!، وبأنه لم يكن أبدًا داعيةً للحكم الدستوري والديمقراطي!!.. « فما كان يدعو إليه الأفغاني - (بنظر الدكتور لويس) - هو حكم « المستبد العادل »، فليس في كلامه أثناء مرحلته المصرية أي برنامج للحكم الدستوري بالمعنى المتعارف عليه!.. ».

وعندما يواجه الدكتور لويس بتراث الأفغاني - مقالات ومحاضرات - الذي هاجم فيه الاستبداد والمستبدين، يسعى لتفريغ هذا التراث من مضمونه الواضح الحاسم الناصع،

حتى ولو كلفه ذلك تجريح مبدأ « الشورى » ومضمونها كفلسفة للحكم في الإسلام.. فيقول الدكتور لويس عن تراث الأفغاني في هذه القضية: « أما حله لمشكلة الاستبداد التي كان يكثر من الكلام فيها، فيقف عند نظام (الشورى)، أي (حكومة الحكماء) أهل الرأي والعلم والخبرة، كغرفة مشورة للحاكم أيًا كان هذا الحاكم! »[1].

ونحن لن نقف - في هذا المقام - لنناقش افتراء الدكتور لويس على « الشورى » الإسلامية، ففي هذا الفن أبحاث ودراسات كنا نتمنى أن يقرأ بعضًا منها قبل أن يكتب هذا الكلام.. فقط نريد أن ننبه إلى أن « الشورى » الإسلامية - كما جاءت في القرآن والسنة - هي « فلسفة حكم ».. وليست « نظامًا » مفصلًا وجاهزًا لكل زمانٍ ومكانٍ، فأي سبيلٍ يسلكه المسلمون لتحقيق الحد الأقصى من سيادة إرادة الأمة، هو أقرب السبل إلى روح فلسفة « الشورى » التي دعا إليها الإسلام.

وهذا التصور الذي رأى به الدكتور لويس « الشورى » الإسلامية مجرد « غرفة مشورة للحاكم - أيًا كان هذا الحاكم »، هو ذات التصور الذي يقدمه لها غلاة أهل الجمود والرجعية والتخلف من الإسلاميين!.. فهنيئًا له هذا الاختيار، وذلك المعسكر الذي وضع نفسه فيه؟!.

---

(١) التضامن، العدد ٨ (ص ٦١)، والعدد ٩ (ص ٦٠).

أما ما هي حقيقة موقف الأفغاني من « الحرية » ومن « الاستبداد »؟، فإننا لو وقفنا عند حدود « الوقائع » و« النصوص » التي أوردها الدكتور لويس في « دراسته »، لكان ذلك كافيًا في نقض دعوى الدكتور لويس!!.

فهو في حديثه عن خطبة الأفغاني بقاعة « زيزينيا » - الإسكندرية - يذكر ضمن نقاط البرنامج الذي طرحه ودعا إليه:

(أ) « إدانته استبداد الحكام ».

(ب) « ودعوته لإنشاء تنظيم سياسي - هو الحزب الوطني - ليحمي النظام النيابي ».

(جـ) « ودعوته لحرية الاجتماع وحرية الصحافة ».

وهنا نسأل: أليست هذه الأهداف داخلةً - بشكلٍ مباشر - في نصرة الحرية ومعاداة الاستبداد ؟!.. وأين هي الدعوة إلى حكم « المستبد العادل » عند من يدعو إلى « إنشاء تنظيم حزبي سياسي، هو الحزب الوطني، ليحمي النظام النيابي »؟!.. هل النضال لحماية « النظام النيابي » هو - في رأي الدكتور لويس - من مقومات حكم « المستبد العادل »؟!.

فإذا أضفنا إلى أهداف الأفغاني - هذه - دعوته - كما جاء في « دراسة » الدكتور لويس عن ذات الخطبة: خطبة مسرح « زيزينيا » - دعوته إلى « إبراز دور القوميات »،

و« إدانته للتعصب الديني »، و« دعوته لتعليم المرأة »[1].. إلخ.. زاد التساؤل: أليست جميع هذه الأهداف لبِنات في صرح الحرية، ومعاول في صرح الاستبداد؟!.

وغير محاضرة « زيزينيا ».. فإن الدكتور لويس يقتبس لنا من مقال الأفغاني (البيان في الإنكليز والأفغان) - الذي نشرته جريدة (مصر) في خريف سنة (١٨٧٨م) - فقرات منها كلمات الأفغاني التي تقول: « .. فالشرق الآن قد قسمه الأجنبي بسبب تخلفه، ولهذا التخلف سببان:

الأول: التعصب.

والثاني: الاستبداد.

أما التعصب فهو: إساءة استعمال الدين، والخروج عن سنة الأنبياء مؤسسي الأديان.. أما الاستبداد فهو تقييد الأمة بإرادة رجلٍ واحد، وقد انتهت هذه المحنة منذ أن حقق المصريون الحكم البرلماني الذي لا مناص من تأييده إذا أردنا الاستمرار.. ».

لكن الدكتور لويس - بعد أن أورد هذه الكلمات التي يدين فيها الأفغاني الاستبداد، ويؤيد « الحكم البرلماني » ويدعو إلى تأييده لضمان الاستمرار على طريق الحرية - بعد أن يورد هذه الكلمات يسعى ليحرم الأفغاني من هذا الشرف!.. فيقول: « إن الأفغاني كان مضطرًّا إلى هذا القول، حتى لا

---

(١) التضامن، العدد ٩ (ص ٥٩).

يظهر (في صورة الخائن، فيفقد كل قواعده بين المصريين) إن هو لم يؤيد وزارة (شريف باشا) الدستورية التي تشكلت في ٧ أبريل سنة (١٨٧٩م) »[1]؟!.

ولم يسأل الدكتور لويس نفسه هذا السؤال البسيط: كيف « يضطر » الأفغاني إلى كتابة كلام في خريف سنة (١٨٧٨م) نفاقًا لحكومة تألفت في ٧ أبريل سنة (١٩٧٩م)؟!!.. هل هو « نفاق متنبئ » يا عزيزنا الدكتور لويس؟!.

ومقالة أخرى من مقالات الأفغاني في « الحرية » و« الاستبداد »، يورد لنا الدكتور لويس بعضًا من نصوصها، فنجد في مقاله عن (الحكومة الاستبدادية) - الذي نشرته جريدة (مصر) في ١٤ فبراير سنة (١٨٧٩م) - أي قبل تأليف وزارة شريف!! - نجد قول الأفغاني: « إن من يساسون بالحكومة الدستورية تستيقظ فيهم الفطرة الإنسانية السلمية التي تحفزهم للخروج من حياتهم البهيمية الوضيعة لبلوغ أقصى درجات الكمال والتخلص من نير الحكومة الاستبدادية التي تثقل كواهلهم.. »[2] فالحديث هنا - صراحةً - عن التخلص من « نير الحكومة الاستبدادية ».

وعن « الحكومة الدستورية ».. وليس عن « حكومة الحكماء »، و« غرفة مشورة الحاكم أيًا كان هذا الحاكم »، فمن أين جاء الدكتور لويس بهذه الأحكام؟! وما حيثيات قوله

---

(١) التضامن، العدد ٩ (ص ٥٩).

(٢) التضامن، العدد ١٤ (ص ٧٨).

إن الأفغاني لم يكن له « أي برنامج للحكم الدستوري » في سنوات إقامته بمصر؟!!.

أما النص الثالث الذي أورد الدكتور لويس فقراتٍ منه، فهو مقال الأفغاني المعنون: (العلة الحقيقية لسعادة الإنسان) - وهو الذي نشرته جريدة (مصر) في ١٥ نوفمبر سنة (١٨٧٨م) - وهو الآخر مكتوب ومنشور قبل تأليف وزارة شريف باشا سنة (١٨٧٩م) - وفي هذا المقال يقول جمال الدين: « إنه لا طاعة للحكام إلا إذا قاموا بحماية شعوبهم وحكموا بالقوانين العادلة، أما الحكام الجشعون أو الظالمون فلا تجب لهم طاعة.. ولا نجاة للناس من شقائهم إلا بالاحتكام إلى العقل في كل شيء، وبتحرير أعناقهم من استعباد السلاطين الأنانيين والخروج عن طاعتهم.. »!!.

هذا ما كتبه الأفغاني منذ أكثر من قرنٍ من الزمان.. والدكتور لويس يعترف بما في هذه الأفكار من « حضٍّ على الثورة ودعوةٍ إليها.. »، لكنه لا ينسى أن يقول عنها: « إنها لا تأتي بجديد.. فالأفغاني لا يقدم للناس الحلول الديمقراطية المألوفة، بل يجد الحل في نظرية « المستبد العادل »!! »[1].

إي، واللّـه، هذا هو تقويم الدكتور لويس لآراء الأفغاني

---

(١) التضامن، العدد ٩ (ص ٦٠).

المعادية للاستبداد، والداعية إلى الثورة عليه!.. وبنص كلمات الدكتور لويس!!.

ونحن إذا تجاوزنا ما اقتبسه الدكتور لويس من كتابات الأفغاني عن « الحرية » وعن « الاستبداد » - وهو كافٍ ليضع الأفغاني في مكانته « كأول داعٍ للحرية، وأول شهيدٍ للحرية، في تاريخ الشرق الحديث » كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق -، إذا تجاوزنا ذلك إلى أعمال الأفغاني الفكرية، فسنجد بها الكثير من الشواهد على صدق ما كتبه العلماء المنصفون عن هذا الجانب من فكره ونضاله.. وعلى سبيل المثال:

فإن الأفغاني لا يدع مجالًا للشك - عند المنصف الأمين - في انحيازه إلى مبدأ: « أن الأمة هي مصدر السلطات » في سياسة المجتمع، بما يعنيه ذلك من ضرورة « استمداد السلطة الزمنية قوتها من الأمة »، والتزامها بتحقيق مصالح الأمة وحقوقها، وخاصةً « في الأمن.. والعدل »، وذلك بالمبدأ القائل - وفق ألفاظ الأفغاني -: « إن الإرادة الحرة للشعب الحر هي القانون »!، وفي هذه المعاني المحددة والواضحة يقول جمال الدين: « إن السلطة الزمنية، بمليكها أو سلطانها، إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر، وصيانة حقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن، وتوزيع العدالة المطلقة، إلى آخر ما في الوازع والسلطان من المنافع العامة.

أما إذا أودعت هذه السلطة رجلًا غرًّا جاهلًا عاتيًا، اكتنفه قوم من فاسدي الأخلاق، مجهولي الأعراق، يلغون بالمسلط كيف يشاءون، ثم يحتجون على الشعب بقولهم: « مشيئة الملك قانون المملكة!! ».. هذا القول – على تلك الحالة – مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه، وأن تقاومه بكل ما لديها من قوة؛ لأن الحق في هذا: أن إرادة الشعب – غير المكره وغير المسلوب حريته، قولًا وعملًا، هي قانون ذلك الشعب المتبع، والقانون الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادمًا له، أمينًا على تنفيذه »[1].

وانحياز الأفغاني إلى مبدأ: « الأمة هي مصدر السلطات » و« إرادة الشعب الحر هي القانون »، لم يخل من التصورات المحددة التي تضع هذا المبدأ في التطبيق.. فلقد انحاز الرجل إلى صف « الحكم النيابي »، ودعا إلى أن يكون « النواب » ممثلين حقيقيين للشعب الذي يتحدثون باسمه، وأدان « الأشكال النيابية » التي يصنعها المستعمرون والمستبدون، وفي ذلك كتب يقول :« إن القوة النيابية لأي أمةٍ كانت، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة، وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك، أو أمير، أو قوة أجنبية محركة لها، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة مَنْ أحدثها!.. »[2].

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني (ص ٣٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٧٣).

ولقد سعى الأفغاني - أثناء مقامه بمصر - وعندما تولى الحكم الخديوي توفيق سنة (١٨٧٩م) - سعى إلى هذا الخديوي ليشل تردده إزاء الحكم الدستوري والنيابي - وكانت « حجة » الخديوي أن الشعب لم ينضج إلى الحد الذي يحسن فيه اختيار النواب الأكفاء!.. فتحدث الأفغاني إليه قائلًا: « ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحريةٍ وإخلاصٍ: إن الشعب المصري - كسائر الشعوب - لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ينظرون به إلى سموكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم، فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم.. »[1].

فالشورى هنا - برأي الأفغاني - هي الحكم النيابي، النابع من الشعب، والذي يتولى فيه ممثلو الأمة سلطات التشريع والتقنين والتنفيذ.. وليست « حكومة الحكماء » و « غرفة المشورة للحاكم، أيًا كان هذا الحاكم » كما ادعى الدكتور لويس!!.

بل إن الأفغاني ليذهب في إيمانه « بالحكم الدستوري -

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٧٣).

النيابي » وانحيازه إليه، الحد الذي يرى فيه « حياة مصر والشرق ».. وفي فقده « الموات »!!، فيقول: « لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته، إلا إذا أتاح اللَّـه لكل منهم رجلًا قويًا عادلًا، يحكمه بأهله، على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان؛ لأن بالقوة المطلقة: الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة، وحكم مصر بأهلها إنما أعني به: الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح، وإذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب، فأهم هذه الأشياء: (الحرية) و(الاستقلال)؛ لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذًا بقوةٍ واقتدارٍ، يجبل - (أي يخلط ويطبع) - التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أولي النفوس الأبية والهمم العالية، أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابي الشوري فهو أيسر مطلبًا وأقرب منالًا!!.. »[1].

فالمطلوب هو تجاوز « الشكل » الخادع إلى « المضمون » الحقيقي، الذي يحقق « الاشتراك الأهلي » - (أي اشتراك الشعب في حكم نفسه) - « بالحكم الدستوري الصحيح »!.. وتلك غاية لا بد من أن يدفع الشعب لها « الثمن الغالي » حتى من دماء أبنائه الأمناء!.

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٧٧، ٤٧٨).

وكما أن الحصول على (الحرية) والحكم النيابي الدستوري قد يتطلب القوة والثورة وإراقة الدماء الزكية.. فإن الحفاظ عليه وصيانته قد يتطلب هذا الثمن « الغالي - والطبيعي » أيضًا!.. إذ « لا يسلم - على الغالب - الشكل الدستوري الصحيح مع ملكٍ ذاق لذة التفرد بالسلطان، ويعظم الأمر عليه كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته وغلبه على هواه، ولذلك قلت - (والقائل هو جمال الدين!) -: « إذا أتاح اللّـه رجلًا قويًا عادلًا لمصر وللشرق يحكمه بأهله ».. ذلك الرجل، إما أن يكون موجودًا، أو تأتي به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي - (أي الدستور) - وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقي محافظًا أمينًا على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه، وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس!!!.

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هي خشيت من أمرائها وملوكها عدم الإخلاص لقانونها الأساسي، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلبًا وقالبًا!.. »[1].

تلك هي أفكار الأفغاني التي صاغها في هذه النماذج التي اخترناها من فكره السياسي والدستوري.. والتي ناضل كي يضعها في التطبيق أينما حلّ أو ارتحل، ومنذ أن انخرط في

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٧٨، ٤٧٩).

موكب نضال الشرق في سبيل (الحرية)، و(التجديد)، و (الاستقلال) إلى أن عادت نفسه الزكية إلى بارئها.

فأين هي - إذن - « الأفكار » أو« الممارسات »، بل أين « الشبهات » التي تبيح لقلم يستشعر حامله الأمانة أن يكتب إلى قرائه فيقول: إن الأفغاني كان داعية لحكم « المستبد العادل »؟!

أين مبررات هذا الادعاء الظالم والشاذ والغريب؟!.

وأين الأمانة في تناول إمام أضحى - بفكره ونضاله - جزءًا من ضمير الأمة، على هذا النحو الظالم والشاذ والغريب؟!.

وبعد...

فلقد أشرت في بعض صفحات هذه الدراسة إلى أني قد ترددت - لبعض الوقت - في أن أتناول « بالنقد » و« التفنيد » ما كتبه الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغاني، لما تميز به هذا الذي كتبه من مستوى في الغرابة والشذوذ لم يسبق له - فيما قرأت - مثيل.. اللهم إلا تلك الكتابات التي خطها جهلاء المبشرين وغلاتهم عن الإسلام ونبيه ﷺ قبل أن تشيع المدنية والحضارة في مجتمعات هؤلاء المبشرين!!.

لكني قد عدلت عن التردد، واخترت أن أكتب هذه الصفحات؛ نقدًا وتفنيدًا لما كتبه الدكتور لويس، لا سعيًا

وراء إقناعه بخطأ هذا الذي افتراه وأعانه عليه قوم آخرون!، وإنما لأقيم حوارًا مع القارئ العربي والمسلم حول القضايا التي عرض لها فيما كتب عن جمال الدين.. ذلك أني أعلم أن القراء - حيال الدكتور لويس - فريقان:

أولهما: أولئك الذين لا يحسنون الظن به - أو يسيئون به الظنون - وهؤلاء لا يقيمون وزنًا لما يكتب، وإن استفزهم هذا المستوى الذي بلغه فيما كتب عن الأفغاني!.

وثانيهما: أولئك الذين كانوا يحسنون الظن بالدكتور لويس - ولقد كنت ممن يحسنون الظن بما يكتب الرجل في نطاق تخصصه عن الآداب والفنون الغربية -، ولقد « صدم » هذا الذي كتبه عن الأفغاني ثقة هذا الفريق فيه، وزلزل حسن ظنهم به زلزالًا شديدًا، كما بلبلهم بلبلةً كبرى!، وإلى هذا الفريق - بالدرجة الأولى - قصدت عندما كتبت هذه الصفحات!.

ولست أشك في أن « طلاب الحقيقة »، من قراء الدكتور لويس، الذين كانوا يحسنون به الظن، سيرددون معنا - وهم آسفون -: (عليه العوض، في الدكتور لويس عوض)!!!.

أقول قولي هذا، وأستغفر اللّـه لي وللقراء.. وقد هممت أن أستغفر اللّـه للدكتور لويس على ما افتراه على جمال الدين الأفغاني.. ولكنني تذكرت قول ربي ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ

لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: ٧٩، ٨٠].

***



تذكره مرور

شهبندريه دولت عليه ايران در مصر

نمره

اشكال

سن

قد

چشم

ابرو

ريش

سبيل

صورة تذكرة المرور الصادرة من قنصلية إيران بالقاهرة.. والمزعوم أنها لجمال الدين الأفغاني.. والتي حققنا انعدام صلتها بالأفغاني.



١ - أحمد بن بلا: « المنتقى » مجلة فصلية، العدد الأول، باريس سنة (١٩٨٣م).

٢- أحمد عطية اللّـه: « القاموس الإسلامي »، طبعة القاهرة.

٣- الأفغاني (جمال الدين): « الأعمال الكاملة » دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة (١٩٦٧م)، وطبعة بيروت سنة (١٩٧٩م).

- « البابية » في « دائرة المعارف » تحرير: بطرس البستاني، طبعة بيروت.

٤- الجبرتي (عبد الرحمن): « عجائب الآثار في التراجم والأخبار »، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٨م).

- « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس »، طبعة القاهرة.

٥- جرجي زيدان: « تراجم مشاهير الشرق »، طبعة القاهرة.

٦- جولد سيهر: « جمال الدين الأفغاني » في « دائرة المعارف الإسلامية » الطبعة العربية، الثانية، دار الشعب، القاهرة.

٧- حاجي خليفة: « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون »، طبعة إستانبول سنة (١٩٤١م).

٨- حسن الأمين: « دائرة المعارف الإسلامية الشيعية »، طبعة بيروت.

٩- حسن البنا: « مجموعة الرسائل »، طبعة دار الشهاب، القاهرة.

١٠- الرافعي (عبد الرحمن): « مصطفى كامل »، طبعة القاهرة سنة (١٩٦٢م).

١١- رشيد رضا: « تاريخ الأستاذ الإمام »، طبعة القاهرة سنة (١٩٣١م).

١٢- سركيس (يوسف إليان): « معجم المطبوعات العربية والمعربة »، طبعة القاهرة سنة (١٩٢٨م).

١٣- سليم نقاش: « مصر للمصريين »، طبعة الإسكندرية سنة (١٨٨٤م).

١٤- صابر طعيمة: « الماسونية ذلك العالم المجهول »، طبعة بيروت سنة (١٩٧٩م).

١٥- الطهطاوي (رفاعة رافع): « الأعمال الكاملة » دراسة وتحقيق: د.محمد عمارة، طبعة بيروت سنة (١٩٧٣م).

١٦- الطوسي (أبو جعفر): « تلخيص الشافي »، طبعة النجف سنة (١٣٨٣- ١٣٨٤ هـ).

١٧- فيليب حتى: « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين »، طبعة بيروت سنة (١٩٥٨م).

١٨- الكواكبي (عبد الرحمن): « الأعمال الكاملة » دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة (١٩٧٥م).

١٩- لوتسكي: « تاريخ الأقطار العربية الحديثة »، طبعة موسكو سنة (١٩٧١م).

٢٠- لوثروب ستودارد: « حاضر العالم الإسلامي »، طبعة بيروت سنة (١٩٧١م).

٢١- لويس عوض (دكتور): « الإيراني الغامض في مصر » مجلة « التضامن »، لندن - الأعداد ١ - ٢٢، سنة (١٩٨٣م) (وأصل هذه الدراسة قبل نشرها).

- « تاريخ الفكر المصري الحديث » (ج ١، ٢)، طبعة كتاب الهلال، القاهرة سنة (١٩٦٩م).

- « مقدمة في فقه اللغة العربية »، طبعة القاهرة سنة (١٩٨٠م).

٢٢- محسن الأمين: « جمال الدين الأفغاني » طبعة بدون تاريخ ولا مكان الطبع.

٢٣- محمد عبده: « الأعمال الكاملة » دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة (١٩٧٢م).

٢٤- محمد عمارة (دكتور): « العروبة في العصر الحديث »، طبعة القاهرة سنة (١٩٦٨م).

- « العرب والتحدي »، طبعة الكويت سنة (١٩٨١م).

- « المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد »، طبعة القاهرة سنة (١٩٧١م).

٢٥- محمد الفاضل ابن عاشور: « التفسير ورجاله »، طبعة القاهرة سنة (١٩٧٠م).

٢٦- محمد فؤاد عبد الباقي: « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم »، طبعة دار الشعب، القاهرة.

٢٧- محمد مختار باشا المصري: « كتاب التوفيقات الإلهامية » دراسة وتحقيق: د. محمدعمارة، طبعة بيروت سنة (١٩٨٠م).

٢٨- مصطفى عبد الرازق: « جمال الدين الأفغاني » مقدمة مجموعة « العروة الوثقى »، طبعة القاهرة سنة (١٩٢٧م).

٢٩- ميرزا لطف اللّه: « جمال الدين الأسد آبادي - المعروف بالأفغاني »، طبعة القاهرة سنة (١٩٥٧م).

٣٠- وينسنك (أ. ي): « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف »، طبعة ليدن (١٩٣٦ - ١٩٦٩م).

- دوريات:

١- الأهرام.

٢- السياسة الدولية.

٣- اللواء.

٤- ملف المستقبلات العربية البديلة.

***

السيرة الذاتية للمؤلف



* الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة.

* مفكر بارز واكب الحركة الفكرية المعاصرة ونفذ إلى أعماقها.

* ولد بمصر سنة (١٣٤٩هـ - ١٩٣١م).

* درس بالأزهر تسع سنوات - حتى نهاية المرحلة الثانوية - ثم في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، ومنها نال درجة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية .

* أنجز دراساته العليا بكلية دار العلوم - في الفلسفة الإسلامية، وكانت أطروحته للماجستير عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، أما موضوع الدكتوراه فكان عن (الإسلام وفلسفة الحكم).

* متفرغ للعمل الفكري، قدَّم للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من ٢٠٠ كتاب - ما بين تأليف وتحقيق لتراثنا - القديم منه والحديث - وتبرز في أعماله الفكرية اهتماماته بقضايا الفكر الإسلامي المتنوعة قديمها وحديثها، وكذلك قضايا التراث الفكري والفلسفي والحضاري - في محاولة جادة للإسهام في صياغة المشروع الحضاري العربي الإسلامي البديل عن مشروع التغريب، كما تتميز كتاباته

بالنظرة النقدية لتراث حقبة التراجع والجمود في تاريخنا الحضاري، وبقراءة جديدة لأصولنا الفكرية في ضوء متغيرات العصر، وبمنطق الأصالة الإسلامية المعاصرة المتميزة.

* من أهم كتبه:

الأعمال الكاملة لرواد عصر النهضة، الطهطاوي ومحمد عبده والكواكبي.

- كما كتب في (الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري)، و (الإسلام وحقوق الإنسان)، و(الغزو الفكري وهم أم حقيقة)، و(الطريق إلى اليقظة الإسلامية)، و(العلمانية ونهضتنا الحديثة)، و(الإسلام والمستقبل)،و(الاستقلال الحضاري).

***

رقم الإيداع
٢٠٠٩ /١١٢٥٩
الترقيم الدولي I.S.B.N
977 - 342 - 762 - 5